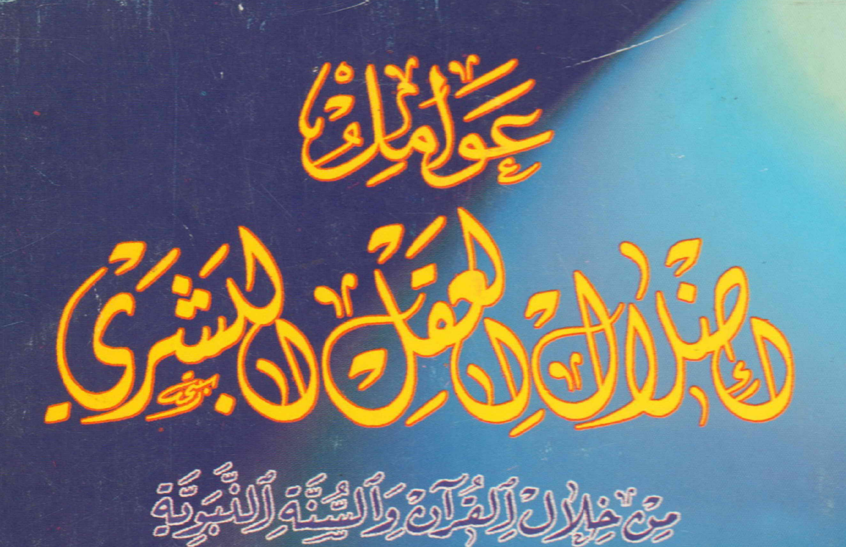
عوامل ضلال العقل البشري

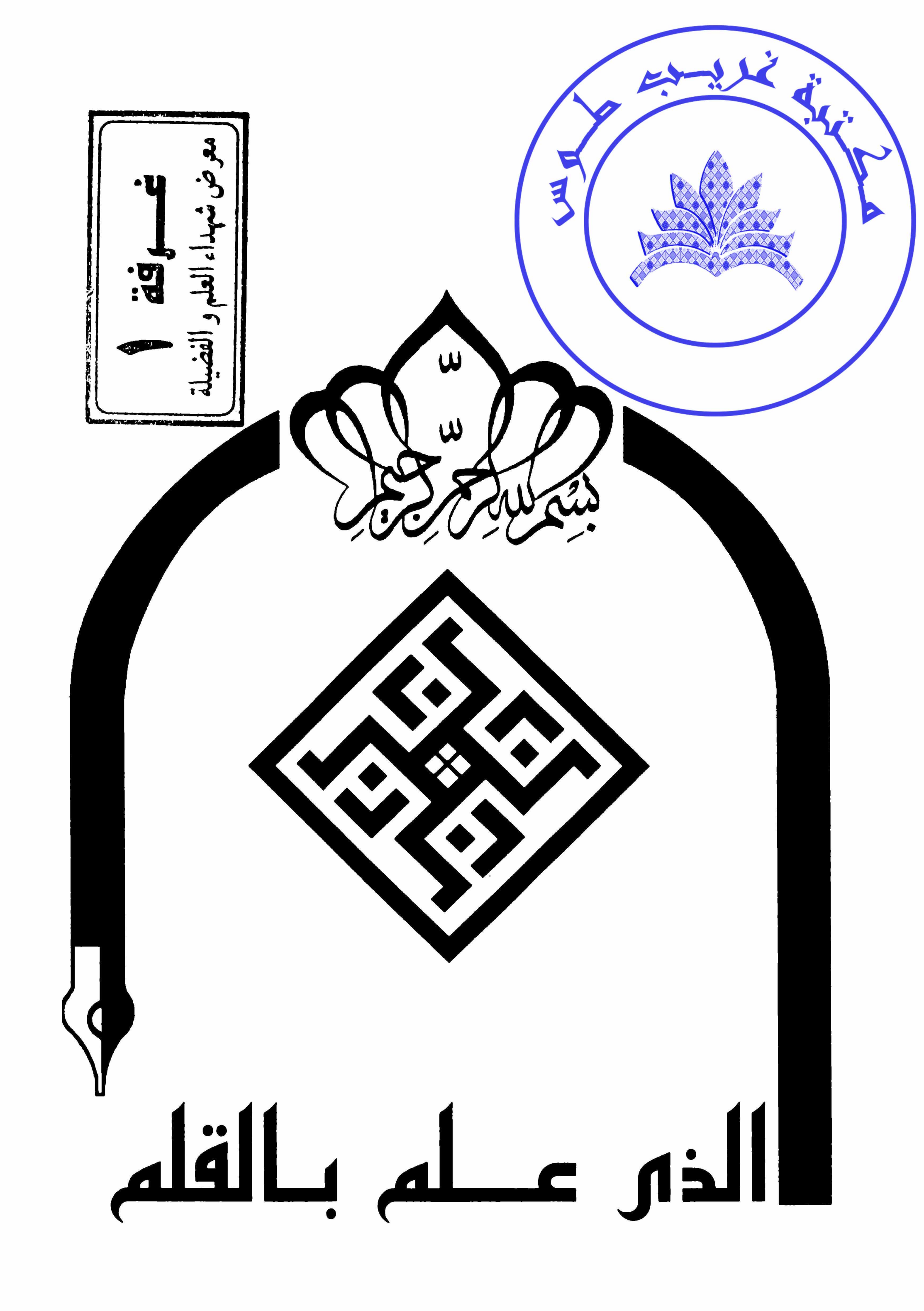
من خلال القرآن والسنة النبوية



دراسة علمية تحليلية معمقة لعوامل الانحراف

تأليف
سامي الغريري

زهراء أكادمي



معرفة ١
معرض شهداء العلم و الفضيلة
مكتبة غريب طوس
بسم الله الرحمن الرحيم
الذى علم بالقلم

عوامل
إضلال العقل البشري

من خلال القرآن والسُّنَّة النَّبويَّة

دراسةٌ علميةٌ تحليليةٌ معمقَّةٌ
لعوامل الإنحراف

تـالـيـف

سـامـي الـغـريـريّ

هوّية الكتاب:

الكتاب: .... عوامل إضلال العقل البشري من خلال القرآن والسُّنّة النّبوّية

المؤلف: .... سامي الغريري

الطباع:.. محمّد صادق عزيزى

المطبعة:.. سيد الشهداء

الطبعة:.. الأولىٰ

سنة الطبع:.. ١٤٢١ هجرية

الناشر:.. زهراء(س) آكادمى

الكمية:... ١٠٠٠

شابك: ٩٦٤/٦٤٣٩/٤٢/٤٣

كلمة المؤسّسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسكن عبادَهُ هذه الدار، وجعلها لهم منزلة سفر من الأسفار، وجعل الدار الآخرة هي دار القَرار، وجعل بين الدنيا والآخرة بَرْزَخاً يدل علىٰ فناء الدنيا باعتبار، وهو في الحقيقة إمّا روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار، ويرفق بعباده الأبرار نسعتينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا بمحمّد المصطفىٰ ﷺ وآل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام .

قال الإمام الباقر عليه السلام: (لمّا خلق الله العقل استنطقه ثمَّ قال له: أقبل فأقبل، ثمَّ قال له: أدبر فأدبر، ثمَّ قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليَّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أُحبّ، أمّا إنّي إيّاك آمر، وأيّاك أنهىٰ، وإيّاك أُعاقب، وأيّاك أُثيب)

إذاً العقل هو الحجة فيما بين العباد وبين الله، وهو الطريق إلىٰ معرفة الله علىٰ الرغم من أن عقل الإنسان محدود لا يستطيع أن يدرك جميع الحقائق، فهو قاصر لابد له من نظام وقانون يسير عليه ليصل إلىٰ سعادته الدنيوية والأُخروية، وهذا القانون والنظام لا يمكن صدوره إلا من العقل المطلق الذي يحيط بكل شيء، إذ بعد ماثبتت محدودية عقل الإنسان كيف يمكن أو يُتصور أن يكون هو المقنن! وإذا وضع قانوناً لتنظيم معاشه وترتيب أموره فهو قانون ناقصٌ قاصرٌ بالضرورة .

فتبين أن القانون الذي ينظم المجتمع لا يمكن صدوره إلا من الله المحيط بكل شيء خالق هذا العقل المحدود .

ويجب علىٰ كل مسلم أن يؤمن بأن ما يجد في عصرنا من إدراك علمي لآيات القرآن ليس معناه أن حقائق القرآن تغيرت أو تطورت في ذاتها، وإنما الذي يتغير ويتطور هو عقل الإنسان الذي يتسع إذا استنار واستقام فكره مع كثرة البحث والدرس والتجريب فيبدو له القرآن علىٰ حقيقته الأُصلية الخالدة .

إذاً العقل يمثل التقدم، ويمثل القوة الخلاقة المبدعة. وإن العقلانية تفرض

علينا بأن نحترم الرأي الذي نقوم بدراسته وتحليله، ولا نلجأ إلىٰ تشويهه وتزييفه.

إن الموضوعية توجب علينا النظر إلىٰ إيجابيات المفكر العقلائي ثمَّ بعد ذلك ننظر إلىٰ سلبياته؛ لأن الله جل جلاله لا يغيب عن علمه شيء في وزن الذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من هذا ولا أكبر منه إن ذلك كله يسجل في كتاب عند الله واضح بين .

وبعد فقد مَن الله تعالىٰ علىٰ هذا العبد الصالح خادم أهل البيت عليهم السلام فجعل يراعه ذاباً عن المرجعية المعصومة وهي كتاب الله وسنة نبيه وآله صلوات الله عليهم أجمعين من قول وفعل وتقرير، فكان حقاً متتبعاً دقيقاً وعارفاً متصلباً في دينه متنمراً في ذات الله لا يخاف في الله لومة لائم، فقد اشتمل بأذياله، وصرف الهمة في الدفاع العلمي عن المرجعية المعصومة، ومن الإنصاف للشيخ الغريريّ، قولنا: إنه بارع في التحليل ؛ وليس أدل علىٰ ذلك من وقفته مع كل المشككين والمناوئين وأصحاب الأراجيف الباطلة، ويقيم البراهين بشهادة أهل الخبرة والمعرفة .

وأحسب أنه لو امتهن المحاماة لما جاء في الرعيل الأخير فإن له من خصائص الاستدلال والخلوص إلىٰ النتائج، ما يكفل له النجاح .

ونظراً لأهمية الكتاب وقيمته العلمية والتحليلية والموضوعية فقد قامت مؤسّسة زهراء (س) آكادمي بطبعه ونشره، بعد أن أخذت علىٰ عاتقها منذ تأسيسها التحقيق والتأليف ونشر كل ما يتعلق في إحياء التراث الإسلامي والدفاع عن الدين وأهل البيت عليهم السلام راجية من رافع السبع الطباق، ومنشيء الكائنات علىٰ أحسن نظام واتساق، والذي أحصىٰ الخلائق وأبدع المذاهب والطرائق، والذي أنار مناراً للعلماء، ونشر لهم علىٰ صفحات الكائنات من الفضل عَلَمًا، أن نحمده حمدَ معترفٍ بنعمائه، مغترفٍ من حياض آلائه.

السيّد حسين مرتضىٰ النقوي صدر الأفاضل

مؤسّسة زهراء(س) آكادمي

المدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أعظم هبة وهبها الله سبحانه وتعالىٰ للإنسان وكرمه به علىٰ سائر المخلوقات هوالعقل ، ومنحه حرية الاختيار ، وبه استدل علىٰ وجوده سبحانه وتعالىٰ ، وبه عرف عدله وتوحيده ، وبه اكتشف أسرار التكوين وحمل الأمانة الّتي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال وأشفقت منها ، فكان حملها بالنسبة للإنسان تكليفاً وتشريفاً ومسؤولية.

ومن منا لايؤمن بالعقل ولايدرك به تمام الادراك فإنه لامعرفة ولانور ولا هداية بدون العقل. وبالعقل توصل الإنسان إلىٰ تنظيم حياته لامتلاكه القدرة الخلاقة علىٰ اكتشاف السنن والقوانين الّتي تحكم الأنفس ، أو تحكم الآفاق. وبهذا وذاك يتمكن من القيام بمهمة الاستخلاف وتحقيق العبودية الّتي تمثل له الغاية القصوىٰ والهدف الأسمىٰ الّذي هو علة الخلق والتكليف كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالاِنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، أو إخلاص العبودية له سبحانه وتعالىٰ أو التقرب إليه أو معرفته وتقواه ، وهداية الخلق وأخراجهم من ظلمات الجهل إلىٰ النور كما قال تعالىٰ: ﴿...لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلىٰ النُّورِ﴾[2].

ودعا القرآن الكريم العقل ليغرف مايستطيع أن يغرفه من معينه العذب ، وينظر ويستنتج من خلال المنهج العلمي الرائع.

والنبي ﷺ ، هو الّذي جُعل وحده محل الأسوة والقدوة بعد الوحدة الوجودية والذات الإلهية كما قال تعالىٰ: ﴿...لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

---

١ - سورة الذاريات :٥٦.

٢ - إبراهيم:١.

حَسَنَةٌ ﴾[١] بعصمته ، وقدرته ، ومرجعيته ﷺ ، الّتي جعل العقل فيها دليل الوحي وبالتالي فإن العقل لابد من الاعتماد عليه بعد مرحلة ختم النبوة وانقطاع الوحي وأهل بيت النبيﷺ ، وبعد بناء العقل الإسلامي الصحيح السليم في ضوء معطيات الوحي القرآني ، والروائي ، الّذي هو مصدر أصيل لمعرفة الإنسان بذاته وبشؤون مجتمعه وبالكون من حوله ، ومعرفة الإنسان بمصيره ومآله ، كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[٢]، لأن العقل السليم هو الّذي باستطاعته أن يميز بين المعايير والثوابت والمرتكزات الّتي حققها من خلال معرفة الوحي ، والّتي أعطته القدرة علىٰ التخطئة والتصويب ، والتقويم والمراجعة ، والاجتهاد والتقليد ، والتقدم والتأخر ، والإرادة والتخاذل ، والتشاور والتحاور ـ الحوار ـ والفرار من قدر إلىٰ قدر ، والتعامل مع الخوارق بجدية وتحرر ، والهروب من الإلغاء والتبعية إلىٰ المسؤولية والفاعلية ، ومن مبادىء البيئة والمناخ ، والعودة إلىٰ مبادىء القيم والأخلاق المعصومة في الكتاب والسنة ، وبالتالي تكون للعقل القدرة علىٰ الإنتاج والتوليد والابتكار في عالم الأفكار والإبداع بعد النظر والتأمل في الأشياء ، وإلا يصبح كالذي يطرح مشروعاً أياً كان نوعه؛ فإن لم تكن عناصره عقلية مستندة إلىٰ المعرفة والخبرة فإن مشروعه ومحاولاته قد تكون خاطئة بدرجة كبيرة جداً، بل كأنه يسعىٰ في مشروعه للموت ، وهذا ماعملت به الاتجاهات المادية والسلفية الّتي أخذت تتشبث وتتغنىٰ بالتراث فقط وفقط ـ وأي تراث هو؟ ـ دون الرجوع إلىٰ العقل في الاتجاهات الفلسفية والأصولية ، ولذا نجد كماً هائلاً من المغالطات الكلامية والأصولية... وبالتالي عطلوا العقل عن دوره الفعال حتىٰ في أبسط الأمور وأدىٰ هذا

---

١ - الأحزاب : ٢١.

٢ - البقرة : ١٤٣.

التعطيل إلىٰ نتائج عكسية ، وإذا تحققت لدىٰ العقل من خلال المعرفة الّتي زود بها الحصانة القوية أمام كل محاولات الإلغاء والاحتواء الثقافي ، لأن هذه المعرفة هي من أخص خصائصه ، وكلما استمرت استمر في نتاجه وعطائه وحياته بما فيها من التبديل والتغيير، بدل الالغاء والإضافة ، وهذا مما يطلق عليه بـ «الاجتهاد الفكري» الّذي ينزل القيم المثالية إلىٰ الواقعية من خلال الظروف الملائمة والطارئة بما يملكه من منهجية ورؤية مستقبلية دنيوية وأخروية ، لأن الأزمة هنا أزمة فكر ومنهج ، وتخطيط ، بسبب إبتعاده عن مرجعيته الأصلية وهي الّتي سببت له هذه الأزمات ، لكن يبقىٰ الإنسان ذو العقلية السليمة الصحيحة ، وصاحب الاختيار الحرّ تحت الشروط والقيم الثابته غير الشروط البيئية والنفسية والاجتماعية. ومن معالم حضارته المرتبطة تأريخياً بالعقيدة الدينية والتعاليم النبوية ـ معارف الوحي ـ تتشكل شخصيته كما يقول مالك بن نبي: « لاتظهر في أُمّة من الأُمّم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجاً... أو هي علىٰ الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنىٰ العام فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث عند نظره إلىٰ ماوراء حياته الأرضية أو بعيداً عن حقيقته ، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته كاملة ـ وهذا لايتحقق دون معارف الوحي ـ يكتشف معها أسمىٰ معاني الأشياء الّتي تشكل له مركز الرؤية ، وتتفاعل مع عبقريته» [١].

وطرح كل هذه الإشكاليات علىٰ العقل لم تأخذ لحد الآن الحيز الدقيق والكافي في عملية النهوض الحضاري العميق من خلال القرآن والسنة ، بل هي إن وجدت علىٰ شكل إثارات وإشارات وتنبيهات لم تصل إلىٰ المستوىٰ المطلوب ، وذلك نتيجة الخلط بين القيم الإسلامية المعصومة في الكتاب والسنة ، وبين العقل

---

١ - آفاق جزائرية لمالك بن نبي ترجمة الطيب الشريف ص: ١٥٤.

وما ينتجه من أفكار ورؤىٰ ومنطلقات بعيدة عن المرجعية المعصومة ، وكأن العقل قد استقل بمفرده ، بل الصحيح هو الجمع بين فقه القيم المعصومة ، وفقه الواقع الموجود والمطبق بتنزيل الإسلام علىٰ الواقع ، والارتقاء بهذا الواقع الحضاري، وبين العقل السليم النابع من هذه القيم ، الّتي شكلت له المنطلق الأساسي ودوره الإبداعي المبرمج ، والّذي بدوره يكون القلب النابض للروافد الشرعية لحركة الأُمّة والمجتمع ، بعكس الّذي خلط وأدىٰ خلطه إلىٰ الاسترخاء والكسل العقلي والترهل الحضاري ، لعدم إدراكه لدور العقل الفاعل ، بل اعتبره سفينة ، أو وعاء للشحن من التراث فقط دون القدرة علىٰ الإجابة للتساؤلات الّتي تساهم في حل الإشكاليات ، والكيفيات للحياة المعاصرة ، دون تحليل الواقع ، ودراسته الأسباب والخصائص ، والمؤثرات الّتي تطرأ ، سواء كانت في التربية الاجتماعية ، أو الأخلاقية ، أو في العلوم الأخرىٰ. وهذا مما جعل بعض المفكرين يعطلون دور العقل وعجزه عن إدراك وسائل التغيير ، بل اقتصروا دوره علىٰ الشعارات والأماني، بنقل تراث الماضين ، بحيث يؤدي النقل إلىٰ براءة للنفس ، من كل خطأ سواء كان في الاجتهاد أو الفشل في تحقيق الهدف ، لسبب من الأسباب بشيوع الإرهاب ، والاستبداد ، والتخلف ، والتقليد الأعمىٰ ، وبالتالي تحويل مجال الأجر والثواب في الاجتهاد إلىٰ ساحة التأثم والذنب. وإن الأُمّة الّتي تكتفي بالنقل عن الآخرين ، ولا تسهم في الإبداع الحضاري ، والعلمي ، فهذه أُمّة لا تنهض بالمستوىٰ المطلوب ، لقيام حضارة وفلسفة علمية متينة. وإن الأُمّة الّتي يسودها الاعتقاد بأن ينفصل علمها وثقافتها عن دينها وتصبح ثقافتها علمانيّة ، فهي أُمّة مشلولة الحركة في الإبداع والابتكار.

طبعاً هذا المناخ مشحون بالتوتر ، والتخوف ، والاستبداد ، الّذي عطل الكثير من وظيفة العقل البشري السليم ، بل شلّ حركته الأصلية. فالعقل يمثل الثورة في التقدم العلمي ، والثقافي ، والأخلاقي ، وهو القوة الخلاقة المبدعة ، ومايتغنىٰ به بعضٌ بحضارة أُوربا ، ماهو إلا وهم وخيال ، وذلك نتيجة عدم دراسة العقل ، وفق

الكتاب والسنة ، لأن النور كما يدعي المدعي المنطلق من أُوربا ، لايمكن أن ينطلق إلا من العقل السليم ، ولم نسمع من آي الذكر الحكيم ، ولا من روايات السنة وأهل بيت العصمة والطهارة ، ولا من الصحابة ، ولا من التابعين ، بل ولا من الدراية كل هذه بأنها تسخر من العقل ، بل بالعكس كل هذه المصادر والمنابع ، أخذت ولازالت تُمجد وتمدح العقل ، وترتب عليه آثار الثواب والعقاب. ولذا لانجد ابتعاداً عن العقل والمعقول ، لا في القرآن ، ولا في السنة المطهرة ، ولا في حياة الأئمة الأطهار ، ولا في حياة مفكرينا الأوائل: كالشيخ المفيد ، والسيد المرتضىٰ ، وابن بابويه ، والشيخ الطوسي ، والصدوق ، والفارابي ، وابن رشد ، وابن سينا ، ولا في حياة المعاصرين ، كالإمام الخميني ، والشهيد الصدر ، والمطهري ، والشيخ محمّد عبده ، وإقبال ، وعودة ، ومالك بن نبي ، وعماد الدين خليل ، وجمال الدين عطية ، وطارق البشري وراشد الغنوش ، وعبد الواحد المسيري ، وفهمي هويدي ، ومنىٰ أبو الفضل ، ونصر محمّد عارف ، و... و... بل نجد الابتعاد عن العقل عند أصحاب الاتجاهات الّتي تسمي نفسها بصاحبة النظريات المعاصرة، والّتي تطلق علىٰ نفسها صاحبة النظريات المثالية ، والافلاطونية ، والميتافيزيقيا ، والأصالة والتجديد والتحديث. وأن أكثر هؤلاء لايعلمون ، لأنهم يضربون العقل عرض الحائط بتركيز اهتمامهم علىٰ العمل التجريبي بمعزل عن العقل . وهذا مما ينطبق عليهم قوله تعالىٰ :﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، لأن الخلط هذا ، أدىٰ إلىٰ أن الغزو الفكري الأوروبي ، للمبادئ والقيم الإسلامية ، وأدىٰ إلىٰ فتاوىٰ الأهواء والسلطة ، والتسويغ والتبرير ، لسياسة حكام الجور ، وظلم الطغاة ، وبالتالي عدم الخروج علىٰ هؤلاء ، وتعطيل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاصرة العقل ، واتخذت التقليد الأعمىٰ بدل الاجتهاد ، والتبعية بدل الإبداع والتقدم ، وهذا ماحذرت منه النصوص

---

١ - الكافرون :٦.

كما في قوله ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتىٰ لو دخلوا في جُحْرِ ضب لاتبعتموهم»، قلنا يارسول الله! اليهود والنصارىٰ؟ قال «فمن»[١]. ثم هؤلاء نشروا المقولة الزائفة الّتي تدعي الصراع ، بين العقل والدين ، والّتي مارستها الكنيسة، وجعلت منها: بأن الدين يناقض ، بل نقيض العلم والعقل ، وقاموا بإلغاء العقل وإغلاقه ، بحجة: «من تفلسف تزندق»، وشنت حملة شعواء واسعة ضد المفكرين والعلماء ، بل إنها اتخذت شعار: «أطفئ السراج»، وقصدت سراج العقل واتباع التقليد الأعمىٰ، وخاصة إذا كان من الغرب. ثم نسبت ذلك التعطيل العقلي إلىٰ إرادة الله سبحانه وتعالىٰ . ولهذا تخوف أصحاب النظرية العقلية ، من إحياء وظيفة العقل ، لأنهم نشأوا في مناخ الإرهاب الفكري النصراني ، الّذي يفصل بين الدين والعلم ، أو بين الدين والعقل. إن الصراع التأريخي بين المؤسستين اللتين تنازعتا السيادة في الغرب خلال القرون الوسطىٰ وهما الكنيسة والدولة الملكية... وهذا الصراع قد انتهىٰ إلىٰ مصالحة تأريخية صيغت في شكل مبدإ سياسي ودستوري لم يعد محلاً للمناقشة، أو الجدال في الفكر الغربي ، وأعني مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة وذلك بسبب جمود الكنيسة ورجالها. ولذلك قررت أمريكا وضع جدار مرتفع كجدار برلين يفصل بين الكنيسة والدولة. ولكن هذا الجدار تحول بالتالي إلىٰ إقصاء كل ماهو ديني عن مسيرة التطور الإنساني وبالتالي أدىٰ إلىٰ ان حضارة الغرب وقفت علىٰ ابواب طلاق بائن بين المكوّن المسيحي، والمكوّن العقلائي المادي، المستمد من أُصول يونانية. وبالتالي اصبحت الكنيسة محاصرة بعد أن حبست المسيحية في داخل جدرانها واصبح لن يقبل عليها إلا الهاربون من الحياة ، والعاجزون عن التعامل مع نواميس التطور الحضاري. ومع الأسف الشديد نرىٰ هذا المرض انتقل إلىٰ بعض فرق المسلمين الّتي لم تعرف الفرق

---

١ - مسند أحمد ٢: ٣٢٤ و ٤٥٠، صحيح مسلم ٨: ٥٧، صحيح البخاري ٨: ١٥١ .

بين الإسلام المرجعي وبين الغلو في الدين، والسلوك. واصبح الانعزال عن تيار الحياة والفرار إلىٰ التغيير، ومن مواجهة النص المرجعي الأُصولي إلىٰ ممارسة العنف الّذي يصطدم بروح الإسلام ونصوضه القطعية. ولذا خلطوا بين الظاهرتين بعد ان تردد بعض علماء المسلمين أو تحجروا ، وتعودوا علىٰ الاساليب القديمة ، ورفضوا التجديد في الفقه وأُصول الفقه علىٰ نحو يسمح باستيعاب صور التطور الحضاري، مع العلم إن العلم مع تقدمه الهائل ، لا يعرف حتىٰ اليوم حقيقة الإنسان ، ولا مصيره ولا تكوينه. والإنسان لم يزل بالنسبة إلىٰ العلم لغز الكون الأكبر ، في خين أن الدين يقدم صورة واضحة لأصل الإنسان ، وتكوينه ، ومصيره ، والغاية من وجوده ، والعلم المعاصر هو ثمرة «العقل الوثني»، البعيد عن الإسلام ، والرؤيا الإسلامية الصحيحة ، بنظر المفكرين المسلمين المعاصرين المحافظين ، فكذلك كانت الفلسفة الإسلامية ، وعلم الكلام في نظرهم نتاج التأثير بـ «العقل الوثني» ،اليوناني[١]. وبالتالي فإن ما يسمىٰ بالفلاسفة المسلمين ، والمتكلمين ، وقعوا في خطأ فادح ، وهو خطأ «العقل الوثني» الّذي هو أبعد ما يكون عن روح الإسلام وتعاليمه ، فبدلاً من أن يحفظوا للإسلام أصالته ، فإنهم شوهوا العقيدة الإسلامية ، وذلك منذ اللحظة الّتي استخدموا فيها نماذج الفكر الإغريقي في مباحثهم [٢]. ومع الأسف الشديد لايزال هذا التخوف سائداً في أكثر أوساط المفكرين الإسلاميين ، بل تعدا ذلك من الخوف إلىٰ أفتعال المعارك الجانبية المفتعلة بين العقل والوحي، الّذي به يميز بين الخطأ والصواب والّذي هو مصدره الله سبحانه وتعالىٰ وخاصة عندما يتعامل مع الموروث الحضاري والثقافي والديني ـ الكتاب والسنة ـ والاجتهادات الّتي ربما تكون خاطئة. لأننا لانتمسك بالمقولة القائلة بأن اجتهاد العصر الأول هو اجتهاد

---

١ - التراث العلمي للحضارة الإسلامية لأحمد فؤاد باشا ص:١٥٤.

٢ - العقل والشريعة د.مهدي فضل الله ص:٣٦.

خير القرون ، ولاحاجة لنا إلىٰ اجتهاد المجتهدين في مقابل النص علىٰ مرّ العصور ولاندعي الغلق التام للاجتهاد ، ولا الانفتاح المطلق أيضاً علىٰ الاجتهاد ، بل تحت شروط موضوعية . وليس القفز أو الإلغاء لتلك الاجتهادات بل العودة في الاجتهاد إلىٰ التراث الحضاري بكل جوانبه السلبية والإيجابية ، فنطرح السلبيات ونأخذ الإيجابيات ، لأن التجاوز والإلغاء ليس بمنهج سليم، لا يقبلهما العلم والعقل والدين، بل المشكلة هي الانتقاء من التراث بنظرة أُحادية الجانب ، ونقل القدسية من المرجعية المعصومة إلىٰ الاجتهادية البشرية الأحادية ، والّتي تسيطر علىٰ كل القيم وتصبح حاكمة ومفسرة لتراث المرجعة المعصومة. وهنا تقع الطامة الكبرىٰ من قبل بعض المتطفلين علىٰ الاجتهاد وتنعكس عملية الاجتهاد إلىٰ عملية العقل ، وبالتالي يتهم العقل والتراث للمرجعية المعصومة بالعجز عن التجديد والتغيير ، وتصبح الثقافة الفردية هي الحاكم والمقوم ، والّتي تسمىٰ بـ «الملامح الفردية»، تارة. وبـ «الفردية المتصعلكة»، تارة ثانية. وبـ «الفردية الدونجوانية»، الّتي ظهرت عند نزار قباني تارة ثالثة. وبـ «الفردية الطائشة»، تارة رابعة وهي الّتي تتلاعب بالكلمات. وغلب فقه المخارج ، علىٰ فقه المقاصد ، ويصبح لكل انسان معاييره الخاصةِ به ، بعيداً عن الضوابط الّتي تحدد قراءة تراث المرجعية المعصومة ، وتبدأ التفسيرات ، والانفعالات ، والاستحسانات ، لتكريس التخلف بكل أنواعه ، وعدم معالجة الدخيل الأجنبي للفكر الإسلامي ، والتراث الإسلامي ، وعدم عرضه علىٰ القيم المعصومة ، بل تلغىٰ في أكثر الأحايين هذه القيم المعصومة ، ويثبت بدلها الدخيل الأجنبي ، ويصبح هو الحاكم ، ويستعمل في كل المجالات ، بغض النظر عن خلفياته الفكرية ، ومتشعباته الثقافية ، ومكوناته النفسية ، ويُدرس ويُدَّرس ، تحت عناوين متعددة: إعادة التشكيل الثقافي ، أو تحت مصطلح الثابت والمتغير ، أو حركة النهوض والتجديد ، وهي الّتي تكون بحد ذاتها مصطلحات مقبولة ومرضية تقريباً للجميع ، ولكن عند الغوص في تحديد مضامينها ومعاييرها ومقوماتها

وأسسها تتلاشىٰ هذه الشعارات والمصطلحات، وتصبح بالتالي مصطلحات للتفريق والتمزيق والاختلاف. وهذا لا يعني اننا لا نعتقد بوجود ثوابت ومرتكزات ثقافية لعقول أصحاب هذه المصطلحات ، لكن إذا كانت هذه الثوابت والقيم ناشئة من وضع الإنسان نفسه المحكوم عليه بمجموعة من المؤثرات الذاتية والنفسية والزمانية ، فإنها تفتقد إلىٰ صفة الثبوت والخلود؛ إضافة إلىٰ عدم أرتكازها علىٰ عنصر الأحترام والقبول الّذي يضمن لها البقاء ، بل ترفض لأنها من ذلك المخلوق العاجز الّذي يريد أن يمتاز ويتفوق ويستعلي علىٰ الشريعة. وهذه كلها لاتشكّل قيداً يحاصر العقل البشري ويحول دون انطلاقاته الفكرية والثقافية والّتي يشكّل منها رؤية مركزية، أو علمية فكرية استقرائية، أو استنتاجية، أو تحليلية، أو تركيبية تنشأ من فراغ ؛ بعيداً عن المقومات الأسية للنظرية أو للعملية العقلية ، لأننا نعلم أن معارف العقل هي معارف الوحي القطعية الثبوت ، القطعية الدلالة ، ولكن مهمة العقل هنا هي مهمة التنزيل والفهم والّتي نطلق عليها بعملية الاجتهاد. أما الظنيات فيمكن أن تختلف وجهات النظر الفقهي فيها وبالتالي تمنح الثوابت الّتي منبعها المرجعية المعصومة الاستقرار والثبوت والدوام والاستمرار الّذي هو من أهم خصائص المرجعية المعصومة ، لأنها نابعة وصادرة من خالق حكيم عالم بكينونة خلقه ويشرع لهم المعارف القطعية ، بل حتىٰ الظنية عندنا طبقاً للمصلحة والمفسدة لأنها ليست من وضع العقل ، ووضع اليد البشرية الّتي تكون عرضة للاهتزاز والتغيير والتبديل ، بل إلىٰ الألغاء أحياناً ما ، ولذا نرىٰ الخالق قد تكفل بحفظ هذه المرجعية المعصومة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ، ومايطرأ علىٰ هذه الأُمّة إنما هو عقوبات تأديبية علىٰ المعاصي السلوكية والفكرية الّتي يرتكبها الفرد بحجة النهوض الحضاري، لكن في واقعه هو الانهدام الحضاري والركود

---

١ - الحجر :٩.

والجمود ، وتكريس التبعية ، وحماية الاستبداد الفكري الأوربي ، وليس من العبث أن يبدأ الوحي الإلهي بهدايته الأولىٰ بكلمة «اقرأ» كمنطلق لعملية البناء الحضاري الرسالي والثقافي ، لكن الضخ الإعلامي بكل اتجاهاته وقنواته ، ووسائل تقدمه من التكنولوجيا العالية الّتي تجاوزت كل الحدود بدأ يصب جام غضبه علىٰ المسلمين بحجة التطور والتقدم الأوربي والغربي. وهذه الوسائل والأدوات التقطها بعض الذين يعيشون علىٰ الأرض الإسلامية من تغربيين وعلمانيين بما يمتلكون من القدرة علىٰ الترجمة والتفنن بأطروحاتهم فأخذوا يُسَكْنُوُن بها ويرشدُون الساحة الإسلامية بالمناهج الغربية وفقاً لأطروحة الشحن من أُوربا والتفريغ في المدارس والديار والجامعات الإسلامية والعربية حسب المناهج المقررة في اختيار العناوين والأهداف والأساليب. ثم الخروج من التعميمات والشعارات إلىٰ ميدان الواقع والاختصاص والاستقراء والاستدلال والاستنتاج ، فأصبح العالم الإسلامي كمختبر ميداني تجريبي تجسيدي للنظريات الغربية. حتىٰ وصل الأمر بمحمّد أحمد خلف الله إلىٰ أن يقول في كتابه العدل الإسلامي: «إن البشرية لم تعد في حاجة إلىٰ من يتولىٰ قيادتها في الأرض باسم السماء ، فلقد بلغت سنّ الرشد ، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها»[١]. ثم يؤكد الدكتور علىٰ أن النبوة والوحي كانا قيداً وحجراً علىٰ العقل البشري ، ولذلك فقد كان إنهاء ـ نظام النبوة ـ إيذاناً بتحرير العقل البشري من ـ قيود السماء ـ فيقول: «فلقد حرر الإسلام العقل البشري من سلطان النبوة ، من حيثُ إعلانُه إنهاءها كلّية ، وتخليص البشرية منها»[٢].

وهنا نطرح السؤال من هو المسؤول عن ذلك؟ أَهو الأُمّة أم الفرد؟ فقد يقول قائل: أن المسؤول هو الفرد لأن الفرد ماهو إلانتاج هذه الأُمّة فلوكانت الأُمّة صالحة

---

١ - نقلاً عن «الغزو من الداخل» لجمال سلطان ص:٥١.

٢ - الأسس القرآنية للتقدم ص:٤٤. والمصدر السابق .

وخالية من الشوائب لكان الفرد كذلك ولما وصل إلىٰ هـذا الانـحطاط والتـخلف والتردي، لأن مثله مثل البذرة إذا بذرت في الأرض الصالحة فـإنها تـثمر الثـمر الصالح ؛ أما إذا بذرت في الأرض المالحة السبخاء الجدباء الرملية فإنها إما تموت وإما أن تكون في عداد الأموات ، وإما أن لا تثمر الثمر الصالح لأنها لا تحصل علىٰ مكونات النماء والنشاط والفاعلية والحركة...الخ ورب قائل يقول: إن الأُمّة نشطة ومتحركة وهي كالأرض الطينية الصالحة للغرس والزراعة وفـيها مكـونات النـمو ولكن الفرد نتيجة إهماله وكسله، وخموله وشعوره بـالإحباط، ظـل يـتعامل مـع العناصر المحيطة به مشلول الحركة ضعيف الإرادة فاقد القوة والطموح والإحساس والشعور بالمسؤولية وبالتالي انعكس كل هذا علىٰ واقع الأُمّة.

والجواب: أن الإسلام يعطي الأهمية الكبرىٰ للأمة والفرد معاً كلٌّ حسـبه ، فتارة نراه يخاطب الأُمّة بقوله تعالىٰ:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] وتارة أُخرىٰ يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

إذاً هنالك ترابط وثيق وعميق بين الأُمّة والفرد ففاعلية الأُمّة لاتتحقق إلا من خلال فاعلية أفرادها ، لأن الأُمّة متكونه من جميع الأفراد وليست متكونة بذاتـها حيث قال تعالىٰ:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[3]، وهذا التداخل والترابط بين الأُمّة والفرد لم يكن تداخلاً نظرياً ، بل هو تداخل عمليّ علميّ تطبيقي لما يتمتع به الفرد من قدرات ومهارات ، ولذا نجد الأُمّة تهتم بالفرد وتعتني به قدر الأمكان. وقد أكّد القرآن الكـريم هـذه

---

١ - آل عمران : ١١٠

٢ - النحل : ١٢٠.

٣ - البقرة:١٤٣

الجنبة بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾[١]. وبالتالي تكون قوة الأُمّة نابعة من قوة أفرادها. لكن حينما تفقد هذه الأُمّة تلك المواصفات فبالملازمة تفقد حيويتها وذاتها، بل تفقد كيانها وحضارتها وتكون خاضعة وموجهة من قبل أفراد خارج نطاق أبنائها ، أو إنها تتقمص شخصية أُمّة أُخرىٰ مدعية أنها صاحبة تراث وحضارة، وتقدم علّمي وثقافي. وبالتالي تكون المعادلة معاكسة ومختلفة الموازين والمقاييس ، ولايحق لأحد أن يرجع أسباب الأخفاق إلىٰ الفرد وحده أو إلىٰ الأُمّة وحدها، لأن كلاً منهما يتأثر بالآخر فالفرد يتأثر بطبائع محيطه إلا ماندر وما يسود مجتمعه من عادات وتقاليد وأنشطة ، سواء كانت سلبية أو ايجابية ، وأن الأُمّة بما تمتلك من قيم ومبادئ وأهداف تلعب الدور المطلوب في الفرد، فتنمي قدراته واستعداداته وأسهاماته في بناء مجتمعه ، ولذا قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد علىٰ الفطرة»[٢] وقال أيضاً: «كل منكم ثغر من ثغور الإسلام فليحكم كل منكم ثغره». وقال أيضاً: «كلكم راعٍ وكل مسؤول عن رعيته»[٣]. فهذا التلاحم بين الفرد وبين الأُمّة لا مثيل له في كل القوانين الوضعية والدولية والعالمية والتقدمية، والّتي تدعي الحرية وتنصب نفسها هي المدافعة عن حقوق البشرية. وهذا التلاحم الّذي بيَّنه رسول البشرية ﷺ ، بقوله: «كلٌّ منكم» و «كلٌّ مسؤول» و«كلٌّ مولود» و «كلكم مسؤول»، هذا يهم الأُمّة تارة، ويهم الفرد تارة أخرىٰ، ويهم الأُمّة من الداخل ومن الخارج تارة ثالثة ، لأن الفرد إن لم يكن محصناً ومهيَّأً نفسياً وبدنياً وعقلياً وسلوكياً وسلوكاً ومعرفة فإنه لايستطيع أن يدافع عن هذا الثغر أو الجهة من اعتداء أو خدش علىٰ الأُمّة. ويمثل كل هذا العقل الّذي هو

---

١ – الإسراء :٧٠.

٢ – مسند أحمد ٢:٢٣٣ و٣٩٣ و٤٨١ ، صحيح البخاري ٢:١٠٤ ، سنن الترمذي٣:٣٠٣ .

٣ – مسند أحمد بن حنبل ٢:١٢١، السنن الكبرىٰ للبيهقي ٢:٢٨٧.

حجر الزاوية في تمييز وتمثيل منطلق التكليف ، فإن كان العقل سليماً يتجه إليه التكليف ، وإن كان سقيماً سقط عنه التكليف ، ومن خلال العناصر الّتي تكون داخل العقل من عقيدة وثقافة وعادات وتقاليد ونظم وخرافات و... و... تتبلور فكرة الامتثال والعصيان[١] ولذا كل ما حكم به العقل حكم به الشرع فالعقل رسول في الباطن ، والشرع عقل في الظاهر. فإذا أدرك العقل أن العدل حسن والظلم قبيح ، حكم الشرع بأن العدل مرغوب عند الله والظلم مكروه له. قال الغزالي: « فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل. وهما متعاضدان ، بل متحدان. ولكن الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالىٰ اسم «العقل» عن الكافر في غير موضع من القرآن ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٢]، ولكون العقل شرعاً من داخل، قال تعالىٰ في صفة العقل: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ﴾[٣]، فسمىٰ العقل: ديناً. ولكونهما متحدين ، قال: نور علىٰ نور ، أي نور العقل ونور الشرع إن العقل لن يهتدي إلا بالشرع ، والشرع لن يتبين إلا بالعقل. فالعقل كالأسّ ، والشرع كالبناء ، ولن يغني أسّ مالم يكن بناء ، ولن يثبت بناء مالم يكن أسّ. وأيضاً ، فالعقل كالبصر ، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر مالم يكن شعاع من خارج ، ولن يغني الشعاع مالم يكن البصر... وأيضاً فالعقل كالسراج ، والشرع كالزيت الّذي يمده. فما لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت»[٤].

---

١ - مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ترجمة الطيب الشريف ص:١٢٥ ، مالك بن نبي في مهب المعركة ص:١٣٨، مالك بن نبي مشكلةالثقافة ص:٩٠ ، انظر العقل العربي وإعادة التشكيل القديم ص:١١ د. عبد الرحمن الطريري/كتاب الأُمّة / سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / قطر.

٢ - البقرة:١٧١.

٣ - الروم:٣٠.

٤ - cf.jadre.farid.lanotion de certitude chez chazali.paris.1958.p.65

أهمية العقل
في
الكتاب والسنة
النبوية

أهمية العقل في الكتاب والسنة النبوية

معاني العقل:

لقد عُرِّف العقل بتعريفات عديدة من لَدُن أعلام كبار لاختلافهم في حقيقته، وذهل الأكثرون عن كونه مطلقاً علىٰ معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم. فقد وردت لفظة العقل في المعجم الوسيط بـ: «عاقلة، عقال، عاقول، وعقول، وغيرها. ومن المعاني الواردة، قولهم: عقل عقلاً: أي أدرك الأشياء علىٰ حقيقتها، والغلام أدرك وميز، ويقال: ما فعلت هذا منذ عقلت. والعاقل هو الشخص المدرك. ومن المعاني، أن العقل هو مايقابل الغريزة، الّتي لا اختيار لها. ومنه قولهم: الإنسان حيوان عاقل. ومنها مايكون به التفكير والاستدلال، وتركيب التصورات والتصديقات. كما أن من المعاني الواردة حول موضوع العقل، أنه مايتميز به الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل، كما أن من معنىٰ القلب: الحصن، والملجأ، كلّها من المعاني المعبرة عن العقل، في بعض الاستخدامات»[1].

أما معجم وبستر «webster» فقد أورد معان عدة لكلمة عقل، تحت الكلمة الإنجليزية «mind»، ومن المعاني: الذاكرة، التذكر أو الاسترجاع. ومن المعاني الواردة: أنه يعني الادراك، الشعور، الانتباه، الذكاء، الملاحظة. وقد قصرت بعض التعريفات في هذا القاموس العقل: علىٰ مايمكن التفكير به، أو إدراكه، مما يمكن تصنيفه علىٰ أنه جزء من الشعور، إلا أن تعريفاً آخر، يضيف الخبرة اللاشعورية، كعمل من أعمال العقل. والتعريف الشامل الّذي ورد في قاموس «وبستر» هو طريقة، وحالة، واتجاه للتفكير والشعور، الّذي يكون عليه الفرد، وقد وردت

---

١ - المعجم الوسيط ج٢:٦١٦، إبراهيم أنيس وزملاؤه /دار الفكر.

معاني مثل الانتباه ، الطاعة ، الاهتمام ، الملاحظة ، الاعتراض ، الكره ، كمعان معبرة عن العقل.

وقد عرفه الدكتور فاخر عاقل: بأنه مجموع السلوك الذكـي بـما فـي ذلك التذكر، التفكير ، الادراك. وكثيراً مايستعمل مرادفاً للخبرة الشعورية.[١]

وقد عرفه صاحب المنجد بـ« هو القوة المدركة في الإنسان وهو مظهر من مظاهر الروح محله المخ كما أن الإبصار خاصة من خصائص الروح آلته البصر... ثم قال: الماديون ينكرون ذلك ويعدون العقل نتيجة الشعور الموجود في الإنسان وعندهم إن الروح نتيجة التركيب الإنساني علىٰ مثال روح الحيوان. ولكنها أرقىٰ من روح الحيوان لقبول الإنسان للرقي دون الحـيوان. ولكـن جـاء عـلم التـنويم المغناطيسي وفن استحضار الأرواح فأثبتا ان للإنســان روحاً مـتمتعة بـخصائص عالية يحجبها هذا الجسد عن الظهور.

وقد عرفه الدكتور فرج طه بقوله: « أن العقل يقصد به الذكاء ، أو الذهـن ، ويستطرد ويقول: فإن قلنا: إن فلاناً له عقل ممتاز ، كنا نقصد بأنه علىٰ درجة عالية من الذكاء والفهم ، وإن قلنا: إن فلاناً ضعيف العقل ، فأننا نقصد أن ذكـاءه قـاصر وضعيف ، وإن قلنا: إن فلاناً مريض عقلياً ، فإننا نقصد أنـه مـصاب بـالجنون أو الذهان، ومن كلمة العقل العقلانية... وإنها موقف فكري وسلوكي تجاه قضايا الحياة الاجتماعية والمعرفة، وقضايا العلوم التطبيقية ، ويتمثل في اعتبار العقل هو القيمة العليا في الحياة ، ومعيار كل شيء ، ومصدر التوجيه في الحياة ، وإننا كأفراد يحكمنا نظام عقلي يقوم علىٰ مجموعة من المبادىء والمسلمات والقوانين الأولية الّتي تتفق عليها كل العقول السليمة ، وإن تلك المـبادىء ، تـتميز بـالسمو والارتـفاع فـوق

---

١ - معجم علم النفس ط دار الملايين - بيروت - ١٩٨٥م.

الجزئيات وفوق اعتبار الزمان والمكان»[1].

العقل في القرآن الكريم:

وفي القرآن الكريم وردت كلمة العقل بعدة صيغ منها: عقلوه ، تعقلون ، نعقل ويعقلها ، ولكن معضمها يشير إلىٰ التمييز بين الحق والباطل وضرورة إدراك الحق والباطل علىٰ حقيقتهما وذلك من خلال التفكير في ملكوت السموات والأرض ومخلوقات الله سبحانه وتعالىٰ. ويمكن تقسيم الآيات الّتي وردت في القرآن إلىٰ عدة اتجاهات ، ولسنا بصدد دراستها ولكن نذكر علىٰ سبيل المثال لا الحصر مثال أو مثالين:

«أ» العقل بمعنىٰ الادراك الكلي للظواهر الكونية:

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]،أي: مذللات جاريات في مجاريهن ، بتدبيره وصنعه. خلقهن لمنافع العباد. وهي دلالات لقوم يعقلون عن الله ، وينبئون أن المسخر لذلك علىٰ هذا التقدير الّذي لا يختلف لاجل منافع خلقه ومصالحهم وهم يتفكرون في الادلة ، فينظرون فيها ، ويتفطنون ، ويعتبرون بها. فمقطع هذه الآية العقل والتقدير كأنه قيل إن كنت عاقلاً فاعلم ان التسلسل باطل فوجب انتهاء الحركات إلىٰ حركة يكون موجدها غير متحرك وهو الإله القادر المختار.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتِ

---

١٠ - معجم علم النفس والتحليل النفسيمادة«عقل»دار النهضة العربية بيروت

٢ - النحل:١٢.

لأُوْلي الأَلْبَابِ﴾[١] أي تعاقبهما ، ومجيء كل واحد منهما خلف الآخر. و(الآيات) أي: دلالات علىٰ توحيد الله ، وصفاته العلىٰ لذوي البصائر والعقول الذين يطلبون علم اليقين بالتدبر والتفكر .

«ب» العقل بمعنىٰ الادراك لعظمة الخالق عزَّ وجلَّ وخشيته:

حيث قال تعالىٰ: ﴿فاتَّقُواْ اللَّهَ ياأُوْلي الأَلْبَابِ ﴾[٢] أي: أولوا العقول الثاقبة. لأن من لا عقل له لا يمكنه الذكر والاعتبار. ومنه يظهر أن هذا الدين كما يعتمد بأساسه علىٰ التحفظ علىٰ معارفه الخاصة الإلهية ، كذلك يسمح للناس بالحرية التامة في الفكر. ويرجع محصله إلىٰ أن من الواجب علىٰ المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه تفكراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة ، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به. وانما يجب علىٰ صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده علىٰ كتاب الله بالتدبر ، فمن يعقل حقائق الأمور لا ينجمد علىٰ ظواهرها فكل مكلف ذو لب ، لأنه إنما يطلق عليهم هذه الصفة لما فيها من المدحة فلذلك عقد الذكر والتقوىٰ بهم وهم الذين يستعملون ما توجبه عقولهم من طاعة الله في كل ما أمر به ودعا إليه.

إذاً الآية تدل علىٰ وجوب النظر بما يشاهد من الخلق والاستدلال علىٰ الله لكي يتعقلوا آيات الله بالبيان عنها.

---

١ - آل عمران: ١٩٠.

٢ - الطلاق: ١٠.

«ج» العقل بمعنى التحليل لباطن الأمور:

حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤]، أي:الحجج الواضحات والدلائل البينات لكي تعقلوا ، ترجعوا إلى طاعته وتكونوا على بصيرة. وقال تعالى: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٦]. وقال تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ﴾[٨]. وقال تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٩]. وقال تعالى: ﴿هدى وذكرى لأولي الألباب﴾[١٠]، أي: على هدى وذكرى هداية وتذكرة لأُولي الألباب ، لذوي العقول السليمة. وقال تعالى: ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١١]. وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١٢].

---

١ - الزمر:٢١.

٢ - البقرة:٢٤٢.

٣ - البقرة:٢٦٩ ، وآل عمران:٧.

٤ - آل عمران:١١٨.

٥ - البقرة:١٦٤.

٦ - الرعد:١٩.

٧ - إبراهيم:٥٢.

٨ - طه:٥٤.

٩ - النور:٦١.

١٠ - المؤمن:٥٤.

١١ - الجاثية:٥.

١٢ - الحديد:١٧ ، المؤمن:٦٧.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

كما عاب القرآن الكريم علىٰ الذين عطلوا العقل فقد قال تعالىٰ: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٧].

والخلاصة ان مصطلح العقل ورد فيما يقارب الخمسين موقعاً من القرآن الكريم، وثمة ماينوف علىٰ ثلاثمئة آية ، تدعو إلىٰ التأمل وتحكيم العقل.

إذاً أعلىٰ وظائف العقل هي معرفة الله «وأعظم خيرات العقل هو معرفة الله ، وأكبر فضيلة للعقل هي معرفة الله »[٨]، وذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعقل شيئاً أعظم من اللامتناهي وكلما عقل الله أزداد حبه له. ولما كان الله والطبيعة شيئاً واحداً

---

١ – يوسف:٢.

٢ – البقرة:١٧٠ وقد وردت كلمة يعقلون ، تعقلون أكثر من ٤٥ مره فيالقرآن الكريم وتارة يعبر القرآن الكريم بلفظ أوليالألباب والّتيوردت أكثر من عشرون مره

٣ – الأنفال:٢٢.

٤ – الأنعام:٣٢.

٥ – يونس:١٠٠

٦ – المائدة:١٠٣.

٧ – العنكبوت:٦٣.

٨ – الأخلاق ج٥ قضية ٣ ، نقلاً عن موسوعة الفلسفة للدكتور عبد الرحمن بدوي ١٤٢:١ ط المؤسسةالعربية للدراسات والنشر عام ١٩٧٩– ١٩٨١.

فاننا بقدر مانتصور جميع الأشياء صادرة عن طبيعة الله فاننا نتصورها مندرجة تحت نوع الأبدية. اننا نتصور جزءاً من النظام اللامتناهي المترابط منطقياً.

العقل في أحاديث الرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام

اما في السنة النبوية المطهرة فقد دلت أخبار كثيرة تشير إلىٰ أهمية العقل وإنه الحجة الباطنة وبه يثاب المرء ويعاقب . قال ﷺ عندما قالوا له يارسول الله من أعلم الناس؟ فقال: العاقل؟ فقالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: العاقل؟ فقالوا: فمن أفضل الناس؟ فقال: العاقل؟...إن العاقل هو المتقي وإن كان في الدنيا خسيساً ذليلاً بطاعته»[1]. وقال الإمام عليّبن أبي طالب عليه السلام: «فإن الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتّجربة»[2]. وقال عليه السلام: «إنّ أغنىٰ الغنىٰ العقل وأكبر الفقر الحمق»[3]. وقال عليه السلام: «الحلم غطاء ساتر، والعقل حسام قاطع، فاستر خلل خلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك...»[4]. وقال الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام، كما ورد عن الكليني في وصيته لهشام بن الحكم ياهشام: إن الله تبارك وتعالىٰ أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلهم علىٰ ربوبيته بالأدلة ... ياهشام! إن القول مع العلم، فقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَايَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ﴾[5] أي: العالم الّذي عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه ... ياهشام! أن لله علىٰ الناس حجتين:

حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة. وأما الباطنة فالعقول ... ياهشام! كان أمير المؤمنين ـ علّي بن أبي طالب ـ يقول: « ما

---

١ - كتاب الأصنام لهشام بن محمّد السائب الكلبي ص :٦ ، تحقيق أحمد زكي ط ٢القاهرة ١٩٢٤م .

٢ - نهج البلاغة / الكتاب ٧٨ ص:٣٥١.

٣ - المصدر السابق / قصار الحكم ٣٨/ص: ٣٦٠.

٤ - المصدر السابق / قصار الحكم ٤٢٤ ص:٤١٥

٥ - العنكبوت:٤٣.

عبد الله بشيء أفضل من العقل ... »[١]، أي وما يتم عقل امرىء حتىٰ تكون فيه عشر خصال: يكون الكبر منه مأموناً ، والرشد فيه مأموراً ، يرضىٰ من الدنيا بالقوت، وما كان من فضل فمبذول ، والتواضع فيها أحب إليه من الشرف ، والذل فيها أحب إليه من العز ، لايسأم من طلب العلم دهره ، ولايتبرم من طالبي الخير ، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه ، هي ملاك أمره بها، ينال مجده وبها يعلو ذكره، وبها علاه في الدرجات في الدارين كليهما ، قيل: وما هي؟ قال: أن يرىٰ جميع الناس بين خير منه وأفضل ، وآخر شر منه وأرذل ، فإذا رأىٰ الّذي هو خير منه وأفضل كسره ذلك وتمنىٰ أن يلحقه ، وإذا رأىٰ الّذي هو شر منه وأرذل قال: لعل هذا ينجو وأهلك ، ولعل هذا باطناً لم يظهر لي وذلك خير له ، ويرىٰ ظاهره لعل ذلك شر لي فهناك يكمل عقله وساد أهل زمانه وكان من السباق إلىٰ رحمة الله عز وجل وجنته إن شاء الله .

وقال رسول الله ﷺ: «أنا الشاهد علىٰ الله عز وجل أن لايعثر عاقل إلا رفعه حتىٰ تعرفوا معقود عقله»[٢]. وكان ﷺ إذا بلغه عن أحد من أصحابه عبادة قال: «كيف عقله»؟ فإن قالوا عاقل ، قال: «ما أخلق صاحبكم أن يبلغ»، وإن قالوا ليس بعاقل قال: «ما أخلقه أن لايبلغ»[٣]. وقال ﷺ: «إنما يرتفع الناس في الدرجات ، وينالوا الزلفىٰ من ربهم عز وجل علىٰ قدر عقولهم»[٤]. وقال ﷺ: «أفلح من جعل الله عز وجل له عقلاً» [٥]. وقال ﷺ: «أنا الشاهد علىٰ الله عز وجل أن لايعثر عاقل

---

١ - الأصول من الكافي ١:١٤ط ١٣٨٨هـ منشورات المكتبة الإسلامية شارع أبو ذر جمهوري .

٢ - الكامل ١:٣٢٢ ،البيهقي في الشعب ٢:٧٤.

٣ - ابن الجوزي ١:١٧٣ ، البيهقي في شعب الايمان ٢:٧٤.

٤ - ابن حجر في المطالب العالية / كتاب العقل .

٥ - الآلىء ١:١٢٦.

إلا رفعه الله عز وجل ، ثم لايعثر إلا رفعه حتىٰ يجعل مصيره إلىٰ الجنة»[١]. وقال ﷺ: «إن الرجل ليكون من أهل الصلاة، والزكاة، والجهاد ، والحج ، والعمرة ، حتىٰ ذكر سهام الخير وما يجزي يوم القيامة إلا بقدر عقله»[٢]. وقال ﷺ: «ما أوتي رجل بعد الإيمان بالله عز وجل خيراً من العقل»[٣]. وقال ﷺ: «أصل ديني العقل»[٤]. وعنه ﷺ مامعناه :«إن عبادة ساعة عن إيمان عقلي ، تعادل عبادة ستين سنة من عبادة جاهل». وقال الإمام الحسن ؏: «ما تم دين الرجل حتىٰ يتم عقله»[٥]. وقال ﷺ: «الناس يعملون الخير ، وإنما يعطون أجورهم علىٰ قدر عقولهم يوم القيامة»[٦]. وورد عن الإمام الباقر؏ قال: لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل ، فأقبل ، ثم قال له: أدبر فأدبر ، ثم قال له: وعزتي وجلالي ماخلقت خلقاً هو أحب إلي منك ، ولا أكلمك إلا فيمن أحب ، أما إني أياك آمر ، وإياك أنهىٰ، وإياك أثيب»[٧]. ونظير ذلك ماورد عن أبي عبد الله ؏قال: «إن الله خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له: وعزتي وجلالي ماخلقت شيئاً أحبُّ إليّ منك ، لك الثواب وعليك العقاب»[٨]. وهنا كلمة أقبل: تعني أن العقل مطيع

---

١ - مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ترجمة الطيب الشريف ص:١٢٥ ، مالك بن نبي في مهب المعركة ص:١٣٨ مالك بن نبيمشكلةالثقافة ص:٩٠ ، أُنظر العقل العربيوإعادة التشكيل القديم ص: ١١د. عبد الرحمن الطريري/ كتاب الأُمّة / سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / قطر .

٢ - البيهقي في شعب الايمان ٢:٧٤، الطحاوي في المشكل ٢:١٢٥، الحاوي ٢:١١٣.

٣ - أبو نعيم في الحلية ٢:٢٠٣.

٤ - الإسلام والعقل ص:٥.

٥ - المصدر السابق .

٦ - تنزيه الشريعة لابن عراق ١:٢٠٣.

٧ - البيهقي في شعب الايمان ٢:٧٣ ، ابن عدي ٢:٧٧٩ ، بحار الأنوار الباب الثانيحقيقة العقل ج١:٩٦ ح١.

٨ - المصدر السابق ١:٩٦ ح٢ ، أُصول الكافي ١:١١.

للخالق. وكلمة ما خلقت: تعني أن الله سيد العقلاء فخلق العقل فكان أحبّه إليه.

وأورد ابن السكيت ـ يعقوب بن إسحاق ـ خبر الإمام الرضاعليه السلام في سؤاله: فما الحجة علىٰ الخلق اليوم؟ فقالعليه السلام: «العقل تعرف به الصادق علىٰ الله فتصدقه ، والكاذب علىٰ الله فتكذبه ، فقال ابن السكيت: هو والله لجواب »[١]. وقال أبوجعفرعليه السلام: «إنما يقدر الله العباد في الحساب يوم القيامة علىٰ قدر ماآتاهم من العقول في الدنيا»[٢]. وعن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا بلغكم عن رجل حسن حاله فانظروا في حسن عقله ، فإنما يجازىٰ بعقله »[٣].

---

١ ـ بحار الأنوار ١:١٠٥ الباب الثالث كتاب العقل ح ١.

٢ ـ المصدر السابق ١:١٠٦ ح٣.

٣ ـ المصدر السابق ١:١٠٦ ح٥ .

الأصول العقلية

الأُصول العقلية

تبقىٰ المهارات والاستعدادات العقلية موضع دراسة الباحثين. وهل هي مهارات مكتسبة تخضع للفعل المنعكس الشرطي حسب نظرية بافلوف الأشراطية ، أي بمعنى أن المهارات مكتسبة لا موروثة؟ بينما التصور الإسلامي يحسم الموقف ويقول إن الأُصول العقلية عامة تخضع:

«١» لعامل الوراثة بشكل عام.

«٢» كما أنها تخضع لوراثة طارئة في نطاق خاص.

«٣» بالإضافة إلىٰ عوامل البيئة كما يصف ذلك الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله السائل: «الرجل آتيه وأكلمه ببعض كلامي فيعرفه كله... ومنهم من آتيه فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كلّه ثم يرده عليّ كما كلمته...»[1]. هذا النص يوضح الحقائق والعلاقة الموجودة بين الوراثة والبيئة من حيث المهارات العقلية. فالمورُث الأول وهو النقي وجوده فطري عام في كل النوع الإنساني وهو الّذي يعبر عنه الموروث قبل الولادة. وموروث ثان أي موروث بيئة الرحم. وموروث ثالث بعد الولادة وهو الموروث البيئي.

فالأول: موروث عام نقي تنطبع به كل المهارات العقلية لكل الآدميين مثله كمثل الأُصول العضوية والحيوية وهذا ماعبر عنه النص: « فذاك من عجنت نطفته بعقله»، وهذا يحمل مهارات عقلية نقية كاملة، ولكن الخلل الّذي يشوب هذا النقاء إنما هو نتيجة الوراثة الطارئة علىٰ الرحم من حمل ومؤثرات أُخرىٰ تنعكس علىٰ الجنين من حرارة الأم وصدمتها، وسوء التغذية، وشرب الخمر، الّتي تتلف الخلايا

---

١ - البحار ٩٧:١ كتاب العقل والجهل .

المخية وعلىٰ الجهاز العصبي للشخصية والّتي تترك آثارها علىٰ الدماغ وهذا ماأشار إليه النص: «فذاك الّذي ركب عقله في بطن أمه»، فهذا يتمتع بمهارات متوسطة بالقياس إلىٰ النوع الأول.

أما الموروث الثالث: فهو الّذي عبر عنه الإمام عليه السلام بقوله: «فذاك الّذي ركب فيه بعدما كبر»، وهذا يكون نتيجة لعوامل البيئة وهذا يمثل أدنىٰ مستويات المهارات العقلية، ولذا أشار أهل البيت عليهم السلام وقبلهم المرجعية المعصومة بشكل عام إلىٰ أهمية التعليم والتعلم في مرحلة الطفولة. ولذا عند دراسة الأُصول النفسية والسلوك البشري فإنه يخضع لمواصفات عامة وخاصة ، أي تأخذ كل هذه الأنواع الثلاثة: أي المهارات العقلية النقية، وكذلك المتوسطة، والأدنىٰ منهما، لأن الأولىٰ تتمثل بالاستعدادات والقوىٰ إلىٰ الفعل الّذي يختاره الفرد؛ فالمهارة العقلية تجسد عنصر إيجابي وهو الذكاء في درجته الفائقة. أما الاستعداد فهو عنصر محايد قد يكون إيجابياً وقد يكون سلبياً. فالأصل الفكري يحدده عليه السلام بـ«ان نطفة المؤمن لتكون في صلب المشرك فلا يصيبها من الشر شيء، حتىٰ إذا صار في رحم المشركة لم يصبها من الشر شيء، فإذا وضعته لم يصبها من الشر شيء، حتىٰ يجري القلم»[1].

هذا النص يوضح النقاء الّذي يلازم النطفة حتىٰ سن الرشد وبعد ذلك يمتلىء بما تختاره له التربية والبيئة ، وان الأُصول النفسية تحددها جملة من المواصفات والسمات كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «فان استطعت أن تكونن فيك فلتكن: فانها تكون في «الرجل» ولاتكون في «ولده» وتكون في «الولد» ولاتكون في «أبيه» قيل ماهّن؟ قال عليه السلام: «صدق البأس ... وأداء الأمانة ، وصلة الرحم...»[2].

وهذه الصفات والسمات تظل اكتسابية صرفة لاصلة لها بأي أُصول وراثية ،

---

١ - الكافي ٢: ١٣

٢ - الوسائل ٤: ح٤باب جهاد النفس

فهي قد تكون في الأب لكنها لم تنتقل إلىٰ الابن وكذلك العكس. ورغم كل ذلك فان المهارة العقلية تتحكم في الأُصول النفسية وتتم النقلة الوراثية من خلال أصلاب الرجال، أو أرحام النساء ، وهذا ماأشار إليه الإمام الصادق في قوله: «لا تزوجوا إليهم فان لهم عرقاً يدعو إلىٰ عدم الوفاء»[١]. ويوجد نص ثان: «فان لهم أرحاماً تدل علىٰ غير الوفاء»[٢].

ومن خلال هذه الأحاديث المعصومة يتبين لنا أن الصفات والسمات الأخلاقية خاضعة للوراثة الطارئة في نطاق خاص ولذلك حذر الصادق عليه السلام من الزواج من بعض الأقوام الذين عرفوا بالنزعة العدوانية الّذي عبر عنه بـ «القدر»، وهذا أصل من أصولهم أي أعراقهم ، أما الخصائص النفسية والأخلاقية كمثل الحسد والبخل والجبن فقد حذر منه عليه السلام وذلك بقوله: «فتخيروا لنطفكم»[٣]. وحذر أيضاً من العاهات الأخرىٰ سواء كانت جسمية أو عقلية أو نفسية كما جاء في قوله عليه السلام: «ترىٰ هؤلاء المشوهين في خلقهم؟ قلت: نعم ، قال: هؤلاء الذين يأتون نساءهم في الطمث». وقال أيضاً: يكره أن يغشىٰ الرجل المرأة حتىٰ يغتسل من احتلامه فان فعل يخرج الولد مجنوناً».

والخلاصة ان هذه الأسباب هي جزء العلة وليست كل العلة في الأثر السلبي علىٰ النسل ولذا قال الإمام الحسن عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أطعموا حبالاكم اللبان فإن الصبي إذا غذي...» وقال عليه السلام: «لايزال العقل والحمق يتغالبان علىٰ الرجل إلىٰ ثماني عشرة سنة فإذا بلغها غلب عليه أكثرهما فيه»[٤].

أفبعد هذه النصوص الصادرة من المرجعية المعصومة ومقارنتها بالبحوث

---

١ - الوسائل باب ٣١ح٣مقدمات النكاح

٢ - المصدر السابق ح ٢ ويوجد نص ثالث ح ٥ ، ورابع ح٣باب ٣٤ من أحكام الأولاد.

٣ - المصدر السابق الباب ٨٣ ح ٦ مقدمات النكاح.

٤ - البحار ١:٩٦.

والدراسات الوضعية الّتي تختلف تجاربها من أُمّة إلىٰ أُمّة أُخرىٰ، ومن مجتمع إلىٰ آخر والّتي قطع بعضها بتحديد النماء العقلي في «١٦» عاماً، والآخر قطع عند وصول الـ «١٩» عاماً وهكذا تتضارب وجهات النظر ، بينما المرجعية حسمت الموقف ، ومع هذا نطالب بالتجديد ونتهم المرجعية المعصومة بالتراث الأصفر؟ أو الركود والجمود والتحجر و... و... وقد أشارت المرجعية إلىٰ مراحل النضوج العقلي حتىٰ مرحلة سن الـ «٦٥» سنة لأن النضوج يقترن مع تقدم العمر من جانب ، وغنى التجارب والخبرات من جانب ثان. وهذا النضوج العقلي غير النماء لأن النضوج يمثل النضوج النفسي من حيثُ تماسكُ الاستجابة ورصانتُها كما قالﷺ: «إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين فقد بلغ أشده، وإذا بلغ أربعين سنة فقد انتهى منتهاه»[1]. فهذا النضوج العقلي والنفسي هو الّذي يكون الشخصية وليس من حيثُ النماءُ كما قالﷺ: «يزيد عقل الرجل بعد الأربعين إلىٰ خمسين وستين، ثم ينقص عقله بعد ذلك»[2].

فالزيادة تعني النضج وليس النماء ، والنقصان توقف المهارات شأنه شأن سائر أعضاء البدن عندما تصل إلىٰ حدّ معين فإنها تقف عند حدّها ، كالطول مثلاً ، هذا ماجاءت به المرجعية المعصومة من مبادئ وأسس وقيم ، لكن مع هذا كلّه نجد الدعاوىٰ الكثيرة تريد أن تثبت عكس ذلك وتتهم العقل الإسلامي من خلال المرجعية بالجزئية المتناثرة، وعجزه عن مواجهة التحديات، وحل المشاكل الداخلية والخارجية علىٰ حدّ سواء ، وهذا في تصورنا خطاب انفعالي تحركه العاطفة لا العقل ، ويعتمد علىٰ التهويل والمبالغة، دون الموازنة والموضوعية، الّتي تعالج المسألة من كلا طرفيها ، بل تأخذها من طرف واحد ، فعلىٰ الباحث

---

١ - الوسائل باب ٩٧ح٧جهاد النفس

٢ - البحار ١٣١:١كتاب العقل والجهل.

الإسلامي هنا أن يحمل العقلية التوازنية، عقلية الطبيب الماهر، والمهندس المبدع وحنان الأبوة، ليقوم بعملية الهدم والبناء، لا الهدم الّذي يحسبه بناءاً، ولا البناء المبتعد عن الموضوعية والتأني والصبر والنضوج العقلي، الّذي يحول بينه وبين حل المشكلة ، لأن العقل الّذي لاتتحقق فيه الرؤية المنطلقه من رسم المنهج الصحيح المتجذر الأعماق، لايمكنه القيام بالبرمجة والتصنيف، بل تنعكس المسألة لهدم الطاقات والقدرات، وتظهر نتوءات فرعية تكون أعقد من المسألة الأساسية ـ الأولىٰ ـ بحيث يصطدم بعضُها ببعضٍ وتفسر الظاهرة تفسيراً غربياً وغريباً عن الإسلام، ولذا تكون ثغرة يجدها المستشرقونِ للهجوم علىٰ الإسلام واتهامه بالتحجر والجمود، ومطالبة أصحابه ومعتقداته بالتجديد، لأنه أثبت العجز والانحسار ، وقتل الإبداع، وشل قدرة الإنسان عن العطاء ، بل أن النظرية أو المشروع الإسلامي ماهو إلا نوع من التقليد أو المحاكاة للتراث. ثم إن المبدع أو المبتكر الإسلامي إذا جاءت إبداعاته وابتكاراته نتيجة جهوده التخصصية فإنهم يتهمونه بعدم الرؤية الثقافية الصحيحة السليمة، ولا يمتلك عقلاً وهاجاً هادفاً متبصراً بأحوال الأُمّم من خلال المرجعية المعصومة، الّتي هي خلاصة الحضارات وعصارة الجهود المضنية الّتي بذلها الأنبياء والأوصياء، والّتي ميزت بين الوسائل والغايات. وجعلت كل ظاهرة لها علة ، وبالتالي أصبحت العلل هي مناط القياس. فالمتدبر لقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[1]، فأولي الأبصار هنا أصحاب العقول السليمة ، وكذلك قوله تعالىٰ :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾[2]، فهذا التحذير يدفع الفرد المسلم لاغتنام فرصة العمر لتوفير الطاقات والموازنة في الإمكانات وعدم الخلط بين الأماني والخيالات، أو بين الأماني والواقع ، بل دراسة

١ - الحشر:٢.

٢ - النساء:٧١

الخطأ والعجز وعلاجه. ولذا كانت المعجزات خرقاً لقانون السببية دون وجود المقدمات ، وهذا لايعني أن المسلم يستسلم ، لأن الاستسلام مرفوض عقلاً وشرعاً وهذا الاستسلام لا يعفيه عن المسؤولية اتجاه حل المشاكل الاجتماعية، واكتشاف الثغرات في مسيرة حياته ، ولايحق له إلقاء التبعية علىٰ الآخرين بحجة من الحجج الواهية ، لأن رسول الله ﷺ قال: « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وأين وضعه»[1]. هذه الركائز الأساسية في حياة الفرد . العمر لا بد له خلال هذه الفترة أن يبرمج ويخطط فيه ، وكذلك الجسد والعلم والمال كلها طاقات ملَّكَناها اللّهُ سبحانه وتعالىٰ فيجب الاستفادة منها وحسن التصرف فيها وأن يشغل الفرد المسلم نفسه بالكليات لا الجزئيات والفروع، والّتي قد توقعه في الحرام من أجل الأصرار علىٰ تحصيلها وبها يفوّت حقاً أو فرضاً كلياً.

إن تربية الشخصية المسلمة وصياغتها علىٰ وفق المرجعية المعصومة تعطيها تمييزاً واضحاً علىٰ بقية الشخصيات غير الإسلامية من القدرة والعطاء وفقاً للضوابط السلوكية المنهجية الّتي أنيطت بكل مسلم في المجتمع ، وبالتالي تكون شخصيته جزءاً مهماً من العملية الحضارية، لأنها قبل الإسلام كانت شخصية سائبة ، بلا قيود ولاضوابط ولاحدود ، ولذا عندما جاءت المرجعية المعصومة بدأت بتحرير عقله وقلبه ووجدانه، بل حتىٰ غرائزه علىٰ وفق الضوابط والرؤية الجديدة والّتي صاغته صياغة جديدة وكأنه إنسان جديد متفوقاً قادراً علىٰ التغيير والموازنة بين نتائج اللقاء الفكري بين الأرض والسماء، والانتقال من مرحلة العرض والتجميع إلىٰ محاولة التبويب واستخلاص القوانين وانتقالها من حال إلىٰ حال ، وليس كما يدعي المدعي بأن العقل الإسلامي أصابه الشلل والعقم، ولا يمكن أن

---

١ - تفسير الثعالبي ٥:٥٩١ ، صحيح الترمذي ٢: ١٥٧.

يستعيد عافيته وقدرته علىٰ الابتكار والعطاء ، بل أرادت المرجعية المعصومة أن يبقىٰ العقل وهاجاً متوهجاً منذ اللحظة الأولىٰ حتىٰ تنطفئ حياة الإنسان ، لأن الله سبحانه وتعالىٰ زوده بقدرات هائلة وتصورات وأعتقادات ومعارف مكتسبة وغير مكتسبة ، لأن قدرة الدماغ البشري صحيح محدودة في مقابل قدرته سبحانه وتعالىٰ الّتي لاحدود لها، بل لاتوجد مقارنة ومقايسة ومقابلة ، لكن بما أن الإنسان حمل الأمانة فهو مزود بالقدرات الروحية والعقلية لتجاوز حيثيات الزمان والمكان ليصل إلىٰ القمة الّتي يطمح إليها كل فرد مسلم: « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك»، ولذا نجد القرآن الكريم يصف هؤلاء أصحاب الهمم العالية بقوله تعالىٰ: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾[١]. وهنا علينا أن نسارع في اختزال الحيثيات الزمانية والمكانية، ولانريد أن نستعير تقليداً حضارياً من الغرب والغرباء ، بل نرجع إلىٰ كتابنا وسنتنا وتقاليدنا الحضارية والإبداعية والقيم الكبرىٰ الّتي جاءت بها المرجعية المعصومة، والوفاق مع معطيات العصر التحقيقية ونواميس الوجود وسنن الطبيعة ، يضيف إليها ويأخذ منها ، وهذا هو الشدّ المتبادل بالأخذ والعطاء نحو الهدف الأعلىٰ والأسمىٰ ، فيتحول المؤمن إلىٰ طاقة في ميدان الفعل والإنجاز وشعلة متوهجة في أعماق الذات فيضيئها ويدفعها نحو الأعلىٰ سواء كان فرداً أو جماعة لأن الخبرة البشرية تزداد تراكماً وتضخماً يوماً بعد يوم في الكم والنوع ، ودائماً الزمن يكون في خدمة الدين حسب حركة التأريخ البشري وتحويل الإنسان من الأكثر إلىٰ الواحد، ومن عبادة الأكثر إلىٰ عبادة الواحد، ومن عبادة المادة والتمثال إلىٰ عبادة الحق الّذي لاتدركه الأبصار ، وبهذا كسر الحاجز المادي باتجاه الغيب بواسطة العقل وذلك من خلال قوله تعالىٰ :﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ﴾[٢]. هذا التحول

---

١ – المؤمنون: ٦١ ، آل عمران:١١٤ ، الأنبياء:٩٠

٢ – البقرة :٢٥٧

الكامل جاء في تحرير الإنسان أيضاً كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]. فهذا التحول هو الّذي يعبر عنه بالصراط المستقيم ومابعده إلا الضلال والضياع ، ولن يستطع أي عقل أن يبدع ويبرمج ويعطي إذا كان يعيش فيالتيه والضياع والتخبط العشوائي ، فمثلاً الفرد الجاهلي لم يتمكن من التنقل من مكان إلىٰ آخر إلا ومعه الأوثان والأصنام والحجارة تعظيماً للحرم ، لكن عندما يحل يضعه في مكان ثم يطوف حوله كطوافهم بالكعبة ، ثم سلخوا بعد ذلك إلىٰ أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ماكانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم ، وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان [2]. فمن هذا المستنقع الّذي تختنق منه الروح والعقل والوجدان جاء الإسلام، وأخرج الإنسان المسلم إلىٰ آفاق التوحيد ونضج التصور ونقاء الاعتقاد فحرر عقله وروحه ووجدانه.

العقل كما يراه المفكرون:

قال فلاسفة العرب: بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسن والقبيح وهو قسمان: غريزي ومكتسب. قال العقبي: العقل عقلان، عقل تفرد الله بصنعه وهو الأصل ، وعقل يستفيد به المرء وهو الفرع. فإذا اجتمعا قوىٰ كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة، ولذلك قال أمير المؤمنين علّي بن أبي طالبعليه السلام:

رأيت العقل عقلين — فمطبوع ومسموع

ولاينفع مسموع — إذا لم يك مطبوع

كما لاتنفع الشمس — وضوء العين ممنوع

قال الماوردي: العقل الغريزي هو العقل الحقيقي وله حدّ يتعلق به التكليف لا

---

١ - الأعراف: ١٥٧

٢ - كتاب الأصنام لهشام بن محمّد السائب الكلبيص:٦ تحقيق أحمد زكي ط٢ القاهره ١٩٢٤م.

يجاوزه إلىٰ زيادةٍ ولايقصر إلىٰ نقصان وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تم في الإنسان سمي عاقلاً وخرج به إلىٰ حدّ الكمال...[١].

وقال الغزالي في بيان حقيقة العقل وأقسامه[٢]: إن العقل اسم يطلق بالاشتراك علىٰ أربعة معان ـ كما يطلق اسم العين مثلاً علىٰ معان عدّة وما يجري هذا المجرىٰ فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حدّ واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه .

فالأول: الوصف الّذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهوالّذي استعّد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الّذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حدّ العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلىٰ مجرّد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوّىٰ بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية. فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالىٰ بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمير والبهائم، لجاز أن يستوي بين الحمار والجماد في الحياة ، ويقال لافرق إلا أن الله عزوجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة. فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالىٰ قادر علىٰ خلقها فيه علىٰ الترتيب المشاهد ، فالغريزة الّتي في الإنسان والّتي فيها يعلم ويعقل ، وهي كقوة البصر في العين ،

---

١ - أنظر مادة عقل ص:٥٢٢.

٢ - إحياء علوم الدين ج١:٨٥.

والذوق في اللسان ، فهي شرط في المعقولات والمعلومات ، وهي مناط التكليف ، وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان ...

الثاني: هي العلوم الّتي تخرج إلىٰ الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات؛ كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لايكون في مكانين في وقت واحد ، وهو الّذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حدّ العقل: إنه بعض العلوم الضرورية ؛ كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لاموجود إلا هذه العلوم.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حَنَّكَتْهُ التجارب وهذَّبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ، ومن لايتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً ، وهذه العلوم الّتي تحصل بالنظر والاستدلال ، تتفاوت فيها الناس وتفاضلهم فيها أمرٌ جلي وواقع .

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلىٰ أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلىٰ اللّذة العاجلة ويقهرها. فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لابحكم الشهوة العاجلة وهذه أيضاً من خواص الإنسان الّتي بها يتميز عن سائر الحيوان. ولهذا قال الأصمعي: «العقل: الإمساك عن القبيح ، وقصر النّفس وحبسها علىٰ الحسن». وقيل لرجل وصف نصرانياً بالعقل: «مَهْ ، إنما العاقل من وحد الله وعمل بطاعته». وقال

أصحاب النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[١] وهـذا يعني أنَّه ليس كل صاحب دماغ عاقلاً! ولو ظن نفسه مفكراً أو وصِف بأنه فيلسوفٌ أو عقلائي.

فالأول: هو الأسّ والسنخ والمنبع.

والثاني: هو الفرع الأقرب إليه.

والثالث: فرع الأول والثاني ، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب.

والرابع: هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوىٰ. فالأولان بالطبع، والأُخيران بالاكتساب ...والأول هو المراد بقوله ﷺ: «ماخلق الله عزوجل خلقاً أكرم عليه من العقل»[٢]. والأخير هو المراد بقوله ﷺ: «إذا تقرب الناس بأبواب البـر والأعـمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك»[٣]. هو المراد بقول رسول الله ﷺ لأبـي الدرداء رضي الله عنه: «ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً ، فقال: بأبي أنت وأمي! وكـيف لي بـذلك؟ فـقال: «اجتنب محارم الله تعالىٰ وأدِّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل في آجل العـقبىٰ بـها مـن ربك عزوجل القرب والعز»[٤].

وقال ابن القرية: الرجال ثلاثة: عاقل ، وأحمق ، وفاجر. فـالعاقل: إن كـلم أجاب ، وإن نطق أصاب ، وإن سمع وعىٰ . والأحمق: إن تكلم عجل ، وإن تحدث ذهل ، وإن حمل علىٰ القبيح فعل . والفاجر: إن ائتمنته خانك ، وإن حادثته شانك ،

---

١ – الملك: ١٠.

٢ – أخرجه الترمذي في النوادر بسند ضعيف

٣ – أخرجه أبونعيم فيالحلية وإسناده ضعيف

٤ – أخرجه الترمذي فيالنوادر

وزادني في غيره ، وإن استكتمته سراً لم يكتمه عليك»[١]. وقال ﷺ: «كما تتفاضل الشجر بالأثمار كذلك يتفاضل الناس بالعقل »[٢].

ويقول الشيخ محمّد عبده «...فقد أمرنا الكتاب بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ومايمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه... ونهانا عن التقليد الأعمى بما حكىٰ من أحوال الأُمّم في الأخذ بما عليه آباؤهم... فالتقليد مضلة يعذر فيها الحيوان ، ولايجمل بحال الإنسان »[٣]. ويقول: «...إن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوىٰ أركانه... وماوراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين» [٤]. فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله، والعقل الإنساني أثر أيضاً من آثار الله في الوجود... وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولايعارض بعضها بعضاً. لأنها آثار الكمال كمالاً مطلقاً ، والعقل البشري يستحيل أن يقر بأن هناك تناقض بين آثار الكامل المطلق ، لأن التناقض في الأفعال نقص ، فلو تعارضت أو تناقضت الآثار الصادرة من مصدر واحد ، دل تعارضها وتناقضها علىٰ عدم الكمال المطلق لهذا التصرف. لأن الوحي مصدر هداية والعقل الإنساني مصدر هداية أيضاً وكلاهما يهدف إلىٰ تحديد الطريق المستقيم في الحياة للإنسان وإلىٰ تحديد الغاية الأخيرة في هذا الوجود ، وأمران شأنهما هذا الشأن لا بد أن يتفقا في التحديد الإجمالي ـ علىٰ الأقل ـ لطريق الإنسان في حياته ، وغايته في وجوده فإن بدا أن هناك اختلافاً بين تطبيق رسالة الوحي واستخدام العقل كان منشأ هذا الاختلاف: إما تحريف رسالة الوحي، أو سوء استخدام العقل، والمحرف للرسالة

---

١ – البيهقي في شعب الإيمان ٢: ٧٥.

٢ – المصدر السابق .

٣ – رسالة التوحيد: ١٥.

٤ – المصدر السابق: ١٤.

السماوية، وكذلك المسيء لاستخدام العقل الإنساني هو الإنسان هنا وهناك، وليس المَلَك الّذي نزل بالوحي ولا الرسول المصطفىٰ لتبليغ الرسالة. لأن طبيعة الوحي يجب أن توافق طبيعة العقل الإنساني لأنهما مصدر هداية صدرا لغاية واحدة من كامل واحد كمالاً مطلقاً.

العقل في عصر التنوير:

واستمر الوحي كمرجع أخير للمعرفة علىٰ خلاف في تحديد معالمه حتىٰ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو عصر التنوير في تاريخ الفلسفة ونما شعور العقل وإحساسه بنفسه وبقدرته علىٰ أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية في يده ، بعد أن يزيل كل عبودية ورثها من قبل ـ وهي عبودية الكنيسة وتعاليمها ـ والشجاعة والجرأة الّتي لاتتأرجح في أخضاع كل حدث تأريخي لامتحان العقل، وكذلك في تكوين الدولة والجماعة ، ومعنىٰ ذلك وجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة علىٰ غيره ، وغيره الّذي ينازعه السيادة في ذلك الوقت هو «الدين» أي المسيحية الكاثوليكية. وقد تكون البروتستانتية ، فللعقل عند أصحاب التنوير الحق في الإشراف علىٰ كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون ودين ، والإنسانية هي الهدف الأسمىٰ في الحياة الاجتماعية وليس الله أو المجتمع الخاص أو الدولة. وكما يسمىٰ هذا العصر هو عصر التنوير ويسمىٰ بـ«العصر الإنساني»، وكذلك يسمى بـ«deism»، أي عصر الإيمان الفلسفي بإله ليس له وحي وليس بخالق للعالم إذ كل مسميات هذه الأسماء تعتبر من خواصه.

فالتنوير هنا مايقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه، وإحلال العقل محله فيه. والإنسانية الّتي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضاً عن القربىٰ ـ من الله ـ وبالتالي عصر التنوير في خصومة فكرية بين الدين والعقل ، واتجه التفكير فيه إلىٰ إخضاع الدين للعقل ، لذا عدّ زمن هذا العصر فترة سيادة العقل كما عدّ العصر السابق

عليه فترة سيادة الدين. ولكن مع ذلك كان للدين أنصار من أرباب الفكر، كما أن للعقل وقت سيادة الدين أنصاراً من رجال الدين وهم المصلحون ورجال الفلسفة. فنرىٰ مثلاً بلانش «baliancheـ» ينقد سيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة ويذكر أن فلسفة التنوير أخطأت عندما قصدت إلىٰ أن العقل وحده يمكن أن يوجد الحقيقة وينظم الجماعة. وأخطأت كذلك عندما أرادت أن تقيم صورة العلاقة المشتركة بين الأفراد علىٰ مابينهم من ميل ومحبة إنسانية دون مايربطهم من قبل من رباط اللّغة والدين والتقاليد... ويستطرد قائلاً: كل حياة عقلية للإنسان هي حصيلة للتقاليد الاجتماعية واللّغة بالذات، فاللّغة هي وحي الله للإنسان ، والكلمة الإلهية هي مصدر الحقيقة، والمعرفة الإنسانية هي دائماً قسم من هذه الحقيقة الإلهية وتنمو في الضمير الّذي بداخلها، والكنيسة هي حاملة الكلمة الإلهية فتعاليمها هي العقل العام الّذي هو منحة من الله[١].

ويعلق فندلبند علىٰ نقد نظرية بلانش لفلسفة عصر التنوير بقوله: «العنصر الفلسفي لهذه النظرية الكنسية جاء من الاعتراف بالعقل النوعي». ومن هذا يتضح أن صراع العقل مع الدين هو: صراع الفكر الإنساني مع مسيحية كنسية كاثوليكية وأن الدوافع لهذا الصراع هي: الظروف الّتي أقامتها الكنيسة في الحياة الأوربية[٢].

أما الفيلسوف الألماني فيشته «fishte»الّذي أكد علىٰ قيمة العقل الإنساني وحريته فإنه لم يخرج عن طابع عصر التنوير وهو طابع تقدير العقل وحده دون الوحي في المعرفة.

إذاً الإنسان هو الّذي يخرج الكتاب تخريجاً فيه بُعد أو مجافاة لهدفه الأصيل، والإنسان نفسه هو الّذي يميل بالعقل الإنساني نحو عقيدة خاصة أو جهة

---

١ - أنظر تاريخ الفلسفة لفندلبند ص:٥٥٢

٢ - أنظر قضايا أسلامية.

معينة، وينحرف به عن أن يكون العقل الخالص الّذي فطر الله الإنسان عليه وبذلك يكون الإنسان هو الّذي حال دون أن يوافق الكتاب العقل ودون أن يوافق العقل الكتاب، وليست طبيعة كل منهما هي الّتي حالت دون ذلك. إن التجديد الّذي يقوم علىٰ الأحتفاظ بالعقيدة الإسلامية ولكنه متأثر في قوة الأفكار الغربية... والمثل التقدمي لهذا التجديد يميل إلىٰ العلمانية الّتي تهدف إلىٰ فصل الدين عن الدولة والاستعاضة بالنظام الغربي للقانون عن الشريعة الإسلامية ، فالتجديد في رقعة الشرق الأدنىٰ منذ بداية القرن العشرين هو محاولة أخذ الطابع الغربي في تفكير الغربيين سواء في تعبيرهم عن الدين، أو في تحديدهم لمفاهيمه ومفاهيم الحياة الّتي يعيشونها، أو في تقديرهم للثقافات الشرقية الدينية والإنسانية وبهذا يكون التجديد هو أخذ كل ماعند الغربيين من فكر ومنهج للبحث وحضارة وعادات وتقاليد في فصل الدين عن السياسة ، إن الاستعمار الصليبي والصهيوني ، فشل في فرض العلمانية بجنوده ، فقد أحسّ المسلمون به ، فتحصنوا منه ، وحين فرض العلمانية بعملائه الذين رباهم في مدارسه ، وربطهم بفلكه ، واستعبدهم بالجاه والمال ، رفض المسلمون ذلك ، فما استطاعوا أن يصلوا إلىٰ قلوبهم. والمحاولة اليوم خطرة حقاً فإن العلمانية تفرض بحق من يدعي لنفسه العمل للإسلام ، وينسب إلىٰ نفسه السيادة والريادة ويهيأ له المناخ ليكون إماماً ولتكون دعوته نهضة وهي في حقيقتها علمانية... أو عصرية... أو تغريبية [١]... الخ.

والتجديد هو متابعة التفكير الأوربي في اتجاهاته، وفي أحكامه، وفيما فصل فيه من مشاكل الحياة، وفي مدارسه. ومكان هذا التجديد المختار هو الجامعة ، المدرسة، المحيط ، والتفكير الغربي هو المادي الطبيعي الّذي انتهىٰ بالاوربيين إلىٰ ذروة الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية ولبلاد المواد الأولية في أفريقيا وآسيا.

---

١ - «العصريون :معتزلة اليوم» ليوسف كمال ص :٧٦.

وهذا التفكير يقوم علىٰ تمجيد القوة المادية، والمظاهر الحضارية كما يقوم علىٰ التقليل من شأن الروحية الدينية، والمثالية الإنسانية، أو الدينية الأخلاقية. والتفكير المادي العلمي- أو الطبيعي ذو اتجاهين:

(١) الاتجاه الميكانيكي الّذي لا يرىٰ للروح أو العقل أي وجود فضلاً عن أن ينسب إليهما تدبير الجسم.

(٢) الاتجاه الديالكتيكي الّذي يرىٰ للروح أو العقل وجوداً ولكن وجودهما بعد وجود المادة وتابع لوجودهما ، ومعنىٰ ذلك إذا فنيت المادة فلا بقاء للروح، أو العقل والله، لأنه خال عن المادة لا وجود له.

ويقابل هذين الاتجاهين اتجاه ثالث وهو الاتجاه الروحي الّذي يرىٰ وجوداً للروح سابقاً علىٰ المادة وليس متوقفاً عليها وإذ يقول بالله كعلة للكون[١].

موقف الماديين واللاهوتين من الإسلام:

وبما أن الغرب رأىٰ ضعف الشعوب الإسلامية فرصة يربط فيها بين مظاهر الضعف عندهم وبين ثقافتهم، ومصدر هذه الثقافة حتىٰ يحول في وقت ما بينهم وبين التمسك بهذه الثقافة واحتضانها. كما رأىٰ أيضاً في الشعوب ضعفاً آخر للتنفيس عن الصليبية الّتي دفعته فيما مضىٰ وبتحريض من الكاثوليكية والكنيسة الغربية إلىٰ الاعتداء علىٰ البلاد الإسلامية مدة باسم الصليب دون أن يحصل علىٰ هدفه الأصلي وهو طرد المسلمين من بيت المقدس، وإبعاد السيادة الإسلامية عن مزار المسيحية ، يقول المستشرق النمساوي ليوبولد فايس الّذي أسلم وتسمىٰ باسم محمّد[٢]: «...إلا أن الشر الّذي بعثه الصليبيون لم يقتصر علىٰ صليل السلاح

---

١ - أنظر مجلة الوطن العدد ١٥٧.

٢ - أنظر كتابه الإسلام علىٰ مفترق الطرق ص:٥٨

ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء ، شراً ثقافياً. لقد نشأ تسميم العقل الأوربي عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام، ومثله العليا، أمام الجموع الجاهلية في الغرب في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوربيين من أن الإسلام دين شهوانية، وعنف حيواني، وإنه تمسك بفروق شكلية وليس تزكية للقلوب، وتطهيراً لها ، ثم بقيت هذه الفكرة حيث أستقرت... وأنَّ من أبرز الحقائق علىٰ ذلك الفيلسوف والشاعر الفرنسي «فولتير» وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر، لكنه كان في الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام... وهذا الكره هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر علىٰ صدور من التعصب الشديد. وهذا الكره أيضاً ليس عقلياً فقط ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية قوية».

إذاً حركة التجديد في الفكر الإسلامي تسير إما في طريق الاستشراق ودراسة المستشرقين القائمة علىٰ التشويه لمعالم الحضارة الإسلامية وعرض تعاليمه عرضاً مغرضاً... وإما في طريق الفكر المادي المنكر للروحية أو المستخف بها. وهؤلاء علماء اللاهوت وقساوسة المسيحيين يريدون من المسلم أن ينسىٰ ماضي أسلافه وينسىٰ الاتهامات الّتي وجهها اليهود أو النصارىٰ للرسول الكريم محمّدﷺ، وللقرآن الكريم، وكذلك للصحابة، ولذا صرح القرآن الكريم بهذه الفكرة. ﴿...وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. وقال تعالىٰ:﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مَنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَنَصِيرٍ﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا

---

١ - البقرة: ١٣٥

٢ - البقرة: ١٢٠

وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وإِن تَوَلَّواْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾[1].

اتجاهات الفكر الإسلامي «المتنوّر»:

نجد أن الفكر الإسلامي الّذي يتمثل بالتجديد فهو يسلك اتجاهين:

(١) إما امتحان القرآن الكريم بالمقاييس البشرية وهذا مايسمىٰ بالحقائق التأريخية، ثم ترتيب كل النتائج الّتي تترتب علىٰ ذلك وهي النتائج المعروفة في كتابات المستشرقين في الدراسات الإسلامية.

(٢) وإما الدعوة إلىٰ خرافة الميتافيزيقيا، أو خداع الدين، وكل الأراء الّتي تتصل بالعالم الّذي هو وراء هذا العالم المشاهد وهو عالم الغيب وملكوت «الله» علىٰ نحو ماجاءت به الأديان، أو عالم الاتجاه المثالي علىٰ نحو مايوصف في المدارس الفلسفية العقلية.

ويقول تلميذ «comte» وهو لودفيج فير باخ «ludwegfurbach»، أحد فلاسفة الألمان في القرن التاسع عشر (١٨٠٤ م ـ ١٨٧٢ م) والّذي عبر بقوله «الله» كان فكرتي الأولىٰ و«العقل» هو فكرتي الثانية و «الإنسان بمحيطه الواقعي» وهي فكرتي الثالثة والأخيرة.

وهناك ظاهرة في التجديد للفكر الإسلامي وهي تضاف إلىٰ الظواهر الأُخرىٰ ألا وهي فكرة خرافة الميتافيزيقيا ، تدعي هذه الفلسفة إن فينا عقلاً مباشراً من الله ، ذلك الّذي صنع للإنسان طبيعته الخاصة. وواهب هذا العقل وهو الله يعيش في قلوبنا حاضراً كماتتمثل الطبيعة أمام حواسنا الخارجية ، هو «ضوء في قلبي ولكن عندما

---

١ - البقرة:١٣٦

أريد إحضاره في العقل ينطفىء»، أي أن العقل لايستطيع أن يحدد وإن كان يملأ فراغ القلب بالإدراك الوجداني.

صراعات الاتجاهات الفكرية والعقلية في أُوربا:

ومن خلال التتبع التاريخي إلىٰ التفكير الأوربي نرىٰ أن مراحله العقلية شهدت صراعاً فكرياً واتجاهات عقلية مختلفة تدور حول تبرير مصادر المعرفة الّتي عرفتها البشرية وهي الدين ، العقل ، الحسّ،الواقع. فمثلاً كان الدين أو النص سائداً طول القرون الوسطىٰ في توجيه الإنسان سواء في سلوكه وتنظيم جماعته أو في فهمه للطبيعة. وكان يقصد بالدين المسيحي ويراد به الكثلكة الّتي تعبر عن البابوية ذات النظّام الكنسي «السلطة العليا» باسم الله في يد البابا وجعل عقيدة التثليث كما جعل الاعتراف بالخطأ وصكوك الغفران من رسوم العبادة...حتىٰ كان القرن الخامس عشر حين بدأت الحرب الصليبية تثمر ثمرتها في العقلية الأُوربية فقام مارتن لوثر «luther»، والّذي حارب صكوك الغفران كما حارب سلطة البابا وجاء بعد لوثر كالفن «calvin»، وأقر لوثر علىٰ أن الإنجيل وحده هو المصدر للحقيقة المسيحية. ومن وضع العلاقة بين الدين والعقل كشيئين متقابلين أو متناقضين حدد العلاقة بين الكثلكة وتصويرها لعقيدة التثليث وما فيها من مراسم صكوك الغفران من جانب، وبين العقل الإنساني العام من جانب آخر. وهكذا كان الدين هو الّذي جعل موضوعاً للصراع العقلي الأوربي.

ومع الأسف الشديد إننا عندما ندرس التأريخ فإن دراستنا تنصب علىٰ المظهر الخارجي السطحي ولانغوص في أعماق التأريخ، فإذا درسنا فرقة من الفرق أو ديانة من الديانات نكتفي بالشعارات والخطب، كذلك إذا تحدثنا عن الفتنة بين المذاهب والطوائف والأديان، يكون كلامنا وحديثنا بالخطب الرنانة الطنانة الجوفاء ـ إن صح التعبير ـ دون أن نبحث عن جو الحادثة وماوراء السطور الّتي تكتب

الحادثة، بل حالنا حال الّذي يكتفي بالمظهر الخارجي الّذي نبه عليه القرآن الكريم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [١] وغالباً ما يكون التأريخ مشوباً بالتحيز. ويكون الانتقاء منه انتقاءً لحقائق علمية وفقاً لاتجاه معين يحمله المؤرخ وهو اتجاه ذاتي، ويكتب بعصرين العصر الإغريقي وعصر النهضة الأوربية. أما الكتب الّتي تكتب حول الفتنة فإنها ليست موجهة للخير بل يعمل علىٰ نشرها وتوجيه كتابها أصحاب الرساميل البترولية الذين ضربوا القيم الكبرىٰ الّتي جاءت بها المرجعية المعصومة عرض الحائط وأخذوا يخلطون بين مايسمىٰ بعلم إسلامي، وعلم غير إسلامي ، وبين دفاع عن الحق وبين الإرهاب ، وبين إظهار معالم حضارية، وبين نتوءات مذهبية طائفية دينية، وبين الفكر الأُصولي وبين الفكر السلفي، وبين الحركات الإسلامية والحركات المتطرفة.

الإخاء:

إن العيب ليس في الدين المسيحي، أو اليهودي، أو الدين الإسلامي، بل العيب في الفهم الخاطىء لهذا الدين أو ذاك، الّذي يمثل أعلىٰ مراتب القيم الخلاقة فإذا وجدنا الخلل في هذه القيم فلا تكون صادرة عن المرجعية المعصومة، بل إنها صادرة من الأقلام المأجورةالّتي لايهمها إلا طمس معالم الحضارة، وإثارة الفتن والقلاقل، لأن القيم الإسلامية بعيدة كل البعد عن نزعات التطرف والاختناق. ويجب علىٰ كل فرد مؤمن بالمرجعية المعصومة أن يتصدىٰ لهذه الأقلام المشبوهة؛ فطريق السلام بين الأديان ليس طريقاً صعباً، بل هو طريق سهل، إذا استعملت فيه أساليب منهج البحث العلمي، والحوار العلمي، وسماحة الأديان، والحرص علىٰ عدم شق الوحدة البشرية وضربها بخنجر مسموم، بل يجب علىٰ كل فرد مهما كان معتقده أن

---

١ - المنافقون:٤

ينشر روح التسامح والعدل الاجتماعي، من خلال كتاباته، وبث برامجه وأحاديثه ولا ينشر أفكاره المسمومة الّتي تؤدي إلىٰ التلوث الخلقي والعقلي، الّذي يعد أصل الفتنة وغرسها في نفوس الآخرين بحجة التطور العلمي ، وديننا دين الإسلام هو دين الإخاء والمحبة، لا دين الخلاف والصراع كما يفعل أصحاب الضمائر الميته ، ديننا يحترم ويقدس أنبياء الأديان الأُخرىٰ ، وكذلك الأديان تقدس وتعظم الخالق ، ولذا نجد كلمات القديس فرنسيس «... يارب استعملني لسلامك فأصنع الحبّ حيثُ البغضُ ، والمغفرة حيثُ الإساءةُ ، والاتحاد حيثُ الخلافُ ، والحقيقة حيثُ الضلالُ ، والإيمان حيثُ الشكُّ ، والرجاء حيثُ اليأسُ ، والنور حيثُ الظلمةُ ، والفرح حيثُ الحزنُ... يارب قدرتي علىٰ السعي أن أعزي لا إلىٰ أن أعزىٰ وإلىٰ أن أفهم لا إلىٰ أن أفهم وإلىٰ أن أحبّ ، لا إلىٰ أن أحبّ لأن بالعطاء الأخذ ، وبالسماح الغفران ، وبالموت القيامة إلىٰ الحياة الأبدية...اللهم إليك نتوجه وعليك نتوكل وبك نستعين وإياك نسأل أن ترزقنا قوة الإيمان بك وحسن الاهتداء بهدي أنبيائك ورسلك ونسألك ـ يالله ـ أن تجعل كلامنا وفياً لعقيدته أميناً علىٰ دينه في غير تزمت نشفي به صدورنا وأنفسنا ولاتعصب يشفي به مواطنونا ، ونضرع إليك ـ ياربنا ـ أن تبارك إخاءنا الديني وأن تجعل الصدق رائدنا إليه والعدل غايتنا منه والسلام ذخيرتنا فيه ، ياحي ياقيوم ياذا الجلال والإكرام». ما أعظم هذه القيم الّتي وجدت في هذا الدعاء الّتي تقدر أهمية الدين وأثره علىٰ الفرد وعلىٰ المجتمع ، بل علىٰ الأُمّة والأُمّم، والحضارة والحضارات، والديانة والديانات، من خلال الإخاء الديني، والسمو الروحي، والتهذيب الوجداني، والتسامح الأخلاقي والديني ، فلماذا يتخذ أنصاف المتعلمين من الدين سلاحاً لمحاربة مايؤدي إلىٰ الإخاء الإنساني ، ذلك الإنسان الّذي كرمه الله وشرفه الله تعالىٰ علىٰ سائر مخلوقاته حيث قال: ﴿وَلَقَدْ

كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1]. فالدين يخاطب الوجدان ذا المشاعر الروحية الّتي تنقل الإنسان إلىٰ أعلىٰ مراتب السلوك العملي النشيط الخلاق.

مثقفون لا ثاقفون؟

يجب علينا أن لانخلط بين المثقف وبين المتخصص الدقيق في المجالات العلمية، أو العلوم الإنسانية، لأن المثقف لا يعدّ مثقفاً إلا إذا كانت ثقافته تعد أساساً ثقافة دينية ، وهذا لايعني أن الّذي يحمل ثقافات إنسانية أُخرىٰ لايعد مثقفاً ونتهمه بالجهل والضلال والانحراف ، بل إن المثقف من يربط بين الثقافة من جهة والالتزام بمبدإ فكري سياسي أجتماعي معين من جهة أُخرىٰ ، والمتخصص ليس من الضروري أن يكون مثقفاً، وإذا أراد أن يكون مثقفاً لابد أن يضيف إلىٰ اختصاصه أو تخصصه المجال الثقافي بشتىٰ أنواعه والّتي تمثلت في المذاهب الأدبية والاجتماعية الحديثة المتطورة في وسائل الإعلام ، وعلىٰ المثقف أن لا يكون مغلقاً ومنغلقاً علىٰ نفسه ، بل أن يكون منفتحاً عقلياً علىٰ كل الاتجاهات الفكرية الثرية فيأخذ منها ما يعتقد به صحيحاً علىٰ وفق العقيدة الّتي يحملها ، لأن الله زوده بالعقل الّذي يستطيع به أن يحاور بحوار هادىء بعيداً عن الضغط الإرهابي وأن يترك أو يبتعد عن الفكر السقيم الخرافي الأسطوري الضبابي. وها هو الحاقد المسيحي أو المستشرق الصليبي حوّل المسيحية السمحة إلىٰ روح الانتقام من الإسلام ، تلك الروح الّتي بعثت فيما مضىٰ علىٰ الحروب الدامية في القرون الميلادية الثلاثة الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، محاولة الاستيلاء علىٰ بيت المقدس ، ثم عمد التبشير المسيحي إلىٰ دعوة باطلة أن القرآن كتاب مسيحي يهودي نسخه محمّد... وأن الإسلام دين مادي لا روحية فيه يدعو إلىٰ الدنيا وليس إلىٰ صفاء

---

١ - الإسراء: ٧٠

النفوس والمحبة... وأنه ـ أي الإسلام ـ يميل إلىٰ الاعتداء والاغتيال ويحرض أتباعه علىٰ القسوة علىٰ غير المسلمين عامة كما أنه يدعو إلىٰ الحيوانية والاستغراق في الملذات الدنيوية... وهناك دعوة أُخرىٰ مفادها أن الفلسفة الإسلامية هي فلسفة يونانية... وهناك دعوة إلىٰ إحياء الفرعونية في مصر والآشورية في العراق والبربرية في شمال أفريقيا... ودعوة التنفير من حياة المسلمين لأنها حياة بدائية ذليلة فهذا المونيسنيور كولي[1] يصور الإسلام بأنه برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الّذي أسس علىٰ القوة ، وقام علىٰ أشد أنواع التعصب... لقد وضع محمّد السيف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس القوانين الأخلاقية... ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب... ولا نريد التعليق علىٰ هذا الكلام الّذي لايمت بالموضوعية والمصداقية للبحث العلمي، بل أنه لا يستحق الرد ثم يضيف قائلاً: « ها هي النصرانية تصنع بسيف شارل مارتل سداً في وجه سير الإسلام المنتصر عند بوانيه «٧٥٢ م» ثم تعمل الحروب الصليبية في مدىٰ قرنين تقريباً «١٠٩٩ ـ ١٢٥٤ م»، في سبيل الدين فتدجج أُوربا بالسلاح وتنجي النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام رايات الصليب ، وانتصر الإنجيل علىٰ القرآن وعلىٰ مافيه من قوانين الأخلاق الساذجة»[2]. وقد نال هذا الكتاب رضا البابا ليون الثالث عشر في سنة «١٨٨٧ م» وعاش في المدارس المسيحية في الشرق والغرب إلىٰ اليوم. ويقول و.س. نلسن «w.s.nelson»: «وأخضع سيف الإسلام شعوب أفريقيا وآسيا شعباً بعد شعب»[3].

أما أديسون «addison» فقد وصف رسول البشرية محمّد ﷺ بقوله: «محمّد لم يستطع فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن في خياله منها إلا صورة مشوهة بنىٰ عليها

---

١ ـ صاحب كتاب البحث عن الدين الحق ص: ٢٢٠ط ١٩٢٨.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ التبشير والأستعمار ص:٣٦

دينه الّذي جاء به للعرب»[١].

وأما هنري جيسبس «henryjesups» المبشر الأمريكي وصف المسلمين بأنهم لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها... إنهم لصوص وقتلة ومتأخرون وأن التبشير سيعمل علىٰ تمدينهم»[٢]. وقال جوليمين «h.gillimain»: «أن محمّداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو... ماأعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين ـ المسلمين ـ وبين النصارىٰ! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس أسلموا أو موتوا بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وأحسانهم ماذا كانت حال العالم لو أن العرب أنتصروا علينا؟ إذاً لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين»[٣].

العقل الكلي والعقل الجزئي:

إذاً العقل الكلي بمعناه الحقيقي هو القادر علىٰ فهم حقائق الوحي أما العقل الّذي تؤكده الفلسفة الجديدة في الغرب توكيداً أكبر فهو العقل الجزئي ، وما العقلانية إلا أصالة العقل الجزئي ، ولذا يرىٰ ديكارت أن معيار الفهم والمبدأ الأعلىٰ للوجود ليس هو العقل الكلي الإلهي ، بل يرىٰ أن العقل جزئي. ولذا لا بد من التمييز بين العقل الكلي الّذي هو وسيلة فهم حقائق الوحي الأزلية والعقل الجزئي الّذي يعمد بدون الاعتماد علىٰ التأييد الإلهي ، والعقل الكلي ، إلىٰ أنكار حتىٰ وجوده. ففي الفلسفة اليونانية القديمة وفي القرون الوسطىٰ أستعملت لفظتان مختلفتان للعقل الجزئي وللعقل الكلي فكان فلاسفة القرون الوسطىٰ يطلقون اسم «إنتلكتوس

---

١ - المصدر السابق ص:٣٧.

٢ - المصدر السابق:٣٧.

٣ - تاريخ فرنسا:٨-٨١

«intellectus» علىٰ العقل الكلي المأخوذ من الجذر «intelligere» الّذي يعني الجمع والتوحيد وأطلقوا اسم «ratio» علىٰ العقل الجـزئي ، ويـعني الحسـاب والتـقسيم والتحليل. كان العلماء والحكـماء العـارفون الإلّـهيون كـالغزالي ، والسـهروردي ، وجلال الدين الرومي ، وفخر الدين الرازي ، وصدر المتألهين و... و... علىٰ عـلم باختلاف العقل الكلي عن العقل الجزئي وقرروا أن العقل الجزئي لابد أن يستنجد ويستعين بالعقل الكلي وإلا لم يكن قادراً علىٰ فهم أسرار الكون والحياة والوجود ولا حتىٰ أسرار الوحي لأن إدراك الوحي والتعمق في معناه وحقيقته من خصائص العقل الكلي وأن أقدم مصدر يشير إلىٰ هذا التقسيم هو أفلاطون في كتابه جمهورية أفلاطون[1]، وأفلاطون هذا يفرق بين الظن الّذي يسميه «doxa» فيما يتعلق بالأشياء المحسّه ، والمعرفة الحقيقية الّتي يسميها «episteme» والّتي تنقسم بدورها إلىٰ القسم السفلي وهو العقل الباحث الّذي يسميه «dianoia».

---

١ - الكتاب السادس .وأُنظر مجموعة مصنفات شيخ الأشراق بتصحيح هنري كربن ومقدمته ٣ أجزاء ط ١ من منشورات جمعية الحكمة والفلسفة ج٢:١٢-١٥.

من الظلام إلى النور

من الظلام إلىٰ النور

نحن نعيش في عصر تتصارع فيه الاتجاهات الفكرية والثقافية والسياسية وكل القوىٰ المختلفة ، ولابد للمسلم أن يتخذ النظرة العقلائية في تحديد هويته ويبادر إلىٰ أتخاذ الموقف السليم، ولم يكن في حالة فقدان التوازن والاتزان، ويخرج من الغيبوبة الّتي تشابكت فيه الخلافات اللفظية والشكلية الّتي هي أقرب إلىٰ ثرثرة النساء في السفسطة ، بل عليه أن يعبر عن المواقف ذات النتائج العلمية العملية. وليست بالضرورة أن تحل هذه المواقف كل قضية من قضاياه الّتي يبحث عنا ، لأننا مع الأسف الشديد ننظر إلىٰ الماضي نظرة الازدراء وإلىٰ الحاضر نظرة اليأس والتشاؤم، بل رؤية كلها ظلام في ظلام ، وأصبح أكثر مثقفينا في وادٍ والمرجعية المعصومة في واد آخر ، وذلك لأن حديثهم أصبح عن التطور والحداثة وعن التكنولوجيا الغربية... و... وبالتالي أصبح الحديث يثير التقزز والغثيان ، لأنه حديث عن فراغ، وأوهام، وانبهار بالسطحية الغربية الّتي زارها، أو قرأ عنها المثقف المسلم، والّتي أدت بدورها إلىٰ التصورات الخاطئة والالتجاء إلىٰ طروحات مبالغ فيها قادمة من الخارج بحجة رفض تراث الماضي، لأنه مملوء بالأخطاء والتحجر ولذا حدثت ردّة وتراجع عن كسب العلم والمعرفة من تراث الماضي والّذي وصفوه بالاتجاه الفردي، الّذي هو نوع من الدكتاتورية الفكرية الرجعية بتزوير الحقائق التأريخية. وكأن الإسلام والمرجعية المعصومة خالية من الأفكار والمعتقدات والأطروحات والنظريات ، بل حتىٰ أنها خالية من الرجال الأعاظم من أمثال هشام ابن الحكم، والفارابي، والمفيد، والجبائي، والسيد المرتضىٰ، والفارابي، وابن عربي و... و... بل نحن في اعتقادنا لانجد ممن يضاهي هؤلاء الرجال في المستوىٰ الفكري والعلمي والثقافي والسياسي. وهذا لايعني إننا ننكر وندافع عن سلبيات

الماضي، أو سلبيات الحاضر وما أكثرها من سلبيات ، ولذا يجب علينا دراسة هذه السلبيات دراسة دقيقة وبث الثقة في نفوس المفكرين الإسلاميين من خلال الإبداع والعقل لدراسة وحل هذه السلبيات ، ولانقف عند البكاء علىٰ الأطلال فقط وفقط ، فكتب التراث ـ المرجعية المعصومة ـ نجد فيها الأفكار البناءة الممتازة والّتي تفيدنا في حياتنا المعاصرة ، ولكن ـ كما ذكرنا سابقاً ـ نحن بشر نُخطئ ونصيب في تفسير الظنيات ، وهذا لايعني أننا نرفض النظريات الغربية ذات الرؤىٰ المستقبلية، وكيف نقوم بدور الرد، أو النقد، أو التفنيد، لما قد يأتي إلينا من الغرب، إلا بدراسة نظرياتهم دراسة قائمة علىٰ العقل والعقل فقط، حتىٰ يكون العقل بعد المرجعية المعصومة هو المؤسسة العليا للتجديد الفكري الّذي يتخطىٰ حدود الزمان والمكان ، لأن أُوربا لم تتقدم إلا بالسعي الحثيث من خلال العقل ، بل أُوربا مرّت بفترة مظلمة في العصور الوسطىٰ ، وهذا لايمكن لعاقل أن ينكره. والعالم الإسلامي والحمد لله لم يخل من جهابذة الفكر. وعلينا الاستفادة من أفكارهم وجعلها واقعاً حيّاً نعيشه يومياً ونتعايش معه. وهل من المعقول ونحن ندخل قرناً جديداً هو القرن الحادي والعشرين أن نقوم بالهجوم علىٰ منجزات المرجعية المعصومة في الوقت الّذي لايمكن أن نستغني عنها. إننا نناقض ونخادع أنفسنا، أم تكون في شخصيتنا ازدواجية حين نهاجم المرجعية ونحن مسلمون. ثم في نفس الوقت نبذل جهداً كبيراً وسعياً حثيثاً للاستفادة من الرجعية المعصومة، ثم نصنف العالم، وكذلك العلم، بحيث ندعي أن العالم الأوربي ذو حضارة وثقافة عالية، وصاحب أيدولوجية فكرية متميزة، ومن الضروري أن نفعل مافعل. أما العالم الإسلامي فذو حضارة تراثية صفراوية، وصاحب أيدولوجية خرافية سطحية ، ذلك أوربي متنور، وهذا ساذج رجعي، متطرف مغلق.

إن هذا التصنيف هو تصنيف خاطىء بالمنظار العقلي لأنه يضع شعارات براقة لكنها زائفة ويدعي أصحابها بأنهم أصحاب مذاهب أدبية وفكرية ، بينما الواقع غير

هذا ، لأنه لا يستند إلىٰ فكر أيدولوجي ولاتقدم ، بل هو فكر أجوف التقاطي ، ومن أراد المزيد فلينظر إلىٰ المرجعية المعصومة بدقة ، وسيجد الفرق الكبير بين الفكر السطحي وبين الفكر الدقيق العميق الّذي قام علىٰ أرض خصبة صلبة ، وليس كما يدعي المدعي الّذي يفتعل المعارك الجانبية الخيالية ويعود ويكرر مسألة الغول، والعفريت، ولكن في الواقع هو خيال محض لن يستند إلىٰ أي نوع من أنواع الصدق والمعرفة ، فهل من المعقول أن نتحدث عن الغول والعفريت في الوقت الّذي لانجد من يؤمن بهما؟ أليس من العار أننا نجد من يصدق بالفكر الأوربي الّذي يتهم المسلمين بأنهم يؤمنون بالغول والعفريت، ولم يتصد له مفكر إسلامي لتفنيد هذا الرأي الساذج؟ ومع الأسف الشديد أن بعض الإسلاميين يتخذون من هذا وسيلة للهجوم علىٰ مفكرينا ومرجعيتنا المعصومة، بحجة النقد والنقد البناء الذاتي؟ فأين الضمير الحي الّذي يتخذ العلم والعقل للتقدم الحضاري والفكري؟ ألا يعد هذا من قبل هؤلاء دليلاً علىٰ أنهم يسيرون ويركضون وراء الشعارات الّتي تصدر من أوربا ويسيرون إلىٰ الخلف لا إلىٰ التقدم؟ وإذا تمسكوا بعد هذا فلا نستطيع أن نصنفهم بأكثر من أصحاب توكيلات فكرية تماماً كالتوكيلات التجارية المالية الّتي تقوم ببيع السلع الأجنبية دون المشاركة بالإنتاج ، ويكون دورهم أيضاً دور المقلد وليس دور المبدع. وبالتحليل الدقي فإنهم يبحثون عن مجرد الشهرة في حين أن الشهرة عمياء حتىٰ تدق لهم الطبول الجوفاء باسم التنوير والتجديد الأجوف الزائف الّذي يقوم علىٰ الغش والتدليس ، ولذانهيب بأصحاب الأقلام والكفاءة والمسؤولية أن يجعلوا محاكماً للتفتيش، تفتش عن الغش الفكري والخداع كما تفتش المحاكم عن الغش التجاري ، فأين أصحاب الهمم العالية، والضمائر الحية، والعقول السليمة الواعية الّتي منحها الله سبحانه وتعالىٰ لهم أن يقفوا ضد هذه الضبابية الخاطئة الّتي تدعي أنه لاتوجد أصالة كاملة، وليس فينا أصيل؟ نعم إن النقد يعد ظاهرة صحية وليست مَرضية ، كما أنه يعد دليلاً علىٰ الثقافة العالية للاطلاع علىٰ أفكار السابقين وأخذ

الصحيح منها ونقد السقيم أو تصحيحه ، بل لامانع من أن يأخذ الفكرة من ديكارت، أو سبنسر، أو سمول، أو سقراط أو... أو... ثم يطبق هذا النور ـ إن كان هنالك نور ـ لأن الإسلام لايمنع التلاقح الفكري، بل يمنع الفكر الالتقاطي ، ويجب علىٰ هؤلاء أن لا يمنعوا بأن الفيلسوف الألماني، أو الأنجليزي، أو الفرنسي، أخذ من الفيلسوف الإسلامي. أو أن الوجوديين في العصر الحاضر قد تأثروا بالمعتزلة مثلاً في قولهم بحرية الإرادة وغير ذلك كثير ، فلماذا نُتهم بالسطحية! وينسون أنفسهم؟ فقد حدث التأثير والتأثر من كلا الجانبين ، فنقبل الفكرة الّتي تؤدي بنا إلىٰ التقدم ورفض الفكرة الّتي تؤدي بنا إلىٰ التأخر ، وبالتالي سنجد دراسات نقدية ممتازة لاتقل عن دراسات المستشرقين الغربيين، بل تفوقهم أحياناً لأنها تلتزم بالصراحة والموضوعية والمصداقية الّتي لايتصف بها المستشرق الّذي قد يلجأ إلىٰ التعسف في حكمه علىٰ مفكرينا عندما يجدهم يأخذون بالتأويل، أو بقدم العالم، أو بوجود مادة أزلية قديمة، بحيث ينسب هذه الآراء إلىٰ هذا المفكر أو ذاك دون أ ن يفرق بين هذ الفريق وذاك الفريق علماً بأن بعضهم لايقول بهذه الفكرة أطلاقاً.

إن الفلسفة الإسلامية كانت أكثر ازدهاراً من الفلسفة الأوربية، وحتىٰ في الوقت الحاضر. وسبب ذلك تمسك مفكرينا بالمرجعية المعصومة الّتي فتحت لهم أبواب الاجتهاد، والتأويل، وانفتاحهم علىٰ الفكر اليوناني مثلاً وأخذوا يبحثون عن الحقيقة كحقيقة بغض النظر عن مصدرها وكماقال ﷺ: «أطلبوا العلم ولو كان في الصين»[1]. وقال أيضاً: «أطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد»[2]. ولانستغرب من أن الغرب هو الّذي نقل وأخذ وترجم فلسفة مفكرينا ثم أخذ يفتخر بها ، بل الأجدر بنا أن نفتخر ونعتز بهؤلاء الإسلاميين لأنهم قدموا مجموعة من النظريات والمذاهب

---

١ - الجامع الصغير للسيوطي ١:١٤٣.

٢ - بحار الأنوار ١:١٧٢.

الفلسفية الّتي تحكي وتعبر عن أصالتهم ومرجعيتهم وشخصيتهم الفذة ، ولكن مع الأسف الشديد بعض أصحاب التجديد يخجلون من فكر فلاسفتنا إذا ذكروا أمامهم لأنهم لم يطلع أحد علىٰ أفكار ونظريات مفكرينا وفلاسفتنا، بل اطلعوا علىٰ أفكار أوربا الّتي ظلت تزرع في نفوسهم اليأس والتشاؤم من الفكر الإسلامي ، ويحسبون أنهم في حالة تقدم ، لأن المخترعات جاءت من بلاد الغرب. وهذه الدعوات أشد خطراً وفتكاً من الأمراض السارية كمرض السرطان، والأيدز، لأن دعوتهم تعد دعوة إلىٰ الوراء وليس إلىٰ الأمام ، والمجدد الصادق هو الّذي ينظر إلىٰ الأمام ولايكون عالة علىٰ الآخرين، في حين نراهم يتبعون التقليد الأعمىٰ من الأوربيين أشد متابعة حتىٰ لوقال الأوربي وهماً وضلالاً ، لأن التقليد هو الطريق اللامعقول، والمسدود، والوهم والضياع. والتجديد بشروطه طريق العقل والتقدم لأن قوة طاقة العقل لاحدود ولاقيود علىٰ عطائها ، ولذا نجد الغرب قد انتصر لنظريات الشيخ المفيد، وابن رشد، وابن العربي، والفارابي، ونصير الدين الطوسي و... و... بل هاجم الغزالي لأنه هجم علىٰ الفلسفة والفلاسفة ، وهاجم ابن تيمية، وابن القيم الجوزية لأنهم هجموا علىٰ المنطق والفلسفة في آن واحد. ولكن علماء الإسلام الأُصوليون ، والمتكلمون ، والفقهاء ، وقفوا من المنطق الأرسطي بين مؤيد له وبين محرم. فقد قال قائلهم «من تمنطق فقد تزندق»[١]. وإن الاشتغال بالفلسفة شرّ ، والمنطق هو المدخل إلىٰ دراسة الفلسفة ، فمدخل الشرِّ شرٌ، وعلىٰ رأسه. ومن هؤلاء الأشاعرة ، وبعض المعتزلة ، وابن الأثير، والسجستاني ، والطرطوشي ، وابن إدريس الشافعي ، وابن تيمية ، وابن القيم الجوزية ، والباقلاني ، والقشيري ...الخ

أما المؤيدون له: الكندي ، ونصير الدين الطوسي ، والرازي ، وابن رشد ، وابن سينا ، والفارابي ، وابن حزم ، والفارابي، وإخوان الصفا ، فقد قال الغزالي: «من

---

١ - مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص:١٤٥.

لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه». و «إن من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصلاً»[١]. ويعود سبب تأييدهم للمنطق الأرسطوطاليسي هو إعجابهم بالتراث الإغريقي بعامة ، وبالميتافيزيقا الأرسطية بخاصة. ولاشك ولاريب أن جمهرة الفقهاء من المسلمين المعاصرين ، شيعة وسنة تشددوا في رفض المنطق الأرسطي.

صحيح إن الفلسفة الإسلامية ازدهرت خلال فترات طويلة إلا أن مايحدث الآن نوع من الهجوم عليها من جانب أنصار التنوير والإرهاب الفكري ، والهجوم علىٰ الحضارة الإسلامية الّتي تمثل أعظم الحضارات الإنسانية تحت شعار الصحوة الإسلامية ، هؤلاء مع الأسف لم يطلعوا علىٰ كتاب واحد ـ إن لم أكن مبالغاً ـ من كتب فلاسفتنا ومفكرينا ونظريات المرجعية المعصومة لا من الآيات ولا من الروايات الّتي تقدس العقل الّذي علىٰ أساسه قامت حضارة أُوربا وبنت مجدها.

أليس من المؤسف حقاً أن نجد أساتذة وما هم بأساتذة يمجدون ويبجلون ويطبلون ويهللون للعقل الأوربي؟ أليس الاستمتاع والاستئناس بآراء ونظريات الشيخ المفيد، وابن رشد ، والفارابي ، أفضل بألف مرة من الاستجابه لآراء العالم الفرنسي والإنجليزي؟ أليس من الأفضل أن نقدس العقل البشري الّذي يسعىٰ إلىٰ حضارة متينة ورفض الدعوات الّتي تعبر عن التخلف العقلي والدمار البشري باسم التقدمية والتكنولوجيا؟ ولذا أصبح أشباه المثقفين في وقتنا الحاضر يتحدث كل منهم عن مشروع له ويقول إنه يعد إبداعاً ومشروعاً ثقافياً فكرياً خاصاً به دون غيره ، لكن في الواقع كلها مشروعات وهمية خيالية زائفة لاصدق فيها صدرت من متخلفي العقول تحت شعارات براقة تريد بنا الرجوع إلىٰ الوراء في تقليدنا للغرب والانسلاخ عن معالمنا الحضارية. فالعيب ليس في التراث أو المرجعية المعصومة ، ولكن العيب في الفهم الخاطئ للتراث وإلىٰ فلاسفتنا وفلسفتنا ، بينما نرىٰ

---

١ - المستصفىٰ ،ج١: ١٠.

المستشرقين أكثر عمقاً ودقة منا في النظر إلىٰ فلسفتنا بينما نحن ننظر بالأساليب الخطابية اللامعقولة، وبنظرة المفكر المتزمت الضيق الأفق بالفكر الحر ، بل لابد لنا من الغوص وراء المعاني الباطنية والحقيقية لفلسفتنا ، ولذا نجد في كتب الشيخ المفيد نقداً حراً جريئاً للمتكلمين وغيرهم من مفكري الإسلام. إن مشكلة التوفيق بين الدين والفلسفة مشكلة قديمة، ولذا ألغوا كتب علوم المنطق والطبيعيات وما بعدها فنحمد الله كثيراً علىٰ منح الشيخ المفيد والصدوق و... و... أعلىٰ درجات الكمال والفضل البشري والّتي لم يصل إليها أي رجل في العصر الحاضر. وهذا يتمثل بالمنهج العقائدي والكلامي. والّذي هو ليس مجرد شعور، بل إنه صادر عن حقيقة وعقيدة يقرر فيها أن العلاقات بين الأسباب والمسببات تعد علاقة ضرورية كما يدعي البعض أن العلاقة غير ضرورية، بل ترجع إلىٰ مجرد العادة ، وبالتالي نفي السببية ، لأن الاقتران بين مايعرف بالسبب ومايعرف بالمسبب إنما هو اقتران مرده إلىٰ العادة لا إلىٰ الضرورة العقلية، بينما تعد النظرية الأولىٰ انتصاراً للعقل الّذي تمثل بالجانب النقدي ، أو بالجانب الإيجابي ، ولذا نجد في الجانب النقدي يعد فلاسفتنا أقوال النظرية الثانية أقوالاً سوفسطائية ، ومخالفة لطباع الإنسان ومعتقداته ، فالنار مثلاً إذا قربت من الشيء القابل للإحتراق ولم يكن هنالك مانع يمنعه من الإحتراق كالبلل مثلاً فإن هذا يؤدي إلىٰ احتراقه بالضرورة ، فإن لكل شيء طبيعة معينة خاصة به. وهنا تظهر الحكمة الإلهية في قوله تعالىٰ :﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١]. وقال تعالىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[٢].

فهذه الآية تعد انتصاراً للعقل البشري لأنها تقرر العلاقة بين الأسباب

---

١ - النمل:٨٨

٢ - الملك:٣

والمسببات والّتي تعد بدورها علاقات ضرورية ، والّذي يذهب إلىٰ إلغائها فإنه يلغي العقل بل يرفعه، ولم يبق العلاقة بين السبب والعقل الّذي بواسطته تعرف الأسباب.

التوفيق بين الإسلام والعلم:

إن التوفيق بين الدين ـ المرجعية المعصومة ـ والعلم أو الفلسفة أو التقدم الصناعي والثقافي و... و... تعد مشكلة زمنية بعد أن حاول بعض العلماء قبل البدء في تقرير نظرياتهم وضع محاولة للتوفيق بين الدين والعلم والاكتشافات وهذا مما دفع ابن رشد وغيره مثلاً إلىٰ وضع كتابه «فصل المقال» و «مناهج الأدلة» وقد أبدىٰ ابن رشد أيضاً أعجابه الشديد بأرسطو وفضله علىٰ جميع الفلاسفة الذين سبقوه ، ولذا تأثر ابن رشد بنظريات أرسطو وبرر منهجه البرهاني ورد علىٰ الأشاعرة بصفة خاصة والمتكلمين بصورة عامة [١]. ومنهجه البرهاني الّذي أيده ابن رشد يعد محاولة الارتفاع بالمستوىٰ البرهاني حتىٰ دفعه ذلك إلىٰ نقد المتكلمين تارة والفارابي وابن سينا تارة أُخرىٰ ، ولذا عدّ الأدلة البرهانية بأنها قليلة جداً كالذهب والدر الخالص من بين سائر الجواهر [٢]. ويتضح من هذا أن منهج ابن رشد هو منهج برهاني أو قياس برهاني لأنه فيلسوف أصلاً والمبادئ الّتي اتخذها هي المبادئ العقلية والمنطقية ، وهذا المنهج يؤكد علىٰ العقل الّذي لاينفصل عن الوحي الّذي أشرنا إليه سابقاً ، لأن العقل هو الّذي يدرك أجزاء القضية المعرفية بنفسها ولذا قال: من شروط العلم الحق أن تكون النتيجة ضرورية فإنه يجب أن تكون مقدمات البرهان ضرورية أي غير مستحيلة ولامتغيرة [٣] ، وهذا يعني أن ابن رشد في منهجه

---

١ ـ أنظر مذهب الكمون عند متكلمي وفلاسفة العرب / الفصل الخاص بابن رشد / د. رجاء أحمد عليّ

٢ ـ النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد د.عاطف العراقي ص: ٥٠

٣ ـ نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين د. محمود زيدان

ينتقل من الحسي إلىٰ العقلي، ومن الجزئي إلىٰ الكلي. وبهذا ينكر طريق التصوف ، وينتصر للعقلِ في منهجه وبحثه عن المعرفة ، ويخالف منهج الأشاعرة والغزالي الذين يدعون بالعادة. ويعتبر كل من جابر بن حيان، والرازي، وابن الهيثم، والبيروني من رواد هذا المنهج. ومن هنا يتضح لنا أن المسلمين هم أوّل من وضع أُصول المنهج العلمي التجريبي الّذي أخذه عنهم الغرب فيما بعد.

أما الشاعر الكبير والمفكر العملاق محمّد إقبال فقد أهتم اهتماماً كبيراً بالتوفيق بين العلم والدين في مؤلفاته ووسائله، من خلال قضية التجديد الّتي كانت البداية في فكره الفلسفي، الّذي تمثل نحو قدرة الله في ذات الإنسان فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ، ولذا بدأ محمّد إقبال الطريق من ذاته بحيث ينطلق إلىٰ الله تعالىٰ ، وكانت دعوته هي دعوة لبعث جديد للأمة الإسلامية فيهيأ رجاء العلم من مشرقه إلىٰ مغربه لأنه دعا إلىٰ فلسفة إسلامية ، لأنه وجد الفكر الإسلامي الأصيل معبراً عن أبعاد لا نهاية لها ، أبعاد قابلة للثراء بحيث يستطيع هذا الفكر الإسلامي أن يستوعب كل الثقافات والحضارات علىٰ مرّ العصور بما لديه من ثراء وعطاء دقيق والّذي يذهب من الانتقال بالفرد من نطاق الفردية إلىٰ نطاق الجماعة والمجتمع ، وهذا لايتم إلا بالعمل والكفاح والحركة، لا بالكسل والخمول والتحجر ، ومن الفوضى إلىٰ النظام ، ومن المتعدد إلىٰ المتحد ، ومن المختلف إلىٰ المتفق ، ومن النظري إلىٰ العملي ، ومن تصوف الخنوع والهزيمة والانكسار، إلىٰ تصوف القوة والإرادة والحرية والتغيير ، والتصوف الّذي يكشف الأخطاء والمغالطات الّتي نادىٰ بها أصحاب الجبر والقهر والإرغام ، التصوف الّذي ينظر بحذر إلىٰ ثقافة الغرب لا رفضها كلياً ، والتصوف الّذي يرفض تقليد الحضارة الغربية أو الثقافة الغربية مجرد تقليد أعمىٰ ، بل هو يوفق بين التراث المرجعي وبين الحاضر الغربي والشرقي وأن يواكب الاتساق بين العقل من جهة، والعاطفة من جهة أُخرىٰ ، أو بين العقل والقلب، بين الشوق والعشق والوجدان، حتىٰ لايكون فكراً صارماً جافاً يدخل في جدلية

الألفاظ والفكر. التجديد أو الأصالة والتجديد كما يعبرون تقوم علىٰ الإيمان بالدين الإسلامي ومبادئه وقيمه ومثله العليا ونفي المقولة الزائفة الّتي روج لها أعداء الإسلام بأن العالم وجد عبثاً أو مصادفة ، لا بل للفرد أن يؤمن بالتفاؤل والعناية الإلٰهية والغائية كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾[١]. والعناية الإلٰهية في الآية ظاهرة، والغائية في الآية بارزة وهذا هو التجديد والتنوير.

إن العلم قد مرَّ بعدة مراحل: حين غالىٰ أولاً في قدرته علىٰ فهم الحياة واستكناه أسرار الوجود ، ثم حين عاد فأعلن عجزه عن ذلك وحدد هدفه بأنه تفسير الظواهر ، وأن مهمته محدودة بالعلم المادي المحسوس وحده وأن ما سوىٰ ذلك هو من شأن الفلسفة. ومن هذا نفهم ان نظريات العلم هي فروض يقدمها العلماء خاضعة للخطأ والصواب ، وأنها تتغير دوماً وما تزال تتغير كلما اكتشف العلم شيئاً جديداً ولذا ظهرت في السنوات الأخيرة أبحاث علمية دقيقة كشفت عن الأخطاء الّتي وقع فيها دارون ، ولامارك ، وهكسلي ، والّتي اعتبرت في وقت من الأوقات حقائق علمية ثابته .

وعبر الفيلسوف الكندي في فلسفته ورسائله بكلمات: « ينبغي أن لانستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتىٰ، وإن أتىٰ من الأجناس القاصية عنا والأُمّم المباينة ـ لنا ـ فإنه لا شيء أولىٰ بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغي بخس الحق ، ولا التصغير بقائله ولا بالآتي به ، ولا أحد بُخِس بالحق ، بل كان يشرفه الحق »[٢]. وماهذه الكلمات إلا هي تعبير عن اكتشاف التراث اليوناني، بل تعبير عن الثقة بالنفس ولذا قال أبقراط: «إني أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة

---

١ - الأنبياء:١٦.

٢ - رسائل الكندي الفلسفية /يعقوب بن إسحاق الكندي «في الفلسفة الأولى» تحقيق محمّد أبو ريدة ص:١٠٣ط القاهرة ١٩٥٠م

وخالق الشفاء وكل علاج، وأقسم بأسقليبيوس، وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً ، وأشهدهم جميعاً علىٰ إني أفي بهذا اليمين وهذا الشرط»[١].

فمهما تكن أُصول العلم فقد تمّ قبوله ودون صعوبة في الثقافة العربية وأن فلسفة العقل البشري إذا ما استخدم فيها العقل بصورة دقيقة يستطيع إعطاء الإنسان معرفة معينه بالكون.

تأسيس ماهو كائن لا استذكار ما كان:

إذا أردنا أن نتحدث عن التراث ، والأصالة ، والمعاصرة ، والتجديد ، والتنوير، والحضارة الإسلامية ، وموقف العقل وعلاقته بالتراث لا بد من دراسة الآراء الّتي تقدم بها هؤلاء الفلاسفة والّتي تفيدنا أكبر فائدة في تحديد الموقف الصحيح السليم المعبر عن انتصار العقل من خلال المرجعية المعصومة ، ولذا دخل فلاسفتنا ومفكرونا التأريخ الفلسفي والكلامي والعقائدي من أوسع أبوابه ، ولذا لاننظر إلىٰ هشام بن الحكم كمجرد متكلم إسلامي مناظر ومحاجج فهذه النظرة خاطئة ، بل ننظر إليه صاحب مذهب وآراء جديدة فريدة دقيقة ناضجة، صادرة عن منهج المرجعية المعصومة البعيدة عن الاتجاهات غير العقلية والّتي تدخل في مجال اللامعقول ، ولقد حذرتنا المرجعية من كل دعوة لاتقوم علىٰ العقل ، ولسنا كالأشاعرة الّتي تطرح العقل جانباً بل تسخر منه. ومن المؤسف جداً أن نبحث عن حلول مشاكلنا عن طريق النظريات الغربية؛ بينما نجد فلاسفتنا ومرجعيتنا قدمتا لنا المنهج الّذي يساعدنا علىٰ حلها، وهذا الابتعاد ناشئ عن حجج واهية كالأصالة ، والمعاصرة ، والعولمة ، ومايرتبط بها، بحيث نضع المرجعية المعصومة في زاوية الإهمال، بل النسيان. لأن أُوربا تقدمت، والصحيح أن الإسلام هو الّذي دعا إلىٰ

---

١ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء. لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ج١:٤٣ط بيروت ١٩٧٩م

التقدم من خلال أخذ العلم وأسبابه بدل الكائنات الخرافية الهلامية اللامعقولة. إن العيب ليس في الدين كما ذكرنا ، بل في الفهم الخاطئ للدين ، ولذا نجد من النادر أن يفهم بعضٌ نظريات ملا صدرا الشيرازي، لكن في الوقت نفسه نجد المستشرقين قد فهموا ابن المعلم، وملا صدرا ، ولو كان هؤلاء في مدينة أوربية لأقاموا لهم التماثيل في كل مكان ، ولكن نحن فيكل يوم نسيء إليهم بل نهملهم أهمالاً ، ولو آمنا بما آمن به مفكرونا الذين اتخذوا الطريق العقلي والرشدي المنار الّذي يعتصمون به والّذي هداهم ويهدينا إلىٰ الخير بل كل الخير ، وإذا نجد المناجاة لله سبحانه وتعالىٰ من قبلهم: «فالق ظلمة العدم بنور الوجود»، وهذا يعني أن الظلام عدم ، والنور وجود.

ومن هنا نرىٰ أن مثقفينا يمرون بأزمات أدبية وفكرية وفلسفية ، فمثقفونا انقسموا في قضية الأصالة والمعاصرة ، والعقل والتراث ، والعولمة ، الّتي كثيراً مانجد من يتحدث عنها «العولمة»، ولاندري عمن يتحدث أَيتحدث عن التطور الّذي تتحدد معالمه نتيجة توفر أسبابه ، وعن ظاهرة تقع ، لأن دواعيها ومقدماتها قد تجتمع في الواقع؟ أم أنهم يتحدثون عن تطور مبتغىٰ ، وتنظيم جديد للعلاقات يراد السعي لتحقيقه والتعجيل بوقوعه واكتمال حلقاته؟ فإذا كان الكلام عن عُولمة ترويجية ، تبليغية ، مبالغية ، يتعلق بعضها بوصف الواقع ... ويتعلق الآخر بتقويمه ، ولذا نجد من يطالب ، بالعولمة وكأنها أمراً قد تحقق فعلاً واكتملت حلقاته بينما الواقع يصرخ خلاف ذلك. بينما نجد بعضاً آخر يريد التعجيل في إضفاء قيمة إيجابية علىٰ كل آثار «العولمة»، كالادعاء بأنها تخدم مصلحة الفقراء لكن الواقع هي تخدم مصالح الدول الصناعية الكبرىٰ ، لاننا نرىٰ بأم أعيننا بانتشار الفقر والبؤس في كل أنحاء العالم ، وليس بانحساره .ثم ان هذه العولمة لم تدرس دراسة علمية بل درست دراسة ترويجية للدخول في دين الملك ، وترك كل العقائد الّتي لا يدين بها الملك سواء كانت عقائدية ، فكرية ، ثقافية ، سياسية ، اقتصادية ، وصهرها في

النظام الجديد «to integrate»، والّذي يلغي التعددية بل يلغي الاعتماد المتبادل، ويحل محله استعلاء الفريق الواحد وهيمنته وسيطرته ، ولذا اصبحت ردّة الفعل تجاه العولمة عنيفة من قبل بعض العرب والمسلمين حتىٰ ولو كان هذا التحول نتيجة طبيعية لتحولات علمية وصناعية وقعت فعلاً. وهنا تقع المعركة بين تصور القديم وتفضيله ، وتصديق كلّ ما هو جديد. وبالتالي تصور المعركة بين الموقف العقائدي والثقافي، وبين الخوف والاحساس من مواجهة الجديد وكأن المعركة بين المسلمين وبين سنن الله الكونية. مع ان الموقف الصحيح للإطار المرجعي الديني الإسلامي هو الجمع بين الثوابت الّتي تكوّن بنية أساسية لثقافتنا ، وبين القدرة غير المحدودة علىٰ التجاوب مع الجديد وتوظيفه لخدمة القيم العليا للأمة وللفرد. صحيح ان مصطلح العولمة بدأ اقتصادياً إلا ان امتداده إلىٰ ميادين أُخرىٰ لا يمنع الأخذ به لأن اساس الاديان السماوية منبعه واحد وهو المنبع الّذي استمدت الشعوب بناءها الأخلاقي منه. ومن هنا نجد تراجع الشعوب عن الحداثة الّتي فجرت عبادتين جديدتين هما عبادة المال، وعبادة الذات. ثم ادىٰ هذا التراجع للعودة إلىٰ الإديان الّتي يكمن فيها العلاج لانها صادرة من منبع واحد كما قلنا رغم تعددها ، وخير دليل علىٰ ذلك مسألة التوحيد الّتي جاء بها إبراهيم عليه السلام ثم تلته الإديان بنزول الكتب الثلاثة التوراة، والإنجيل ، والقرآن ، كما قال تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[1].

الاتجاه اللاديني:

لقد اصبحت المشكلة هي مشكلة تيار «الا دينية»، الّذي يعود بالناس إلىٰ دين العبادتين. ولذا نجد بعضهم قد آثر الاحتفاظ بالمرجعية المعصومة ، وساير التطور العلمي. والقسم الآخر رفض المرجعية ـ التراث ـ وتمسك بكل ما هو غربي

---

١ - المائدة:٤٨.

أوربي كطه حسين، الّذي ذهب إلىٰ حدّ التأكيد في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»[١] ، أن للعقلية المصرية ، أقرب إلىٰ العقلية الغربية منها إلىٰ العقلية الشرقية ، وأن العقلية المصرية ، ماهي إلا امتداد للعقلية الغربية ، وأن الغرب يجب أن يكون المثال الأعلىٰ، الّذي يقتفي المثقفون خُطاه ، وينسجون علىٰ منواله...

نحن إذاً مدفوعون إلىٰ الحياة الحديثة دفعاً عنيفاً تدفعنا إليها عقولنا ، وطبائعنا وأمزجتنا الّتي لا تختلف في جوهرها قليلاً ولا كثيراً منذ العهود القديمة جداً عن عقول الأوربيين وطبائعهم وأمزجتهم».

إذاً الحضارة الغربية عند طه حسين ليست كافرة أو آثمة ، كما يزعم الرافض لها، وذلك لأن الكفر والإثم لا يورث. وبدء التحرر العقلي والنهضة الفكرية ، يكون ابتداءً ، برفض الدين في حكم الحياة السياسية والفكرية. وإرادة الأُمّة هي: « قوام الحكم وعماد الوزارة ، ومصدر الهيئات النيابية الّتي تشرّع القوانين وتراقب السلطة التنفيذية» [٢]. أما كتابه في الشعر الجاهلي الّذي أصدره عام «١٩٦٢م» والّذي تبنىٰ فيه المنهج التحليلي الديكارتي فقد شكك في صحة المعلومات الواردة في القرآن الكريم ، والمتعلقة بإبراهيم وإسماعيل حيث قال: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي... فضلاً عن إثبات هذه القصة الّتي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلىٰ مكة وبنشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلىٰ أن نرىٰ في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرىٰ. وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الّذي أخذ اليهود

---

١ - ص:٤٧.

٢ - أفكار الكبار ، فتحي رضوان ص:٨٢.

يستوطنون فيه شمال الجزيرة العربية ويبثون فيه المستعمرات. فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين، وبين العرب الذين يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من الملاينة ونوع من المهادنة. وليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الّذي استقر بين المغيرين، وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة ، الّتي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لا سيما وقد رأىٰ أولئك وهؤلاء، أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل. فأولئك وهؤلاء ساميون ... وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح»[1]. ثم قال: «أريد أن أصطنع في الأدب هـذا المنهج الفلسفي الّذي استحدثه ـ ديكارت ـ للبحث عن حقائق الأشياء في أوّل هذا العصر الحديث. والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي: أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً. والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج الّذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كـان مـن أخـصب المـناهج وأقومها وأحسنها أثراً ، وأنه قد جدّد العلم الفلسفة تجديداً ، وأنه قد غيّر مذاهب الأدباء في أدبهم ، والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الّذي يمتاز به هذا العصر الحديث...فأنت ترىٰ أن منهج ديكارت هذا ليس خصباً في العلم والفلسفة والأدب فحسب ، وإنما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضاً. وأنت تـرىٰ أن الأخذ بهذا المنهج ليس حتماً علىٰ الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم ، بل هو حتم علىٰ الذين يقرأون أيضاً. وأنت ترىٰ أني غير مسرف حين أطلب منذ الآن إلىٰ الذين لا يستطيعون أن يبرأوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرأون أو يكتبون فيه ألا يقرأوا هذه الفصول ، فلن تفيدهم قـراءتـها إلاّ أن

---

١ - ص: ٢٦ـ ٢٧.

يكونوا أحراراً حقاً»[١]. كما ذهب في كتابه الفتنة الكبرىٰ، إلىٰ القول: «إن نظام الحكم أيام النبي لم يكن تيوقراطياً مقدساً مفروضاً من السماء ، لا رأي للناس فيه ، وإنما كان أمراً من أمور الناس يقع فيه الخطأ والصواب ، وإنه بين الإسلام وبين المسيحية فرق في هذه الناحية. فالإسلام دين يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، ثم يخلي بعد ذلك بين الناس وبين حريتهم واختيارهم، وأمورهم الدنيوية ، تماماً كما هو الحال في المسيحية»[٢]. وهذا قاسم أمين من أصحاب التيار التحديثي أو التغييري والّذي دعا إلىٰ تحرير المرأة تحريراً كاملاً وعزا الجهل المتفشي في بلاد المسلمين أحد اسبابه هو الحجاب الّذي بقي مستمراً وتابعاً لهيئتنا الاجتماعية والسياسية والعقلية والأدبية...ولكن اليوم وقد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييراً كلياً فأصبحنا أحراراً وتمت الحرية،...فهل يليق بنا بعد هذا أن نحافظ علىٰ العادات والتقاليد القديمة ، ونحن نحرص علىٰ عادة الحجاب ، ونتخذها وسيلة لصيانة المرأة...ثم قال: إن تقدم المرأة أو تخلفها هو المعيار الوحيد لمعرفة تقدم المجتمع أو تخلفه»[٣]. ويقصد بالتقدم هنا التقدم الّذي لا يؤمن بالغيبيات، أو الاستناد إلىٰ القرآن والسنة النبوية، وحتىٰ لو كان الإسلام هو دين الله فهذا لا يعني أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الصحيحة، وعلىٰ المسلمين أن يعيدوا النظر في تراثهم.

المنهج التحديثي

ويتبنىٰ أحمد لطفي السيد المنهج التحديثي وذلك من خلال دعوته إلىٰ فصل الدين عن الدولة، وفصل بين المدنية والإسلام، وليس في الإسلام ما يجعله أفضل

---

١ - الأدب الجاهلي ص: ٦٦ـ ٦٩.

٢ - ج ١: ٢٦.

٣ - المرأة الجديدة ص:٦١.

من غيره من الأنظمة والأديان ثم قال: « فالمنافع الحيوية هي وحدها الّتي يـصح اتخاذها قاعدة للأعمال السياسية ، وجعل المنفعة أساساً للعمل في السياسة مذهب لا يأباه الدين الحنيف..»[١]. وسار علىٰ هذا المنوال الشيخ عليّ عبد الرازق الّـذي كان من أشد المتحمسين للتيار التحديثي ، وكذلك الشيخ الأزهري عـبد الحـميد متولي صاحب كتاب ـ أُصول الحكم في الإسلام ـ الّذي دعا إلىٰ فصل الدين عن الدولة بكل صراحة ، وهو الّذي أيد حركة مصطفىٰ كمال أتاتورك في تركيا الّـتي أعلن فيها إلغاء منصب الخلافة. وقال: هي من صنع ووضع المسلمين، وليست من أُصول الشريعة، ولا يوجد دليل عليها، ولا علىٰ القضاء ، بل هي طريق دنيوي لم يعرفها الدين ، ولذا دعا إلىٰ علمنة الدولة[٢].

وللدكتور محمّد عمارة رأي قريب من هذا حيث قال: «إن الدولة لم تكـن هدفاً من أهداف الوحي ، ولا مهمة من مهام النبوة والرسالة ، ولا ركناً من أركان الدين ، وإنما اقتضتها ضرورة حماية الدعوة الجديدة ، والدّفاع عن الدعاة المؤمنين ضد اضطهاد المشركين ، فكان تأسيسها وتدعيمها إنجازاً سياسياً وحضارياً وقومياً حفظ الدين ، ودافع عنه ، وساعد علىٰ انتشاره ، علىٰ الرغم من أنـه ليس جـزءاً أصيلاً من مهام النبوة والرسالة ، ولا هو أصل من أُصول الدين!»[٣].

العلم والعقل والمعرفة:

وسار علىٰ المنهج التحديثي هذا حسن حـنفي، ومـحمّد عـابد الجـابري ، ومحمّد أركون ، وبرهان غليون ، وعبد الحميد أبو سليمان، وزكي نجيب محمود ،

---

١ ـ انظر صفحات مجهولة من تاريخ الحركة القومية في مصر ص: ١١٨ ، المنتخبات ج١: ٣٠٨.

٢ ـ ص: ٥، ١٦، ٣٣، ١٠٣.

٣ ـ الإسلام والعروبة والعلمانية للدكتور محمّدعمارة ص: ٥ ـ ٧.

وشبلي شميل ، ولويس ، وعوض ، وموسىٰ سلامة ، وإنطوان و... والذين اعتقدوا أن العقل والعلم والمعرفة شيء واحد ، وهذا الكلام علىٰ اطلاقه غير صحيح ، وغير دقيق ، إذ إنّ العقل هو اكثر من النشاط الدماغي المعروف عند الإنسان ، وهو ليس كما ظنّ «لا لاند dalande»، عقلين اثنين ، عقل مكوِّن أو كوَّان ، وعقل مُتكوِّن. إن هذه التثنية هي أسطورة لا أكثر. فالعقل هو نور الجسد الكوني وهو واحد ، وحقول معرفته ، ونتاجه العلمي ، متنوعة ومتكاثرة .كما يقول خليل أحمد خليل [١]: فالعقل هو أصل الإنسان وهو قابل للتوظيفين معاً ، التوظيف في الحقل القدسيّ ، والحقل الدنيوي ، وهذا ما يكشف لنا ما يلفّه من توهيمات وتخرصات وخرافات واساطير شعبية زائفة ديماغوجية «demagogique»، ان العقل البشري لا حصري ، لا إكراهي ، ولذا جاءت الآية الكريمة:﴿لَاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢]. إنه عقل حرّ ، مستقل لا ينضوي تحت فلسفة الحَصرْ أو الكبت الاعتقادي والّتي جاءت من التأريخ السياسي لا من القدسيّات الإسلامية. لأن عقل السلطة هو تقييدي ، زَجري ، أمريّ ، بينما العقل الإسلامي هو عقل قدسيّ ، تنويري ، تفتيحي ، تأسيسي ، تقويمي ، فعّال ، شمولي الاعتقاد ، وأُمميّ السياسة الدينية والدنيوية قبل أُممية الرأسمالية والاستعمار والشيوعية ، لا العقل المستقيل عند محمّد عابد الجابري الّذي هو دين السلطة الأحديّة حيث قال: «لا تجتمع الرياسة لاثنين عند العرب »[٣]. فالعقل الإنساني يتجدّد بقدر مانتحرّر ، ونعتق أنفسنا من القواعد والأحكام المسبقة من الظنّيات والتخيلات الفاسدة ، فلماذا نكتب ونقرأ ونعقل غير ما نفعل؟ ما الّذي جعلنا نقول غير ما نُعاني؟ أي عقل هذا ، الّذي جعل الجابري يعتقل نفسه بنفسه عندما قال:

---

١ - العقل في الإسلام ص:٩.

٢ - البقرة:٢٥٦.

٣ - نقد العقل العربي ، تكوين العقل العربي ، بنية العقل العربي ، العقل السياسي العربي .

«لقد تمّ في عهد الصادقعليه السلام، وبإشرافه تنظيم الفكر الشيعي وصياغة قضاياه الأساسية صياغة نظرية»[١]. لكن الجابري سكت عن العلم السني ونحن نسأل الجابري مَنْ الّذي فرض السكوت علىٰ العلم الشيعي؟ ألم يكن العقل السلطوي الّذي قمع وقهر كل معارض له؟ مَنْ الّذي حبس وقتل؟ ومن الّذي عارض وقاوم ورفض؟ والشيعة تفتخر بأنها خرجت وَجُنّت، عن مسايسة العقل السلطاني وترهلاته لأنها تعقل، وتشارك، وتحاور، وتجادل، طبقاً لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[٢]. وكأنّ اليقين العلمي هو يقين اليقين، وهو اختيار الحقيقة وبرهانها، بطرح النظريات، والنظرات كما يقول «novalis»: «النظريّات شِباك، وَمنْ لا يطرح شباكه لن يحظىٰ بصيد»[٣]. لقد امتن الله علىٰ بني آدم بالعلم والمعرفة والادراك الّذي ينكشف به المعلوم انكشافاً لا يبقىٰ معه ادنىٰ شك، والعلم الّذي يدعو إليه الإسلام هو العلم الشامل بنوعيه الديني والمادي، فالنوع الأوّل الّذي يهتم بأمور العقيدة والقيم والتصور العام للوجود والنفس الإنسانية مصدره الوحي. والنوع الثاني فهو العلم الّذي يبحث عن ظواهر الكون والحياة ويهتدي الإنسان إليها بمداركه المعرفية عن طريق الحواس الّتي يطل منها الإنسان علىٰ بيئته، ولو لم يخلق الإنسان مزوداً بتلك الحواس لكان الإنسان كالحجر الاصم الصلد الّذي يستحيل أن يكون له وعي إلا أن يتفاعل مع البيئة الّتي يعيش فيها. والعقل الّذي يؤلف بين المعرفة الّتي يحصل عليها من المدركات الحسية المختلفة ـ كالضوئية، والكيميائية، والعلوم المختلفة ثم يحللها تحليلاً علمياً وفق الرؤية القرآنية والاكتشافات الحديثة وبالتالي تؤدي إلىٰ تعميق الايمان بالله. فهي عملية عقليه منطقية واقعية، ثم إصدار الأحكام

---

١ - تكوين العقل العربي ص:٦٦.

٢ - البقرة:٤٤،آل عمران:٦٥،الانعام:٣٢.

٣ - نقلاً عن كتاب العقل في الإسلام خليل أحمد خليل ص:١٥.

والتمييز بين الأشياء والمعلومات والمفاهيم الّتي تطورت وفقاً لتغير الرؤىٰ الثقافية فيما يخص كل نص. ولذا كانت السمة البارزة للتغيير هي التحول الجذري الّذي نقلنا من مفهوم النص المغلق إلىٰ مفهوم النص المفتوح، بالرغم من وجود انواع كثيرة ومتعددة من أنواع انغلاق النص ، فمثلاً الانغلاق «الدوجماطيقي» الملازم للمفاهيم التقليدية للنصوص وللفكر بعامة. وهذه تقرر أن النص مرفوع عن كل شبهة أو جدال. وغالباً ما يرتبط النص في فهمه وتأويله وتطبيقه بالعلوم اللاهوتية والقانونية في الميراث القربي وهذه هي العلوم الّتي لازمت قيام فنّ «الهرمينوطيقا» الّذي يعني التأويل ، والّذي يركز في آلياته للارتقاء إلىٰ الدلالات المتضمنة في النصوص المقدسة ، والّتي تحتوي علىٰ المعنىٰ الحرفي أو اللغوي المباشر ، والمعنىٰ الاخلاقي والمعنىٰ الكنائي ، والمعنىٰ الرمزي. وكل هذه المعاني تقع علىٰ عاتق المفسر. وإن انغلاق النص يقوم علىٰ جدلية محددة ومحصورة سلفاً بين المؤلف والنص ، سواء أكان المؤلف مبدعاً فردياً كما نرىٰ في أعمال الكبار وعمالقة الفكر ، أو معبراً عن الضمير الجمعي كما تبرز في الرؤية «السوسيولوجية» ، أو كما روجت له من قبل المناهج الوضعية ، كما أن الانغلاق يُضفي علىٰ النص دلالة موضوعية تحدد دور القارئ سلفاً ، وهو دور يقوم علىٰ الفهم الصحيح والاستيعاب للمضاميين التربوية والتقويمية ، بخلاف النص الحداثي والّذي يقع في ثلاثية الاطراف: المبدع ، والقارئ والجمهور المتلقي. وهذه تكون استجابة للمثيرات الخارجية أكثر من المثيرات الداخلية الوجدانية .

إن فصل الدين عن الدولة علىٰ غرار ماجرىٰ في الغرب ، لم يحصل في الشرق حتىٰ الوقت الحاضر ، وعملية احلال الافكار العلمانية محل الدينية هي عملية موضوعية تماماً ، تجري علىٰ نحو متفاوت ، وان التطور الحديث لم يغص حتىٰ الآن إلىٰ الاقصاء الكامل للتقاليد الدينية ، بل يؤدي إلىٰ تركيب خاص يجمع العوامل الدينية والعلمانية .إن الاسباب التأريخية لديمومة التقاليد تشمل سياسة

«الكولونيالية» ، من جهة ، وبطء وتيرة تشكل المجتمع المدني في الشرق من جهة أُخرىٰ. وإن افكار اندماج السلطة الدنيوية بالمقدسة ، وتنظيم الحياة الاقتصادية للجماعة ، هي من الخصائص المميزة للإسلام ، وهكذا فإن الدين ، بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الثقافة ، يحتفظ بوظائفه في تشكيل المجتمع الحديث ، وليس من باب الصدفة ان الدين اصبح عنصراً بارزاً في صيانة الهوية الروحية ، نظراً لاستعباد الشرق علىٰ يد الغرب .

التوظيف العلمي لا التوظيف السياسي؟

يطرح الجابري بما يسميه «المشكلة الشيعية»، ويقول: «للشيعة فقه خاص يتوارثونه عن أئمتهم». ونحن نقر ونعترف بذلك، لأن الأئمة عليهم السلام هم الوعاء للشريعة الإسلامية، وهم حملة وورثة الأنبياء ، وان الإمامة هي الامتداد الطبيعي للنبوة و...و...ولكن نسأل الجابري من هو الّذي أغلق باب الاجتهاد؟ ومن هو الّذي ثبت عنده التجديد والمجدّدين علىٰ رأس كل مئة سنة؟ ومن هو الّذي عنده نائب الإمام أي وليّ الفقيه؟ ألم تكن دعوة الجابري التمييزية بين الفقه، وأُصول الفقه عندما قال: «مهمة الفقه التشريع للمجتمع ، ومهمة أُصول الفقه التشريع للعقل». هي دعوة مانوية. ثم نسأل أيضاً من هو الّذي تمنطق وتزندق وتهرمس ، ومن الّذي روّج لهذه المصطلحات هل هم الشيعة أم السلاطين ووعاظهم وقضاتهم؟ ومن هو الّذي قلب الدولة النبوية المحمّدية مُلكاً عضوضاً؟ وهل الشيعة هم الطلقاء وأبناء الطلقاء ، أم غيرهم ؟ أليس الصراع القائم هو بوجهه الخارجي وسيلة لفرض العقل الاعتقادي الغربي علىٰ بقية العالم ، الموسوم بأنه لا عقلي ، لا معقول ، اعتقادياً؟ ويقول عقل الاستشراق الكلام ذاته علىٰ العرب سواء في عصر الراشدين ، أم عصر ابن رشد والرشدية ، وابن خلدون، والخلدونية...ولذا يطرح خليل أحمد خليل السؤال التالي: كيف يتعاطىٰ العقلان العلمي والاعتقادي في العالم الإسلامي والعربي مع هذا العقل

الغربي المستقوي برساميله السحريّة الدينية ، الاسطورية؟ ونحن نعلم بأن هنالك حضارة مقابل حضارة ، ودولة إسلامية مقابل دولة غربية ، دولة القوة المستقوية بعقل الآلة الّذي يعاكس عقل الآلهة. وهاتان المسألتان تستلزمان توّجه العقل الإسلامي والعربي المعاصر نحو الاستقلال الفلسفي والعلمي والتقني ، وهذا لا يتحقق بقوّة العقل وحده ، بل بشرط إستقلال الأُمّة الإسلامية والعربية وتحوّل عقل الفرد إلىٰ عقل حرّ ولذا نرىٰ الجابري يطبق منطق التوظيف السياسي ، لا التوظيف العلمي مما جعله يغمض عينيه عن الفيلسوف الّذي شغل نفسه بالتصوف والزهد الكاذب، ولم يحرك ساكناً وهو يرىٰ الجيوش الصليبية تجول بخيولها في بيت المقدس. ثم يتهم الجابري العقل الشيعي مجرّد مجهود عقلي جبار من أجل تبرير وتكريس استقالة العقل... بحجة أنّ العقل المستقيل هو النظام العرفاني الّذي يقابله ويعانده عقل عربي إسلامي... ورد فعل ضد الغنوص المانوي والعرفان الشيعي...». يتلاعب الجابري بالالفاظ والمصطلحات وحتىٰ الترجمات اعتبرها الجابري هي محاولات لإدخال ثقافة / فارسية / هندية / إيرانية معادية للإسلام .

تورخة الآباء أم تورخة الأبناء؟

وبدورنا نسأل الجابري من هو الّذي كان يسكن في دور الخلافة؟ هل هو عمار أم كعب الاحبار؟ ثم من هو الّذي تأثر بعقائد المجوسية والآسيوية؟ هل هم الآباء أم الأبناء؟ وهل هم الشيعة أم غيرهم؟ علماً بأن غيرهم كان اصلهم من المجوس ثم دخلوا الإسلام الّذي جبّ ماقبله ، وعندما دخلوا في الإسلام دخلوا علىٰ غير المذهب الشيعي فحملوا معهم أفكار المجوسية ولذا ألفوا أهم المصادر في الحديث والعقائد والفقه والتأريخ ، بل هم اسسوا المذاهب واصبحوا من كبّار أئمة المذاهب حتىٰ استقل بعضهم بمذهب خاص له من أمثال الإمام أبي حنيفة، وابن جزي ، والترمذي ، والجويني ، والنسائي ، وأبو داود ، والحاكم الحسكاني ، ومسلم ،

وابن خزيمة ، والبخاري ، وأبو داود السجستاني ، ومحمّد بن يزيد الربعي القزويني ، المعروف بابن ماجة ، وعبدالله بن عبدالرحمن التميمي الدارمي السمرقندي ، وأحمد ابن حنبل الشيباني الّذي أصله من مرو ، وكان أبوه والي سرخس ، وأبو نعيم الإصبهاني ، والجويني الّذي كان شيخ خراسان ، وعلي القاري الخراساني الهروي وغيرهم كثير. فمن أولىٰ بالتهمة الأجداد السنيون أم الأبناء الذين تحولوا بعد ذلك إلىٰ المذهب الشيعي؟ والتأثير السابق يكون في الآباء لا في الأبناء حسب القواعد العلمية. ثم ان التشيع لا يشك في أسلاميتة ، والعكس هو الصحيح ، لأن أئمة المذاهب الأُخرىٰ ٩٠٪ بالمئة هم من أصل فارسي حتىٰ مجسمة الحنابلة.

إذاً التشيع شهد نهضة كبرىٰ بالاستشهاد ، وتبلور تأريخياً في مدارس أو مذاهب مختلفة عقلياً، ولذا تميزت العقليّة الشيعية بجعلها العقل أصلاً للدين والسياسة ، وبتركيزها علىٰ العقل المجتهد ، المستند إلىٰ العقل المعصوم ، وتبريزها الوجه القدسي للإمام المعصوم وأهل البيت عليهم السلام. ويمكن القول إن العقلية الشيعية الإمامية هي عقلية تأويلية / تأليهية ، وإنَّ أتباعها متأوّلة كما يقول خليل أحمد خليل [١]. أما العقلية السنّية فقد أغلقت أبواب الاجتهاد منذ القرن الثالث الهجري لكن بعض المعاصرين والمصلحين منهم طالب بإعادة فتح باب الاجتهاد[٢]. ومن هنا نفهم سرّ اللغة المتعالية لخطاب النقد الجابري إزاء كثير من النصوص والمناهج النقدية، والّتي شغل نفسه بآليتها زمناً غير قليل، استناداً إلىٰ التبدلات المنهجية الغربية، والتعبير عن التغيير الدائم في الذائقة النقدية، والحساسية المرتبطة بالتطور الموضوعي، وغير محكومة بآلية عمله الداخلية، وبتحولات الحساسية الجمالية

---

١ - العقل في الإسلام ص:١٨٧.

٢ - راجع ماكتبناه في مجلة التقريب بين المذاهب العدد الثاني / السنة الأولىٰ تحت عنوان «الاجتهاد بين الانغلاق والأنفتاح».

ومتغيرات عناصر واقع النص مما يجعله في كثير من الأحيان رجع صدىٰ للآخرين المتجلية في التصورات الموهومة الّتي تقترب في نظرها لتبدلات منهجة النقد الغربية ، ومن الخطاب الأيدولوجي الّذي يعكس تشوشاً في فهم مصطلح النقد، بل لم يقف عند حدود التميز والاستقلال لدىٰ الناقد الموضوعي ، فقد تجاوز الأمر ليصل إلىٰ حدود التقاطع المنهجي، والرفض الفكري، ومحاولة نفي الآخر. ولعل ادعاء أي من المناهج النقدية حق امتلاك الحقيقة يعكس نظرة قصدية وموقفاً قبلياً يجافيان روح العلم وموضوعيته. وأن الإصرار علىٰ تحويل الاختلاف إلىٰ خلاف منهجي وإلىٰ ضرب من ضروب النفي والمصادرة للآخر من شأنه أن يحرمنا من فرص الحوار والإفادة ، ويحول دون الوصول إلىٰ كثير من التوصلات المهمة الّتي تحقق روح التواشج وتحولها إلىٰ الانشغال بلعبة ردود الفعل الّتي لا طائل وراءها.

ومع يقظة الفكر العربي الإسلامي ، وحرص أبناء الأُمّة علىٰ عناصر شخصيتهم الأصيل بعد ليلٍ طويل تعرضتْ فيه لذرائع المسخ والتشويه ، والفتنة والاستهواء... يطالعنا الدكتور زكي الميلاد في دراسته «الفكر الإسلامي تطوراته ومساراته المعاصرة» بقوله: «لقد أصاب فكر المسلمين الشيعة لسنين طويلة عوارض الجمود والانكفاء والعزلة ، لاسباب وظروف ذاتية وموضوعية ، أثرت بدرجات كبيرة علىٰ تأخر مستويات التطور العام في أوضاعهم الاجتماعية والثقافية ، فكانت الفرص أمامهم ضيقة من جهة المشاركة في الوظائف العامة علىٰ مستوىٰ المجتمع والدولة ، صاحبتها مظاهر ضعف الإرادة والاندفاع الذاتي من قبلهم. وانصرف اشتغالهم العلمي والفكري علىٰ صعيد العلماء والفقهاء بصورة أساسية في ميادين الفقه والأُصول واللغّة ، وهي العلوم الّتي تتأسس عليها نظم التعليم في الجامعات الشيعية، الّتي تعرف بـ «الحوزات العلمية» ، والّتي كان أكبر ضعف فيها افتقادها إلىٰ العلوم الاجتماعية ، والعلوم المعاصرة .ومن الثابت أن الفكر لا يتطور بمعزل عن

الواقع..»[1]. ولا نريد أن نناقش الدكتور زكي الميلاد علىٰ كل ماجاء في دراسته ولا علىٰ كل ما جاء بهذه الأسطر، بل نقول له كما قلنا للدكتور الجابري: أنّ الفكر الشيعي الإمامي يتميز بخصائص فريدة جعلته متميزاً بمكوناته الفكرية ، والعقائدية، والعلمية ، الدينية والدنيوية ، وذلك لأن معظم أئمتهم ، وعلمائهم كانوا حكاماً علىٰ الارواح ، وثائرين علىٰ الطغاة ، مما أكسب الفكر الإمامي درجة كبيرة من امتزاجه بالحركة ، ونظريته بالواقع ، كما تميز الفكر الإمامي بالدعوة منذ اليوم الأوّل إلىٰ فتح باب الاجتهاد ، ورفض التقليد الأعمىٰ الّذي ابتليت به بعض المذاهب الاخرىٰ. ولذا نجد الفكر الإمامي اتصف بالتواصل والاستمرارية والتفاعل ، من خلال إعطاء الفكرة بُعدها الزمني ، وربطها بالرؤية المتجددة ، والّتي تمنحها مقومات القدرة علىٰ الاستمرار والبقاء ، والصمود في وجه التطورات المستحدثة ، الّتي يفرضها الواقع الجديد ، وتألفها الأجيال اللاحقة. لأن الفكر يمكن أن يموت وينتهي متىٰ ما افتقد عملية التجديد ذاتياً وموضوعياً. وقد تفاعل الفكر الإمامي مع الواقع ، علىٰ الرغم من إبعاده عن السلطة والدولة ، ولذا اتسع واستمر فكراً وحركة ، لأن هذا الامتزاج هو الّذي شكل التجديد والاستمرار لقيمه ومبادئه الفكرية ، بخلاف بعض المذاهب الّتي إنطوت علىٰ نفسها ، وأدىٰ انطوائها إلىٰ الجمود الفكري ، علىٰ الرغم من تقربها للسلطة والدولة ووضع الامكانات تحت يد علمائها ، وفقهائها ، الذين خدموا السلطان حتىٰ تسمىٰ بعضهم بقاضي القضاة ، وقاضي الخليفة. ومن هنا نجد الإمامة، عند الإمامية كظاهرة سياسية ، ليست وليدة الحاضر ، وإنما هي امتداد للماضي ، كما ساعدت علىٰ الفهم والإحاطة بالظروف التأريخية ، والسياسية ، والاجتماعية ، الّتي احاطت بهذا الفكر واسهمت بطريقة أو بأخرىٰ ، في تطويره ، وتجديد مفاهيمه ،

---

١ - مجلة قضايا إسلامية معاصرة ص:٤٢ تحت رقم «٢٣» سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، وانظر كتابه الفكر الإسلامي بين التأصيل والتجديد / بيروت ، دار الصفوة ط ١ ١٩٩٤م.

وصياغة نصوصه في فترات زمنية مختلفة، بعد ان تمت الاستعانة بأداة تحليل النص...فعلىٰ الباحث أن يتصف بالمنهج العلمي الّذي يفرض عليه أن يكون موضوعياً ، خاصة عندما يتسم موضوع الدراسة بالحساسية لهذا الطرف أو ذاك. والتجديد في الفكر الإمامي لا يقتصر علىٰ دراسة التغيير ، أو التطوير فقط ، بل هو أعمق من ذلك بكثير هذا أولاً .

وثانياً: لقد تم تقدم الفكر الإمامي في كافة الميادين ، والعلوم علىٰ نظائرهم من الفرق الأُخرىٰ ، بفضل فتح باب الاجتهاد كما قلنا سابقاً. ولذا نراهم أوّل من اسس علم النحو ، علىٰ يدّ أبي الاسود الدؤلي ، المشهور بكنيته ، وهو من كبار التابعين ، وقيل: انه من البدريين ، كما في الاصابة لابن حجر. وهم أوّل من اسس في علم السير ، والتواريخ الإسلامية ، كما يظهر من كتاب عبيد الله بن أبي رافع مولىٰ رسول الله ﷺ والّذي صنفه ، وبدأ بتسمية من شهد من الصحابة مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهم أوّل من وضع علم مغازي النبي ﷺ ، علىٰ يد محمّد بن إسحق المطلبي «ت ١٥١ هـ» ، وهم أوّل من تكلم في مباحث علم الكلام علىٰ يد عيسىٰ بن روضة التابعي مولىٰ بني هاشم ، ثم هم أوّل من ناظر في التشيع علىٰ يد الكميت بن زيد ، الشاعر المعروف ، وهم أوّل من وضع واسس علم الأخلاق في الإسلام علىٰ يد إسماعيل بن مهران بن أبي نصر أبو يعقوب السكوني ، وهذا الخواجه نصير الدين الطوسي ، كبير فلاسفة القرن السابع الهجري ، والفيلسوف الّذي وصل في علم المثلثات إلىٰ درجة كبيرة من التفوق ، حتىٰ اذهل علماء القرن العشرين . ويشير السيد الإمام المجتهد عبد الحسين شرف الدين إلىٰ «أنّ الإمامة أصلٌ عند الشيعة جعلهم أكثر تسيّساً من السنّة». ثم يشير رحمه الله إلىٰ أن السنّة والشيعة جدولان من نهرٍ واحد ، فرّقتهما السياسة وستجمعهما السياسة. وهذا علي زيعور يقول: «أنّ التشيع في جذوره...حركة تعني إعطاء النّفس لله ،

والتضحية بالذات خدمةً للدين وللكعبة ولأهل الله وأهل البيت «الكعبة» [١]. ويرى أن الشيعة «أوّل كتيبة تشهد الحرب وتتهأ للموت»[٢]. أي أن الشيعة هم النّاس المستعدون للاستشهاد والسائرون في مقدّمة الجيش: هم المبايعون على الموت، المضحّون بأنفسهم، هم ضحايا المقرّبة لله، هم مُلك الجماعة لا يملكون ذاتهم. إنّهم الصوفّيون بالمعنى الّذي قلته للصوفي «صفاء»، وهم أصفياء بالمعنى الّذي أقوله لكلمة أصفياء، أي صوفيّون، فالصوفّيون والأصفياء واحد »[٣]. أما الشيعي فهو الّذي أشرط، أي وضع الشرطة / العلامة [٤]. وأما وشيع الله فهم كتيم الله، سرّه. والحال، كيف يرى زيعور إلى استشهاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام من زاوية پسيكولوجيا التورخة؟ يقول: «قدّم الحسين نفسه ضحيةً للدين. فقد خرج يطلبُ الاستشهاد في سبيل قضيَّة رآها إلهيّة. كان يستطيع انقاذ نفسه وجماعته، إلاّ أنّه رفض أنْ يبايع السلطة، فبايع على الموت قرباناً لله أو لقضّية النبي. وهنا نلاحظ أنَّ التشيع هو استشهاد أو هو التخلي عن الذات ونذرها لله أو لأهل بيته عليهم السلام قدّم الحسين نفسه كما يقول الهجويري [٥]. وقدم الحسين روحه فداءَ الشهادة لله »[٦]. وهذه الظاهرة منسجمة ومندرجة في مسلك الفتّوة الّذي سلكه والده علي بن أبي طالب في وقعة أُحد، حيث ظهر شعار «لا فتىٰ إلاّ علي» لقد شهد التشيع نهضة كبرىٰ، لا سيما التشيع الإمامي / البطولي / الاستشهادي / القويم / الّذي صار دين الدولة الإيرانية منذ القرن السادس عشر وهذا نتيجة التجديد والمجدّدين علىٰ رأس

---

١ - التفسير الصوفي للقرآن عند الإمام الصادق ص:٢٢ دار الأندلس، بيروت ١٩٧٨م.

٢ - المصدر السابق ص:٣٨، نقلاً عن الفيروز آبادي ٢: ٣٨١.

٣ - المصدر السابق ص:٥٩.

٤ - لسان العرب لابن منظور، قاموس المحيط.

٥ - الكشف ص:٢٢٧.

٦ - مصدر سابق ص:٤٤.

كل مئة سنة عندالشيعة. ويؤكد الدكتور أحمد أمين المصري بأن الفلسفة كانت بالتشيّع ألصق منها بالتسنن ، ترىٰ ذلك في العهد الفاطمي والبويهي وحتىٰ العصور الأخيرة كانت فارس أكثر الاقطار عناية بدراسة الفلسفة الإسلامية ونشر كتبها[1].

فهذا الشيخ الكليني «ت ٣٢٠ هـ» مجدّد القرن الهجري الرابع .

محمّد بن محمّد النعمان المفيد «ت ٤١٣ هـ» مجدّد القرن الهجري الخامس .

محمّد بن حسن الطبرسي «ت ٥٤٨ هـ» مجدّد القرن الهجري السادس .

محمّد الطوسي «ت ٦٧٢ هـ» مجدّد القرن الهجري السابع.

حسن بن يوسف بن المطهر الحلي «ت ٧٠٦ هـ» مجدّد القرن الهجري الثامن.

محمّد مكّي الشهيد الأول «ت ٧٨٦ هـ» مجدّد القرن الهجري التاسع .

عبد العال الكركي ، العاملي ، المحقق الثاني «ت ٩٤٠ هـ» مجدّد القرن الهجري العاشر. والّذي قامت في بغداد بعهده حركات اجماعية / اقتصادية / انتفاضات شعبية جرىٰ خلالها إحراق الأحياء الشيعية ونهبها وإراقة الدماء. إحراق الحي الشيعي الغني مرتين ، في الكرخ .

محمّد البهائي «ت ١٠٣١ هـ» مجدّد القرن الهجري الحادي عشر.

محمّد تقي المجلسي «ت ١١١١ هـ» مجدّد القرن الهجري الثاني عشر .

محمّد باقر أكمل البهبهاني «ت ١٢٠٨ هـ» مجدّد القرن الهجري الثالث عشر .

محمّد حسن الشيرازي «ت ١٣١٣ هـ» مجدّد القرن الهجري الرابع عشر .

روح الله الموسوي الخميني والشهيد السعيد محمّد باقر الصدر مجدّدا القرن الهجري الخامس عشر .

ولقد دعا السيد محسن الأمين «ت ١٩٥٢ م» العرب والمسلمين إلىٰ الاتحاد لتخليص بلادهم من نير الاستعمار ، وإلىٰ الإقبال علىٰ العلوم العصرية ، إذا راموا

---

١ - نقلاً عن الشهيد مرتضىٰ مطهري في رحاب نهج البلاغة ص:٤٣،دار المعارف .

التقدم والرقي. والنظر إلى الشريعة بمنظار العقل والمنطق لاستنباط الاحكام من مصادرها الأصلية. كما هاجم البدع المستجدة في الإسلام [١]. وهذا السيد عبد الحسن شرف الدين «ت ١٩٥٧ م» الّذي رأى أن الخلاص يكمن في الفهم الصحيح للدين، ويكون ذلك عن طريق التربية الصحيحة والعلم الصحيح حيث قال: «العلم نواة الحضارات ، وهو حظها في القوة والظفر والحياة. وهو نفسه قياسها في التقدم والتأخر والحكم والسيطرة والسعادة والبؤس »[٢].

اتجاهات التورخة الإسلامية:

ويرى الدكتور مهدي فضل الله أن التأريخ الإسلامي منذ بدايته حتى يومنا هذا يتميز بظهور أربعة إتجاهات من التفكير الإسلامي :

الاتجاه الأول: الّذي ينظر إلى الدين نظرة عقلية ، ويرى أن العقل الإنساني يجب أن يكون السلطة العليا عند البحث في المسائل الدينية ، وهو يتمثل في المعتزلة ، وفلاسفة الإسلام والمصلحين المعاصرين إلى حدٍّ ما.

الاتجاه الثاني: الّذي يربط الدين بالإيمان ، والعقل بدون مغالاة ، ويتمثل في الاشاعرة ، والحنابلة ، والغزالي ، والمفكرين المحافظين المعاصرين كسيد قطب ، ومحمّد البهي...إلخ .

الاتجاه الثالث: هو اتجاه أهل الصوفية الذين ينظرون إلى الدين نظرة تأويلية باطنية ، فيرون أن للقرآن باطناً يعبّر عن حقيته بالتمام. ولا يمكن معرفة هذه الحقيقة إلا عن طريق الكشف أو المشاهدة ، وبعد أن يسلك المريد لهذه الحقيقة مسلكاً خاصاً من الحياة ، ويتمثل بأهل الرق الصوفية المختلفة .

---

١ - محسن الامين ، سيرته ، تحقيق حسن الامين .

٢ - الفصول المهمة في تأليف الأمّة .

الاتجاه الرابع: هو اتجاه الملاحدة والعلمانيين ، الذين يرفضون أو ينكرون الدين بعامة ، ولا يرون من صلة بينه وبين الحياة ، ويدعون إلىٰ العمل علىٰ هدىٰ العقل وتحكيمه في كل شيء .

ويمكن أن نرجع جذور هذا الاتجاه إلىٰ القرنيين الثالث والرابع الهجري ، أبّان ازدهار الحضارة الإسلامية والعربية في العصر العباسي ، حيث برز نفر من العلماء يشنون أعنف هجوم علىٰ القرآن بعامة ، وعلىٰ فكرة النبوة بخاصة ، منهم: ابن الراوندي صاحب كتاب «الزمرّدة» ، وأبو بكر الرازي محمّد بن زكريا صاحب كتاب «مخاريق الانبياء». ثم تابعهم بعض العلماء منهم: أحمد بن حابط المعتزلي الّذي قال بالتناسخ ، وبألوهية المسيح ، استناداً إلىٰ القرآن ، وأخذ علىٰ النبي تعدد زيجاته، مما دفع المقريزي «ت ١٤٤٢ هـ» إلىٰ اتهامه بالخروج عن الإسلام. ويتمثل اليوم بكثيرين منهم: صادق جلال العظم ، وخالد محمّد خالد «سابقاً» ، طيب تيزيني ... إلخ[١]. فعلىٰ الأخ الدكتور أن يفرق بين الفكر الشيعي الإمامي الأصيل الّذي نبعت قواعده من مصدر الكتاب والسنة وأئمة أهل البيت عليهم السلام، وبين ما يقوم به بعض المدعين من ذوي العناويين، وأصحاب المؤسسات الدينية باسم الدين والمذهب .

عقل النبوة لا عقل البنوة؟

اننا نطلق نداء المعاقلة العلمية الرامية إلىٰ جعل العقل الإسلامي العربي سيّد نفسه، وليست العقبة المعرفية في عقل المسلم ، كما يتوهم ويزعم المزيّفون باننا بلا عقل ، بلا تاريخ ، بل هي في توظيف عقلنا في سوق معرفيّة توظيفاً لفظياً عاجزاً عن الفعل ، وسيادة المجال بالعمل لا بالكلام. فاننا حين نعطل العقل الذاتي نفسح

---

١ - العقل والشريعة ص: ٨٠.

المجال أمام الآخرين حتىٰ يتمكنوا من استعبادنا موضوعياً ، تأريخياً عقائدياً ، ان مفهوم مدنية العلم وابوابها هو من صميم النظام المعرفي الإسلامي العربي ، لكن المشكلة هي أننا أنبحث عن فكرة عقيدة ، أسطورة؟ أم نبحث عن صراع مع الخرافات والحكايات لا مع عقل انتقادي اعتقادي ، بل اختصر البحث العلمي علىٰ مسائل سطحية ، حنيقة ، ضيقة ، انفصالية ، أقرب شيء إلىٰ الإرهاب والأضطهاد؟ ان التاريخ الحضاري لم يخل بعد ذلك من الأضطهاد بكلّ أنواعه ، الاضطهاد الديني، والاضطهاد العرقي ، وليس اشهر من الحروب الدينية الّتي أغرقت أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطىٰ ، ولم يعرف جزء آخر من العالم درجة من العسف كما عرفتها أسبانيا مثلاً. وفي العالم الإسلامي قامت الحروب الدينية بين المذاهب الإسلامية ذاتها. إن العودة إلىٰ دراسة التأريخ مفيدة ومهمة ، ولكن لكي نستفيد من دروسه ومجمل عبره، لا لكي نعود القهقرىٰ ونحارب. معارك مضىٰ أوانها وتخطاها الزمن ، وكل أُمّة لا بد ان تكون لها ذاكرة ، وإلا انقطعت عن جذورها ، ولكنها ذاكرة تساعدها علىٰ تفهم المستقبل ولا تفارقها في دوامة الماضي. ولذا صار عقلنا عقل موت لا عقل حياة ، لا عقل نقد الّذي هو السبيل الوحيد الّذي يسمح باكتشاف واسطة حلّ في غمرة الأيام الصعبة والعصيبة ، ويصبح الجدل جدل العقول لا جدل الدموع ، ويصبح العقل عقل إسلامي توحيدي، عقل الوحي والوعي ، عقل النبوة لا عقل البنوة ، عقل فقهي لا عقل سلطوي ، عقل النصوص لا عقل اللصوص ، عقل المتون المكتوبة المقعّدة بالبرامج الفكريّة المنسقة الملفوظات والمنطوقات ، أللاتي يتواحد فيها المنصوص والنّاص مع زمانيتّه ومكانيتّه. مع العلم ان النص خطاب عقلي انفتاحي متسع لحوارات كلّ العقول كما ينقل الشيخ المفيد عن الإمام الصادق عليه السلام: «نستطيع أنْ نقدم لكلمة واحدة سبعة

شروح ، بل سبعين شرحاً»[١]. وهذا الحديث يدعو إلىٰ عدم حصر العقل في معقولية، أو معاقلة السلطان، أو الغاء العقول الأُخرىٰ بل محاورتها. لا كما ينظر الجابري في كتابه نقد العقل العربي ولينظر الجابري إلىٰ قوله تعالىٰ :﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[٢]. فالنص هو نص جدلي ، حواري. والنص هو الإظهار والإبانة...سمي المفرش العالي منصّه لأن الجالس عليه يبين بالظهور من الجماعة ، يقال: نصّ فلان مذهبه إذا أظهره وأبانه. شرعاً: حقيقة النص هو القول المنبيء عن المعقول فيه علىٰ سبيل الإظهار» [٣]. ويرىٰ الشيخ المفيد أنّ أوّل ما يجب علىٰ الإنسان هو معرفة الله. وذلك استناداً إلىٰ الحديث المنسوب إلىٰ الإمام الصادق عليه السلام والّذي يقسم فيه العلم إلىٰ أربعة أقسام: «أنّ تعرف ربّك ، أنّ تعرف ما صنع بك ، أنّ تعرف ما أراد منك ، أنّ تعرف مايخرجك عن دينك»[٤].

إنّ عملية الاستدلال العقلي هي سبب بروز العلم والمعرفة ، وإيجاد اليقين المُطمئن في الشخص المستدِل وبالتالي يستطيع الدّفاع عن التّعاليم الأساسيّة المثبّته عن طريق الوحي الإلهي. وهذا الدّور الدّفاعيّ للعقل جليٌّ وواضح .

عقل المعرفة لا عقل المصلحة ؟

إذاً العقل الحيّ موجود في جميع الاحياء ، إنما المشكلة هي في ثقافة العقل فنجد ما يسمىٰ بمثقفين متحجرين، وفقهاء جامدين، بل متجمّدون، وفي مقابل ذلك مثقفون مبدعون متجددون، مثلما هنالك فقهاء مبدعون ومتجددون ، وهذه هي المقارنة السليمة الصحيحة ، لكن مع الأسف لقد تغلب عقل المصلحة علىٰ عقل

---

١ - العيون والمحاسن ١:٢ ط ٤ بيروت / دار الاضواء .

٢ - البقرة:٤٤،آل عمران:٦٥،الانعام:٣٢.

٣ - المصدر السابق.

٤ - نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد بقلم ملرتن مَكدرموت / تعريب عليّ هاشم ص: ١٠٠.

المعرفة ، والعقل اليومي علىٰ العقل التاريخي؟ واصبح الشباب ينظر إلىٰ التراث هو تراث اللامعقول. ولسنا من مؤرخي ومروجي ثقافات وحضارات علىٰ طريقة حفّاري القبور ، فالجدال مازال قائماً ، بتشويهات الجابري ، واركون ، وغليون ، حول كلّ أُمور الماضي ، الميت منها والحيّ فينا. وان عقل الاعتقاد والنقل يتشابك مع عقل التأريخ. ولذا قوي التنازع بين الفقه السياسي والاعتقاد الديني علىٰ الرغم من ان كليهما يسترشد بالعقل العلمي كما يقول خليل أحمد خليل [١]. ومن موقع الخلاف علىٰ السلطة تولد الخلاف الفقهي ولّده ثاقفون لا مثقفون ، فقهاء عصر ، لا فقهاء فقه ، فقهاء مصالح وحيل سياسية، لا فقهاء علم وفلسفة ، فقهاء سلطان لا فقهاء قرآن ، فقهاء مهادنة لا فقهاء معارضة ، فقهاء تلفيقيون ، تلبيسيون ، توليفيون ، يسعون إلىٰ إلباس عقل الدين عباءة التأريخ والفرق والمذاهب، لا فقهاء متأصلون ، مرجعيون ، تراثيون ، متجددون من وحي إلىٰ وعي ، فقهاء العلم المقرون بالعمل الاستشهادي كما قال الإمام الحسين عليه‌السلام: «العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، ومن عمل علم. والعلم يهتف بالعمل فإن أصابه وإلا ارتحل »[٢]. وكما قال الإمام عليّ عليه‌السلام: «قصم ظهري عالم متهتك ، وجاهل متنّسك ، فالجاهل يغشُّ الناس بتنسكه ، والعالم يُنفّر بتهتكه »[٣].

إذاً هنالك عالم وفقيه سلطوي، يخاطب الناس من موقع الحاكم ، وعالم وفقيه محكوم ، وعالم الخلوص لا عالم اللصوص .

بينما هناك قسم ثالث حاول المزج بين القديم ـ الأصالة ، المرجعية ، التجديد للحضارة المعاصرة، كمحمد عبده، وطه حسين في الفترة الأخيرة من حياته

---

١ ـ العقل في الإسلام .

٢ ـ منية المريد / لزين الدين بن عليّبن أحمد العاملي الشامي ص:٧٤.

٣ ـ المصدر السابق ص:٧٥.

و... لكن مع الأسف هذا الخلط في مزجه قد مال إلىٰ الأفكار المستوردة أكثر من أفكار المرجعية المعصومة، بل تهجمهم في الواقع علىٰ المرجعية حتىٰ وصل الأمر ببعض هؤلاء بأنهم قالوا من غير المعقول أن نتحدث الآن عن قضايا زائفة وبالية وأكل عليها الدهر وشرب كقضية الخلافة، وكقضية استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية و... و... إن هذا التبرير لايمكن أن يصح ويقال. فالمسألة ليست استخراج نظريات، بل يعد قولاً خاطئاً وضرباً من اللامعقول لأنها دعوة المتكاسل تماماً الّذي رد خائباً في الامتحان لأنه عزا رسوبه وفشله إلىٰ الآيات القرآنية للإجابة عن الأسئلة الّتي وجهت إليه في الامتحان بينما هو لم يفتح بصره وبصيرته نحو الآيات، بل يبدأ بالضجيج لبعد المسافة بينه وبين فهم الآية لأن الإناء ينضح بما فيه ، لا يفكر بعقله بل يفكر بما قدمت له النظريات الاستشراقية من أوهام وزيف باسم الثقافة والتطور والتقدم والإصلاح والتجديد ، والّذي يميز عنده هو الوهم لا العقل.

تجميل لكل ما هو غربي:

وحتىٰ أقوال الأوربيين نقلوها نقلاً مشوهاً لأنه حول المعقول منها إلىٰ اللامعقول واللامعقول حوله إلىٰ المعقول وإلا كيف تصدر كتب تافهة في العالم الأوربي في حين نجد عليها إقبالاً من قبل هؤلاء بترجمتها ونشرها وتدريسها ، ولكن المفكر والمدقق والمحقق الملتزم بمجرد قراءته لهذه الكتب يجد نفسه مصاباً بالغثيان والاكتئاب والتشاؤم ، فمثلاً عندما تقرأ عن الثورة الفرنسية تقرأ عن العدالة والحرية والإخاء ، ثم يسهب الكاتب في التغيرات الّتي أحدثتها الثورة الفرنسية كالثقافية والعلمية والاجتماعية و... و... ولكنه ينسىٰ أحداث الثورة وخاصة في مجال قتل الآلاف من أبناء الجنس البشري بما فيهم الأبرياء كالأطفال والشيوخ والنساء، بل حتىٰ الحيوانات والأشجار لأن المقصلة الفرنسية لم تجد رحمة في

أبناء الجنس البشري وخير دليل علىٰ قساوتها سجن الباستيل الّذي أصبح مضرب الأمثال. وينسىٰ المفكر الإسلامي ما قدمته المرجعية المعصومة من خلال طرحها لمفهوم العدالة والحرية والإخاء والمساواة، وكذلك احترام الفرد وحريته وتحريمها لقتل النفس المحترمة ، بل إنها لم تترك حتىٰ حقوق الحيوان فضلاً عن الإنسان وهذا لا يعني أننا نتهجم علىٰ الثورة الفرنسية ولسنا في مناهضة أفكارها، بل نريد التنبيه للمنصفين عندما يذكرون ما قدمته الثورة الفرنسية يوجد لها مثيل بل لامقايسة ولامقارنة أصلاً بينها وبين ماقدمته المرجعية المعصومة، لأن الفارق بينهما كالفارق بين النور والظلام، وبين الانفتاح والانغلاق، وبين الجن والإنس ، ولكن نحن تنزلنا جرياً علىٰ العادة في المقارنة من باب الأمثال تضرب ولا تقاس. ألم تكن الحملة الفرنسية بقيادة نابليون سنة «١٧٩٨ م» تعد من مساوىء الثورة الفرنسية. صحيح أن التلاقح الفكري حدث بين الحضارتين المصرية والفرنسية لكن هذا لايبرر ماتركت الثورة الفرنسية من مغالطات وأخطاء وسلبيات لازالت بصماتها علىٰ الشعب المصري المسلم ، والّتي قصدت إليها هذه الحملة ليعرف من لا يعرف أن جوانب الفكر في هذه الحملة الاستعمارية كانت في خدمة المدفع والبارود، بل هي أخطر من ذلك. لقد اخترقت هذ الحملة الأمن القومي المصري والحضاري من خلال الأقليات الدينية الّتي أذكت جذوتها وذلك من خلال إعلان نابليون بونابرت وهو في طريقه إلىٰ غزو مصر عن نيته تجنيد عشرين ألفاً من أبناء الأقليات للاستعانه بهم لضرب التراث والمقاومة الإسلامية بتحويلها نصارىٰ مصر ويهودها إلىٰ بؤرة اختراق ، ولذا دربت الحملة الفرنسية الآلاف من هؤلاء لمشاركة فرنسا في إقامة الإمبراطورية الاستعمارية في الشرق مقابل إيجاد ارض لهم في فلسطين. فأين الانجازات للثورة الفرنسية سواء كانت سياسية ، إدارية ، ديمقراطية ، الّتي يزعم المثقف العربي المتفركن أو الفرنكفونيون الذين يزعمون أن نابليون قد أدخلها مصر. وهذا البابا «أربان الثاني» دعا أمراء الإقطاع وفرسانهم وخطب فيهم قائلاً:

«أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون ، وتتنابذون فيما بينكم. ولكـن ، تـعالوا وحاربوا الكفار – اي المسلمين – يامن تنابذتم اتحدوا...يامن كنتم لصوصاً كونوا الآن جنوداً...تقدموا إلىٰ بيت المقدس...انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحـفظوها لأنفسكم ، فهي تدر سمناً وعسلاً! إنكم إذا انتصرتم علىٰ عـدوكم ورثـتم مـمالك الشرق» [١]. ولذا عندما اقتحمت خيول الغزاة مدينة القدس أبـادت مـن بـها مـن المسلمين ، حتىٰ الذين احتموا ببيوت الله سفكوا دماءهم ، حتىٰ لقد سبحت خيول الصليبيين بدماء الابرياء في مسجد «قبة الصخرة». وقد كتب هؤلاء البرابرة ـ أجداد نابليون بونابرت – إلىٰ البابا الذهبي ـ في فرنسا – يفاخرون بما صنعوا فقالوا: « إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا ، فثق أنه ـ في جامع مسجد قبة الصخرة –كانت خيولنا تغوص إلىٰ ركابها في بحر دماء الشرقيين» [٢].

---

١ – معارك العرب ضد الغزاة ، د. محمّد عمارة ص:٣٥ ط دمشق.

٢ – المصدر السابق.

الآثار العقلانية الشيعية

الآثار العقلانية الشيعية

إن عملية التربية اليوم هي من أخطر العمليات في الحياة ، لأنها لا تعني بالتعليم فقط وفقط ، وإنما تتعدىٰ ذلك إلىٰ التوجيه والإرشاد وغرس القيم والمبادئ فيالنفوس والعقول الّتي توجه الإنسان نحو السمو والرفعة والخير حتىٰ يكون في صف أعلىٰ من صف الملائكة، أو تهبط به هذه الإدراكات والمفاهيم إلىٰ الهاوية والشر والتردي والانحطاط، حتىٰ يكون أنزل درجة من البهائم كما قال تعالىٰ:﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

إذاً التربية للعقل السليم بمعناها الشامل في شؤون الحياة الإنسانية أيضاً تشمل الاهتمام بجسمه وبخلقه، لكي تجعل منه عضواً نافعاً وصالحاً فيالمجتمع. ولذا نجد التربية تختلف بأساليبها باختلاف الأقوام وباختلاف الزمان والمكان ، فلكل قوم أسلوب خاص بهم فيالتربية بما فيها من نظم وعادات وتقاليد وقيم ، وهذا أيضاً يتبع النظام الّذي يكون مبنياً علىٰ التقدم والتأخر الحضاري الّذي ينشأ في نقل التراث من الأسلاف إلىٰ الأحفاد، وما يعتري النقل من حذف وشطب وإضافة وتصحيح وتطوير، لأن التقدم لم يكن ـ كما يدعي بعض ـ محض صدفة ، ولكنه ضرورة من ضرورات الحياة، بل هو جزء من الطبيعة كما قال سبنسر [2]. لقد كانت التربية في العصور الوسطى تربية غير مقصودة بذاتها لأنها كانت تقوم علىٰ المحاكاة والتقليد، لعدم وجود المدارس ولا المعاهد التربوية، بل الأبناء يقلدون

---

١ - الفرقان:٤٤

٢ - الأسس الأجتماعية للتربية د.محمّد لبيب النجيحي ص: ٨٤ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط ١ عام ١٩٦٢م

الآباء، ويتقن الذكور الصغار أعمال الكبار من الرجال، وتتقن البنات أعمال الأمهات لكن التدرج والتطور العلمي والثقافي أدىٰ إلىٰ تراكم الكم الهائل من الرصيد الثقافي رغم مافيه من المساوئ إلىٰ ظهور مؤسسات تعليمية أخذت علىٰ عاتقها نقل التراث من جيل إلىٰ جيل ، كما يظهر الكتاتيب حيث يتبنىٰ الكاتب تلميذه وينظر إليه نظرة الأب إلىٰ ابنه حتىٰ أصبح التلميذ ينتسب إلىٰ أستاذه ويسمىٰ باسمه وكان تعليمه يستند ويعتمد علىٰ الإعادة والتكرار والتقليد [١]. وكان التعليم في مصر يقتصر علىٰ أبناء الطبقة الأرستقراطية من الكهنة وفيهم القضاة والأطباء والمهندسون والكتاب وجباة الضرائب والجنود[٢]. وكانت التربية الأثنية تبقي الطفل حتىٰ سن السابعة في رعاية مرضعته وبعدها يشرف علىٰ مراقبته شخص يسمىٰ «قائد أولاد»، يأخذه إلىٰ مدرسة النحو، أو الموسيقى، أو الرياضة الّتي يكون مكانها إما الشارع العام، أو في الساحات العامة[٣].

أما التربية الأغريقية فقد كان شيخ فلاسفتها «سقراط»، يدعو إلىٰ الفضلية الّتي تحقق في رأيه عن طريق المعرفة فقد قال عبارته المشهورة: «ان المعرفة هي الفضيلة»[٤]. وقد اتبع في تربيته طريقة الحوار والاستجواب والاستزادة من المعرفة ، وكان يجول في الطرقات والأسواق ويناقش كل فرد يلاقيه ، ثم جاء من بعده تلميذه «إفلاطون»، صاحب نظرية «المثل» وقد اتبع عكس طريقة أستاذه ، فكان يتخذ له مكاناً معيناً منعزلاً هادئاً لا يحاور إلا من جاء إليه يسعىٰ من تلاميذه المخلصين [٥]. وكان هدف الأغريق من هذه هو إعداد الفرد إعداداً صالحاً ليكون

---

١ - كتاب كتبوا علىٰ الطين / أدوارد كييرا/ ترجمة د. محمود الأمين ص:١٨١ط٢.

٢ - التربية وطرق التدريس د. صالح عبد العزيز ورفيقيه ١:٢٣دار المعارف بمصر ط٦ عام ١٩٦١م

٣ - تاريخ التربية د.عبدالله عبدالدائم ص:٢٣ط دمشق ١٩٦٠م

٤ - مبادئ الفلسفة د. أ.س .رابوبرت /ترجمة أحمد أمين ص ٧٠ط ٤القاهرة ١٩٣٨

٥ - قصة الفلسفة اليونانية /تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود ص: ١٤١ط٢القاهرة .مصر عام ١٩٣٥م

عضواً نافعاً في المجتمع ، ولذا قال إفلاطون: «ان تربية الفرد ليست غاية لذاتها وإنما هو غاية بالنسبة إلىٰ الغاية الكبرىٰ وهي نجاح المجتمع وسعادته»[١].

أما تربية أرسطو تلميذ إفلاطون والّذي يطلق عـليه لقب «المـعلم الأول»، فكان يدعو طلابه إلىٰ إطاعة القانون، ويبدأ بالتربية البدنية، ثم بتربية النفس غـير العاقلة ، وهذه هي الّتي تسمى بالتربية الخلقية ، ثم بتربية النفس العاقلة وهي الّتي يطلق عليها التربية الفكرية [٢]، الّتي نشأت منها ضرورة تعلم الحرب والسلم وتعتمد علىٰ الخير من خلال مدرسته الّتي كانت تعتمد علىٰ المشي بين تلاميذه وهو يلقي عليهم المحاضرات والدروس التعليمية ولذا سُمِّي أتباعه بالمشائين [٣] .

أما التربية الأسبارطية فكانت تعتمد علىٰ كل فـرد مـن الكـبار أن يكـون مسؤولاً عن تعليم الصغار بغض النظر عن صلة القرابـة بـينهم [٤]. وكـان يـضحي بالتربية الروحية في سبيل التربية الجسدية، لأن هدفها هو إيجاد وتكوين الأبطال ، أي يكون جندياً حربياً خشناً لايملك أي شيء من الثقافة، فأدىٰ ذلك إلىٰ الجهل وغلظة الطباع وإن ساعد علىٰ خلق الشجاعة[٥]. أما التربية الرومانية فهي أقرب إلىٰ التربية الأسبارطية بتكوين جنود مطيعين، لكنها اتخذت شكل الأثينية فـي عـهد الأباطرة حيث جعلوا الروح والجسد فيمرتبة واحدة.

أما التربية الشرقية فكانت تعتمد علىٰ التكرار كما قلنا سابقاً، ولكن بـمزج دروس القراءة بدروس أخلاقية ، وكانت تعتني غاية الاعتناء باللفظ الصحيح وكثرة

---

١ - التربية وطرق التدريس لصالح عبدالعزيز ١:٣٦

٢ - قصة الفلسفة اليونانية ص:٢٦٢.

٣ - المصدر السابق ص:٢١٤.

٤ - الأسس الأجتماعية للتربية ص:٢٤

٥ - تاريخ التربية عبدالله عبدالدائم ص:٢٣ط جامعة دمشق ١٩٦٠م

الشرح ، ويعيد شرحه حتىٰ يصل إلىٰ أربعمئه مرة إن اقتضىٰ الأمر[1].

وقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً وكبيراً فى التربية والتعليم ، وذلك من خلال:

«أ» تربية العقل السليم :

أن المرجعية المعصومة قد اشترطت ذات مرة في إطلاق الأسرىٰ من المشركين في معركة بدر الكبرىٰ من الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا فدية عن أنفسهم أن يعلم كل أسير عشرة من المسلمين. وقالت المرجعية المعصومة: «اطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد». وقالت: «اطلبوا العلم ولو كان في الصين». وقالت: «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء». وانتشرت حلقات الدرس والكتاتيب في المساجد. وأخذ يرسل التلاميذ إلىٰ الكتاتيب منذ السنة الخامسة أو السادسة أو السابعة، ويتعلمون القراءة والكتابة والحساب، والسنن والفرائض، والنحو والعروض وأشعار العرب ، ولكن في الدرجة الأولىٰ يكون الاهتمام بحفظ القرآن الكريم وتربية الجيل الناشئ الاعتماد علىٰ النفس وعلىٰ التحلي بالأخلاق الكريمة ، وكذلك تكون حلقات الدرس تعتمد علىٰ الحوار والمناظرة والمناقشة في الفقه والحديث والتفسير وكذلك الفلسفة والهندسة والجبر والحساب والمنطق ... إلىٰ أن أنشأ الحكم بن عبد الرحمن الناصر مدرسة في القرن الرابع الهجري في قرطبة ، بل أنشأ مدارس تعدادها «٢٧» مدرسة مجانية ، وأنشأ الملك في منتصف القرن الخامس الهجري عدداً من المدارس النظامية وأشهرها المدرسة النظامية في بغداد، والغزالية في دمشق، والصلاحية في القدس، والصالحية بمصر [2]. واخذ الخلفاء يتسابقون في إنشاء المكتبات والمدارس . مثل مكتبة العزيز بالله الفاطمي والّتي تضم مليوناً

---

١ - المصدر السابق ص:١٧.

٢ - موجز تاريخ الحضارة العربية د. الدوري و.د. ناجي معروف ص:١٤١– ١٦٦ط بغداد ١٩٤٩م

وستمئة ألف مجلد مفهرسة ومنظمة[١].

أما التربية الصينية فقد دعا كونفوشيوس إلىٰ الأخلاق العملية، والنفعية القائمة علىٰ سلطة الدولة والأسرة، وعلىٰ منفعة الفرد أيضاً، لأن الصين كانت أغنىٰ بلاد العالم بالمدارس، إلا أن الثقافة فيها كانت ثقافة سطحية. أما في القرون الوسطىٰ فكان هدف التربية هو إعداد الفرسان الذين يغذون النظام الإقطاعي بدماء جديدة ، من سن «السابعة»، يؤخذون إلىٰ القصر بصفة خادم لكنه يتدرب علىٰ الفروسية واستعمال السلاح. وفيها أيضاً يتعلم الفرد شيئاً من الكتابة والقراءة خلال هذه الفترة الّتي تمتد إلىٰ «١٤» سنة ، لأنه يلتحق بأحد الفرسان ليكون مرافقاً له ويطلق عليه لقب سيد ويظل علىٰ هذا الحال «سبع»، سنوات حتىٰ إذا بلغ «الحادية والعشرين» سنة أصبح مؤهلاً للقب فارس[٢]. وبعد انهيار النظام الإقطاعي وظهور الحركات والحكومات القوية في القرن الرابع عشر الميلادي، نشأت مدارس أُوربية تقوم علىٰ الصرامة والعمل المجهد ، ويتألف من الاستظهار والقراءة[٣]. وفي القرن التاسع عشر الّذي أطلق عليه عصر الثورة بظهور عدد من الفلاسفة والمربين، وجاءوا بآراء ونظريات جديدة قلبت المفاهيم بعد تمحيصها ونقدها وصار هدفها إعداد الطفل إعداداً يقدر علىٰ العيش في البيئة بسعادة وسلام ، ولذا نادىٰ المربي السويسري «بستالوتزي»، بتربية الفكر والقلب واليد ... الفكر: ليفكر، والقلب: ليكون عطوفاً حنوناً، واليد: للعمل»[٤]. وقال هذا المربي: «أن التجربة والاختيار لا التقليد والعادات هما أساس عمل التربية والتعليم »[٥]. ودعا المربي الألماني «يوحنا

---

١ - التراث العلمي للحضارة الإسلامية لأحمد فؤاد باشا ص:٣٥.

٢ - دراسات في التعليم الثانوي المقارن د.محمّد جواد رضا ص:١١ط بغداد ١٩٦٢م

٣ - المصدر السابق ص:٥٠.

٤ - أتجاهات وآراء في التربية والتعليم د. جابر عمر ص:٣

٥ - مبادى التربية وتطور التعليم في العراق د. نعيم يوسف صرافة ص:٣٠ط بغداد ١٩٥٦م

هربارت»، إلىٰ ايجاد العلاقة بين علم النفس والتربية وطرائق التدريس.

أما المربي الألماني «فرويل»، فقد دعا إلىٰ الاهتمام بالتربية العملية بدل التربية العلمية والفنية الّتي كانت سائدة ، فأنشأ رياض الأطفال الّتي سميت باسمه والّتي كانت تتخذ اللعب وسيلة من وسائل التربية[1]. ثم قامت في فنلندة حركة «سلودس» عام «١٨٧٠ م» والّتي سارت علىٰ النهج نفسه.

أما الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر فقد اهتم بالتربية العقلية والأخلاقية والجسمية حيث قال: «ينبغي أن نعوّد الأطفال علىٰ أن يقوموا بالتنقيب والبحث من تلقاء أنفسهم ، وأن يخطوا طريقهم بأيديهم ... فالإنسانية لم تتطور إلا عن طريق التعليم الذاتي[2]. ودعت إلىٰ ذلك المربية الايطالية «منتسوري»، الّتي أكدت علىٰ تربية الحواس [3]. ثم جاء دور «جون ديوي»، والّذي مثل المدرسة في نظريته مثل الدولة إلا أنها تختلف في السعة والحجم، وأن عملية التربية ليست عملية إعداد للمستقبل بل إنها عملية حياة. ودعا إلىٰ ربط المدرسة بالمجتمع لأن المدرسة جزء من المجتمع وأنها ينبغي أن تكون مجتمعاً مصغراً مشذباً من الشوائب الّتي نجدها في المجتمع الكبير [4].

«ب» دراسة الأفكار دراسة تحليلية:

ونستخلص من هذا وذاك بعض نتائج التربية والتعليم والأدوار الّتي مرت بها التربية؛ بأن نحذر من الأفكار المستوردة الجامدة الّتي يتقبلها العقل من غير أن يفاد منها وأن تكون دراسة العقل لهذه الأفكار دراسة تحليلية واعية لا دراسة الاقتباس

---

١ - اتجاهات وآراء في التربية ص:١٣

٢ - تاريخ التربية د.عبدالله عبدالدائم ص:٣١

٣ - مبادئ التربية لنعيم صرافة ص:٣٣

٤ - المدرسة والمجتمع ترجمة د. أحمد حسن الرحيم ص:١٦ط بيروت ١٩٦٤م

من المحيط غير الواعي، وأن نعتمد علىٰ أنفسنا ولا نتحول إلىٰ إعادة مخلوقه بيد يديرها من الخارج تحت شعار الألفاظ الرنانة وغرسها في أذهان شبابنا وكأن وسائل المعرفة لاتحصل إلا من الخارج ، ولذا عندما نريد أن نناقش في تراثنا وحضارتنا لم نحفظ من تراث المرجعية إلا الشيء النزر بينما لم نحفظ أيضاً من الأفكار المستوردة إلا التعابير غير الممحصة ، ولذا لا يستطيع الفرد أن يتكلم بوضوح وبطريقة منطقية .

إذاً النظام التعليمي الّذي يبعد الطلاب عن جذورهم الإسلامية ويجعلهم يعيشون علىٰ الازدواج فلا هو بالمسلم السوي ولا هو بالغربي. ولذا نجد أسلمة المعرفة لا بد من إقامتها علىٰ العلاقة الصحيحة بين الإلهي والإنساني في العلوم والمعارف علىٰ وفق منهجية إسلامية رشيدة تلتزم بتعاليم الوحي دون أن تعطل عمل العقل أو تعوق حرية البحث والتفكير .

أما إذا واجهته مشكلة في حياته فإنه يلتجىء إلىٰ نظريات: لويسن ، وديوي ، وثورندايك ، وبلسنركي ... وبالتالي لايعرف كيف يسلك من الأمور الّتي تهديه إلىٰ حل المشكلة ، ولابد أن نعرف كلما كانت قوة تفكير الإنسان عالية وعظيمة وقوية كانت سعادته بأزدياد، لأنه يربط في الاستدلال المنطقي والعقلي في توجيه طبيعة المشكلة الّتي يصادفها أو يعاني منها ، فيقوم عقله بفرز الأمور الإيجابية، وإبعاد الأمور الّتي ليست لها علاقة بالمشكلة ، وبالتالي يضع جدولاً زمنياً لحل المشكلة ، لأنه لا يمكن عزل المعرفة العقلية عن العواطف والرغبات مالم تكن طريقة العزل مدروسة ومثالية أيضاً ، محفوفة بالأمان لأنه إذا لم يجد الأمان سينتهي إلىٰ الإخفاق وعدم الانسجام ، وبالتالي يقبل التبعية لإحساسه بالذنب واللهفة المنفعلة الّتي تجعله يعيش حياة التعاسة ، ويبدأ الشّد والجذب، والنفور بين مايريده هو لنفسه ، ومايريده فرويد مثلاً عندما كتب عن الجانب اللاشعوري من الشخصية والذات، أو الأنا. وما فوق الذات ، أو الأنا الأعلىٰ ، أو كما يقول «سادلر»، بأن ضغط الجماعة الأجتماعي

قد يكون شديداً ولن يستطيع الفرد أن يّكون قد أحسن الاجتهاد في حل مشكلته ، ولذا يشعر بأن الجماعة لا تعتني به ، وهذا مما يؤدي إلىٰ انسحابه منها وينعزل ثم يصرخ بوجه هؤلاء ويقول: «عاملونا معاملة أفراد ناضجين لأننا الآن لسنا أطفالاً».

بينما نجد في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما ، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم»[١]. إن كلاًّ من الشهوة والعقل في كلمة الإمام علّي ﷺ، تجسد أصلاً من الأُصول السلوكية ، فالشهوة تبحث عن الأشباع المطلق العنان، دون أن يخضع للضوابط والمبادئ والقيم الأخلاقية والشرعية والعرفية. أما العقل فهو أيضاً يبحث عن الإشباع ولكن يقيد هذا الإشباع بمبادئ وضوابط ومقررات شرعية كالزواج مثلاً فهنا تحصل عملية الإشباع والجذب. ومن الطرف الثاني تحصل عملية الكبح والردع وفي عملية التجاذب هذه تدخل التقوىٰ الّتي تكون مطية ذلول كما وصفها الإمام علّيﷺ «التقوى: مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها»[٢]. وقد قرر نبي الرحمة مبدأ التجاذب أيضاً بقولهﷺ: «من المداومة علىٰ الخير كراهية الشر»[٣]. يعني أن الجانب العقلي من الممكن أن يأخذ زمام المبادرة محتفظاً بطاقته الأشد قوة حيال الطرف الآخر وهو اللّذة أو الشهوة... وهذا هو نفس تعبير فرويد في تقسيمه للشخصية إلىٰ ثلاثة أقسام (آ) الهو: الّذي اصطلح عليه الإمام علّيﷺ بـ«الشهوة» مع الفارق الكبير بين المصطلحين لأن فرويد يقصد به مجموع الغرائز دون أي قيد وضابط (ب) الأنا: والّذي اصطلح عليه الإمام علّيﷺ العقل والّذي تكون مهمته الوقوف بوجه (الهو) تحت ضوابط ومعايير. (ج) الأنا الأعلىٰ الّذي تكون مهمته

---

١ - الوسائل باب ٩ح٢/جهاد النفس

٢ - نهج البلاغة ٥٤:١٥منشورات الأعلمي.

٣ - بحار الأنوار ١١٧:١كتاب العقل والجهل .

التوفيق بين الطرفين فهو جهاز القيم الّذي يمنع الفرد من تحقق رغباته وشهواته إلا بضوابط معينة، لأن التصادم الّذي يحدث بين اللّذة الشهوية تتصادم مع اللّذة العقلية فالتدريب الّذي قاله رسول الله ﷺ يجسد الطرف الّذي يكون أعلىٰ وأشد فاعلية من الطرف الآخر أو كما عبر الإمام علّي عليه السلام بـ«التقوىٰ» الّتي تكون كمطية ذلول وزمامها بيد فارسها يوجهه كيفما شاء ، عكس نظرية فرويد الّتي تدعي بأن الحصان هو الّذي يوجه الفارس ، وهذه هي أكبر النكبات والانتكاسات الأخلاقية الغربية لأنها تؤدي إلىٰ الخسران والفشل الذريع في الحياة ، ثم يدعي المدعي بأن الحداثة والأصالة والتجديد هي مباني جيدة لأنها مأخوذة من الغرب بينما الإسلام سبق هؤلاء. فالدعوة إلىٰ ترك ونبذ التراث ماهي إلا دعوة باطلة مشبوهة إذا راجعوا النظريات الّتي جاءت بها المرجعية وادعىٰ بأنه صاحب الاكتشاف ، بل الأحرىٰ أنه سرقها من الدين بشكل عام. والأنا قد ذكرها القرآن الكريم وجعلها أداة تمييز وهي أداة فطرية ركبها الواحد القهار والخالق الجبار فيالنفس البشرية كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]. بينما نظرية فرويد وأصحابه فمن سبقه ومن بعده هي قوانين وضعية من صنع البشر وضعوها تحت دراسة معينة بعيدة عن المرجعية المعصومة، وأخضعوها للأعراف والعادات والتقاليد الّتي تنسجم مع ثقافة كل مجتمع، وكم هو الفارق بين القوانين الإلهية والقوانين الوضعية الّتي تفرض علىٰ المجتمع بما فيه الفرد مما يترتب عليها من انتصار الغرائز في نهاية المطاف بحجة الغرائز الفطرية الّتي لم تخضع لأي ضابط من الضوابط العقلية ، ولذا يعزو فرويد وجماعته نشأة العقل البشري وتطوره إلىٰ ماقبل التأريخ لم يصدر من الإنسان إلا تركيبة بسيطة قائمة علىٰ الغرائز «الهو»، يشبعها حيث يشاء لأنه لا توجد ضوابط ومبادئ مقررة ، بل هو أشبه بالحيوان المفترس في إشباع حاجاته

---

١ - الشمس:٦ ـ ٨.

عندما شعر بالذنب، تطور عقله وحرم بعض الأشياء عـندما رأىٰ الاعـتداء عـلىٰ الآخرين بجريمة القتل مثلاً ، وأخـذ يـنسج مـن هـذا الشـعور بـالذنب التـفسير الأسطوري لنظريته وتصحيحها.

الأخلاق والتقدم العلمي

الأخلاق والتقدم العلمي

لايوجد تعارض بين التقدم العلمي والأخلاق ، بل الصلة قوية جداً بينهما ، وليس كما يتصور بعضٌ أن التقدم العلمي يفسد الأخلاق ، بل العكس هو الصحيح ، لأن التقدم العلمي لايحصل إلا بالفكر والعقل. والأخلاق منبعها العلم والعقل لأن العلم يقضي علىٰ الجهل والخرافات والأساطير والعادات السيئة ، ولا أعتقد أن أحداً من المسلمين الملتزمين بالمرجعية المعصومة ينكر ذلك لأنه يجد الآيات والروايات تؤكد هذا الجانب وليس كما يدعي المدعي بأنها تشن هجوماً علىٰ العلم لأنه صادر من الغرب، بل هذه حجة للهجوم علىٰ الدين والمسلمين حتىٰ يتهم الفكر الإسلامي بالنظرة السطحية المتحجرة لأن العلم ازدهر في الغرب. والحضارة الغربية باعدت بين العلم والأخلاق أو بين العلم والدين ، أو أن الحضارة استعملت الأسلحة الفتاكة في قتل البشرية كل هذا من قبيل المغالطات والأوهام ، لأن العلم وسيلة من وسائل نشر الأخلاق عن طريق الكتاب ، الإذاعة ، القمر الصناعي و...و... وهناك فرق كبير بين النظرية العلمية الّتي تطرح علىٰ بساط البحث وبين التطبيق ، فمثلاً النظرية العلمية قد توصلت إلىٰ صناعة الأسلحة العليا كالقنبلة الذرية ، والاكتشاف الذري بحد ذاته جيد ومفيد ، لكن تجار الأسلحة هم الذين أساءوا استخدام هذا الاكتشاف وحولوه من المجال الّذي يؤدي إلىٰ نفع الإنسانية إلىٰ ضررها والعبث بها وبقيمها. كذلك الدراسات الحديثة وخاصة المدنية منها لدراسة حالة الاكتئاب والوسوسة، بل الأمراض الأُخرىٰ ربما لا تجد لها سلماً عن طريق التشخيص العضوي في الجسم الإنساني ولكن نتيجة الدراسة تجد لها وسائل ترفيهية أو علاج نفسي ، حتىٰ في بعض الأحيان أن الأمراض الجسدية كالسرطان ـ والعياذ بالله ـ مثلاً لاتجد له علاجاً عضوياً ، بل العلاج النفسي يساعد المريض علىٰ أن يعيش مدة أكثر ، وهذا

ماصرح به بعض الأطباء الغربيين بأنهم اكتشفوا من خلال تجاربهم أن الفرد المسلم المؤمن بالمرجعية المعصومة يكون أكثر تقبلاً لعلاج هذه الأمراض السرطانية وغيرها لما يمتلك من روحية عالية واعتقاد راسخ بأن روحه لابد في يوم ما ستخرج وتنتقل من هذا العالم الضيق إلىٰ العالم الرحب الواسع ، بل أنه يقدم علىٰ رب رحوم غفور عطوف ، وهذه المسألة أو الظاهرة ليست مختصة بالمسلمين بل عامة لكل من يعتقد أن لهذا الكون خالقاً. ومثل علاج هذا تُعالَجُ السرقة والانحرافات الخلقية ، ويربط التلاحم الأسروي بدل أن يفكك. وتبقىٰ علاقة الأبناء بالآباء والأمهات علاقة وثيقة ، ولذا نجد فرقاً واسعاً بين أخلاق المدينة وأخلاق القرية ، كاحترام الوقت مثلاً ، وكذلك الرابط الأسروي ، وهذا لايعني أننا نفضل أخلاق المدينة علىٰ أخلاق القرية أو بالعكس ، بل نأخذ الأخلاق الجيدة أينما وجدت ، وبما أن المدينة يسودها العلم والقرية يسودها الجهل في بعض الأحيان ، لهذا نفضل الأخلاق المحمودة الّتي تكون في المدينة ، ثم هنالك فرق واضح بين الحضارة وبين المدنية ، فالحضارة تعد في جوهرها أخلاقية ولاتتعارض مع السمو الأخلاقي والروحي. وأما المدنية فقد يصيبها ويعتريها الظلام إذا تحولت مبادئها السامية إلىٰ التخلف والانهيار الأخلاقي والفكري باسم التقدم العلمي ، بل يصيبها الجمود والتحجر إذا ادعت أن التراث الموجود هو تراث الظلم والعدوان وتراث الكتب الصفراء ، لأن في تراث الماضي لتأريخنا نظريات علمية راقية لم تصل إليها أُوربا لحد الآن، لأن حضارتنا تمثل النور لا الظلام، والحركة لا السكون ، وفي تراثنا تلاقح أفكار الآخرين ، كما قلنا سابقاً بأن المرجعية حثت علىٰ طلب العلم ولو كان في الصين ، وإمعان النظر في ملكوت السماوات والأرض ، وأن الفكر في المعقولات لا يتأتىٰ إلا لمن له خبرة بالطبيعيات والرياضيات ، فبعد ذلك تتفتح له عين البصيرة ليرىٰ ما يعجز عن إدراكه. ولذا لانقبل أن يكون هؤلاء أوصياء علينا لأن الإسلام يصرح بأن العقل لا وصاية لأحد عليه ، بل العقل هبة من الله ومنحة

منحها الباري عزوجل للإنسان ولسنا صغاراً أو مجانين حتىٰ يفرض علينا هؤلاء وصاية لأننا لانختلف عنهم ، لأن ليس عملهم أفضل من عملنا وليست عقولهم أفضل من عقولنا ولامانع لدينا من أن نستفيد منهم ويستفيدوا منا ، لأنه لا يمكن لأي أُمّة أن تكون لها حضارة وقواعد وقوانين مدنية إلا بعد أن تتلاحم وتتلاقح أفكارها مع أفكار الآخرين من الأُمّم الأُخرىٰ كماقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهَ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. وليس التعارف بالتحية فقط بل التعارف يشمل كل الميادين ، وليس كما يتصور بعضهم أن المسلم قد بعثر التراث الأصفر جسده وأعضاءه، وهو الأن يحتاج إلىٰ إعادة بناء أو ترميم تحت غطاء الأصالة والتجديد، والغزو الثقافي، والتقدم العلمي الأوربي ، بل حضارتنا هي أرقىٰ الحضارات لأنها حضارة أنجزت بجهود وعقول إنسانية ، إن لم نقل إنها ربانية ، وليست نتاجاً حيوانياً ، لأن الحيوان لم تكن لديه صفة الإبداع ، فالإبداع الحضاري من خصائص ووظائف العقل البشري ، ولسنا كما يدعي المدعي منغلقين علىٰ أنفسنا ، بل نحن أصحاب الحوار الفكري والثقافي والحضاري ، وهذا مادلت عليه الآيات والروايات كماقال تعالىٰ: ﴿فَقُلْ تَعَالَواْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ...﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتي هِي أَحْسَنُ﴾[3].

إننا ندافع عن المرجعية والتراث بكل قوة ولاحدود لهذا الدّفاع ، ولانتردد في قول من يُصدر الأحكام والألفاظ من أناس حشروا أنفسهم في عداد البحث العلمي ويطلقون الأحكام السطحية ، لأن دفاعاً فيه الموضوعية والدقة والعمق من خلال المرجعية المعصومة ، ولو اختلفنا مع الأعداء لا نوجه لهم من خلاله التهم بأسلوب

---

١ - الحجرات:١٣

٢ - آل عمران:٦١

٣ - النحل:١٢٥

الشتم والسباب والّتي تكون هذه الألفاظ أحياناً أكثر من القنابل والقذائف ، وكم يكون الهجوم صادراً عن سوء فهم رغم أنهم يشتغلون بتحقيق التراث الّذي لا يزيد عن كون التعامل مع التراث كالتعامل التجاري وتحويله من الورق الأصفر كما يدعون إلىٰ الورق الأخضر، أو المعدن الأصفر والأبيض ، وليس هذا العمل بأحياءٍ للتراث ، بل هو طمس التراث وحشوه بالنزعة الصوفية، أو الفضفاضة والّتي نجدها عند أكثر دعاة العلم ، ولذا نجد هؤلاء يهاجمون الفكرة بمجرد أنها صدرت من مفكر إسلامي أصيل. إن صفحات الإسلاميين تعد من مفاخر الصفحات في الحياة الفكرية والعقائدية والكلامية ، فهل من المعقول أن ننسىٰ فضل هؤلاء خوفاً من الضجيج والثرثرة والألفاظ الجوفاء الفارغة؟ فالشيخ المفيد، وهشام بن الحكم، وابن رشد، تركوا لنا مصنفات لها أهميتها ، ثم قام المستشرقون بتحقيقها تحقيقاً علمياً ممتازاً ، ولكن عندما حللوها تحليلاً حسب آرائهم وادعوا أن التحقيق كان تحقيقاً عميقاً ، لكن مع الأسف عجزوا عن تقديم الحجة والبيان والإقناع في مناقشاتهم لأفكار هؤلاء ، بل شنوا عليهم الهجوم البعيد عن الموضوعية والمناقشة العقلية العلمية الّتي تستند إلىٰ الأدلة. ومع الأسف الشديد ان كلمة الموضوعية والواقعية والعقلانية ، هذه الكلمات فقدت سمعتها تحت وطأة الإرهاب الفكري الهائل الّذي اخذ طابع: «من لا يتبع الرأي السائد إعلامياً فهو متخاذل»، بل المطلوب هو ترديد الشعارات دون الغوص في اعماقها خشية الفتنة وكأن الجمهور في مراحله الطفولية، ولا بد من ان نشغله بما حوله من الزعيق والصراخ فهي لا تفرح أو لا تصلح إلا لهذه الألقاب النارية الملوّنة! وبالطبع من يزيد في الضجة المتزايدة ، ومن يطلق فرقعات مدوية ملونة اكثر ، هو الّذي يفوز باكبر عدد من المتجمعين في «مدينة الملاهي» الصاخبة. وفي هذا الجو الصاخب فإن كلمة الموضوعية والواقعية والعقلانية لا بد ان تداس بالاقدام ، ولذا حكمنا أنها فقدت بريقها وسمعتها ، حتىٰ اصبح الّذي يؤدي دور الهزيمة والتقاعس والاستسلام يقال عنه انه صاحب موضوعية وواقعية

وعقلانية . ومعنىٰ العقلانية والموضوعية في القرآن ما هي إلا استخدام العقل. فالموضوعية: هي البدء في كل أمر بدراسته، دراسة الموضوع دراسة حقيقية طبيعية. ومعنىٰ الواقعية: هي دراسة الموضوع دراسة واقعية مستندة إلىٰ الواقع لا إلىٰ التمني ، والرضوخ للواقع أمر . وتغييره أمر آخر .

وجاءت النداءات الآلهية عبر المسيرة الطويلة والّتي بدأت بكلمة: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾[1]. أخذت هذه الآيات تعزز التعقل والتفقه و...و...وتعني كلمة «اقرأ»، معانيَ عدة ، تفكَّرْ ، اعقل ، تدبر ، تفقه ، تبصر،...الخ وقال تعالىٰ: ﴿فإذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾[2]. وكم يؤدي دور المنهج في حركة الإنسان الفكرية والحضارة عموماً، وليس هو بالطريق الّذي لايمكن الوصول إليه بل أتيح للعقل البشري أن يحققه وفق مقوماته ومعطياته وإبداعه من خلال التفحص في كتاب الله وسنته وآياته، الّتي يمكن التمعن والتفكر فيها وأراد الله سبحانه وتعالىٰ من خلال هذه الآيات؛ أن ينتقل العقل من المرحلة السطحية إلىٰ المرحلة التركيبية الّتي تمتلك القدرة علىٰ الرؤية السليمة للوصول إلىٰ الهدف الحقيقي المرجو أو من أجل الوصول إلىٰ معجزة الخلق ووحدانية الخالق. ودراسة الأسباب والمسببات لتحث هزة الايمان العميق المتمثل دوماً في اكتشاف الارتباط بين معجزة الخلق ، وبين الخالق. وكذلك دراسة الظواهر من خلال إبداع الخالق وتحكم القوانين والنواميس الّتي تصدر عن إرادة حرّه. وهذا لايتحقق كما قلنا إلابنظرة ورؤية عقلية تعرف كيف تجمع وتقارن، وتختزل وتركب، لأن التأريخ البشري لا يتحرك علىٰ وفق الفوضىٰ

---

١ – العلق ١–٥

٢ – القيامة :١٨ ، وأنظر الإسراء :١٦ ، يونس:٩٤ ، المزمل:٢٠ ، الأعراف:٢٠٤ ، الأعلى:٦ ، محمد:٢٤ ، المؤمنون:٦٨ ، المدثر:٥٥ ، الزخرف:١٣ ، مريم:٦٧ ، الصافات:١٣ ، الأحزاب:٣٤ ، البقرة:٦٣

بل يتحرك وفق المنهجية ، ولايخضع لقانون الصدفة ، فالقانون هو الّذي يحكم التأريخ ، والقرآن هو الّذي أخبر عن هذا القانون كما فيّ قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأُمّم وعلىٰ وجود السنن والنواميس الّتي تخضع لها حركة التأريخ ، ولذا وقع كثير من الباحثين والمؤرخين في خطإٍ فادح لايمكن أغتفاره لهم بأن ابن خلدون هو أوّل من مارس المنهج ، ولاتوجد محاولة قبله أبداً ، وكأن ابن خلدون هو الطفرة النوعية لهذا المنهج ، وفعلاً ان ابن خلدون طفر علىٰ القرآن الكريم وعلىٰ حركة التأريخ الّتي تسير علىٰ وفق السنن الثابته كطفرة الغرائز والأخلاق والفكر والعاطفة. فهذه الأشياء داخلة في صميم التركيب ولم يوجد مخبر كاشف لها غير القرآن الكريم. وحركات الجماعة والسنن التأريخية ليست اعتباطية بل إنها ركبت فيها قوىٰ عقلية وروحية، وإرادة وعزم، لما هو سائد في عالم الحيوان والنبات ولذانجد تحرك الحرية من الغموض المشوش إلىٰ الادراك المبرمج المخطط الّذي يقف به الإنسان أمام الله سبحانه وتعالىٰ ويسأل عنه علىٰ وفق ما وصل إليه عن طريق الأنبياء ، ولكن عندما تنعدم المسؤولية والتخطيط وتذهب القيم الأخلاقية والروحية يأتي الجزاء المساوي لجنس العمل المرتكب ، ولذا ماتت أُمم وجماعات وتدهورت حضارات وانهارت وتفتتت، كما قال تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[1]. وقال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[3]. ولذا أعطىٰ القرآن الكريم للإنسان تلك الجوهرة، ألا وهو العقل حتىٰ يتجاوز الخطأ الّذي أدىٰ إلىٰ هلاك

---

١ - الأحزاب:٦٢.

٢ - فاطر:٤٣.

٣ - الإسراء:٧٧ ، وأنظر الكهف :٥٥ ، الفتح :٢٢.

الجماعة وأن يحسن التعامل مع الكون والطبيعة كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ..﴾[1]. وبهذا أحرز العقل البشري بشكل عام، والعقل الإسلامي بشكل خاص، القيم الّتي تدعوإلىٰ النظر والتبصير بحقيقة الوجود الإنساني وارتباطه بالكون عن طريق النطر الحسي بدءاً بجسمه وانتهاءاً بما تصل إليه النفس، والكون بما لديه من حواس تعمل علىٰ وفق التأمل والتجربة والمعرفة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2]، لأن النداء هنا هو التمعن والنطر إلىٰ مافيه وماحوله كما قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً﴾[3].

ثم ينقلهم القرآن من هذه المرحلة إلىٰ مرحلة أُخرىٰ ، أي إلىٰ المدركات الحسية والسمعية والبصرية، حتىٰ ينتهي إلىٰ البصيرة الّتي تقوم بمسؤوليتها من أجل الوصول إلىٰ الحقيقة في وحدة نواميس الكون والطبيعة كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[4]. ثم يُبتلىٰ الإنسان من خلال تطلعه بالمسؤولية لما يحمله من عقل دون سائر المخلوقات فيعرض للاختبار: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[5]. ثم تتوالىٰ مسؤولياته من خلال التقدم العلمي والمعرفة الّتي يحصل عليها عن طريق العقل واكتشافاته ومعطياته التجريبية عكس الذين جعلهم كالبهائم كما في قوله تعالىٰ :﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ

---

١ - آل عمران:١٣٧ - ١٤١ ، وأنظر الأنعام:٣٤ ، محمّد:١٠ ، السجدة:٢٦ ، الرعد:٦

٢ - الإسراء:٣٦

٣ - عبس :٢٤وأنظر الطارق :٥ ، الأعراف:١٨٥ ، غافر:٨٢ ، الغاشية:١٧ ، المائدة:٧٥ ، الإسراء:٢١ ، الروم:٥٠ ، الأنعام:٩٩ ، العنكبوت:٢٠ ، الأنفال:٢١

٤ - الأنفال:١٠٤

٥ - الإنسان:٢.

وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[١]. وفي آية أخرىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

فهذه الآيات وخاصة هذه الآية دعت الإنسان إلىٰ التفكر والمقايسة والموازنة بينه، وبين فاقد الطاقات الّذي لايبصر ، ولايتدبر ، ولايتفكر بل ولايعقل ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣] وقال تعالىٰ:﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾[٤]. وقال تعالىٰ:﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[٥]. وقال تعالىٰ:﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٦]. وقال تعالىٰ:﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٧]. وقال تعالىٰ:﴿أَفَأَنتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٨]. ولذا نجد القرآن الكريم تارة يمتدح عباد الله الصالحين ويحثهم علىٰ التعقل والفهم. وتارة ينعىٰ علىٰ المهملين عقولهم الذين لايتدبرون ، ولايتفكرون، ولايعقلون. فالعقل نظير الدليل، فلولاه لما أجدىٰ سمع ، ولما أغنىٰ بصر ، فسمع بلا عقل ، هو لحمة صماء ، وبصر بلا عقل، هو جنون مطبق [٩]، بل العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال صلاح

---

١ - محمّد:٢٣.

٢ - البقرة:٢٤٢.

٣ - الأنعام:٥٠

٤ - يس:٦٢.

٥ - الملك:١٠.

٦ - البقرة:١٧١.

٧ - الانفال:٢٢.

٨ - يونس:٤٢.

٩ - المنهج العلمي للاعتقاد لشاكر عبد الجبار ص :٦٣.

الأعمال ، وبه يكمل العلم والعمل [١]. وينسحب هذا المجال علىٰ التفقه والبرهان والجدل كما في قوله تعالىٰ :﴿فَمَا لِهَٰؤُلَآءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[٢] ولذا نجد كلمة العلم وردت كمصطلح للدين وكأن هنالك أشارة إلىٰ القيم الدينية الّتي نزلت من السماء في مقابل الأهواء والظنون والشكوك كماقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٤]، بل أن كلمة العلم وردت في القرآن أكثر من «٧٥٠» مرّة ولذا قال محمّدبن عبد الكريم الشهرستاني: «اعلم أنّ أوّل شبهة وقعت في الخلق شبهة إبليس ، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص ، واختياره الهوىٰ في معارضة الأمر ، واستكباره بالمادة الّتي خلق منها ـ وهي النار ـ علىٰ مادة آدمَ ـ وهي الطّين ـ ! أفبعد هذا الكم الهائل من الآيات ويدعي المدعي بأن المرجعية المعصومة تقف حاجزاً أمام التجديد بل تتهم بأنها صاحبة التراث الأصفر، بل أن كل هذا التقدم المعرفي والتأريخي والمنهجي والتحول الحضاري جاء نتيجة الطاقة والثمرة الّتي زود الله بها الإنسان ألا وهو العقل وليس الحضارة هي الّتي أثرت في العقل، بل أن العقل هو الّذي أثر وأوجد الحضارة. وها هي حضارة الإسلام الخلاقة المبدعة الّتي صاغت الروح والقلب، والعقل والضمير، فلولا المرجعية المعصومة لما كان لها أن تؤثر أو تتحرك بالاتجاه الواسع في العطاء المتنوع. لقد وصل المجتمع الإسلامي في ظلّ المرجعية المعصومة إلىٰ قمة الحضارة، ثم بدأ بعد ذلك في الهبوط والاضمحلال .والسؤال ما الّذي يجعل الحضارات تندثر ويجف فيها ماء الحياة بعد ازدهارها؟ وما الّذي حدث حتىٰ حلّت

---

١ - مجموع فتاوىٰ ابن تيمية ٣٣٨:٣ .

٢ - النساء:٧٨

٣ - البقرة:١١١.

٤ - البقرة:١٢٠

الفوضىٰ محلّ النظام ، والجهل محلّ العلم ، وقيم التخلف والتأخر محلّ قيم التقدم والنور والعمل؟ طبعاً هنالك حضارات قامت ونشأت لكن لم يكتب لها النجاح ، كحضارة الأزتين في أمريكا الجنوبية ، وبعض الحضارات في أفريقيا...وهناك حضارات اندثرت تحت وطأة ضربات خارجية من مجتمعات أقوىٰ منها كما حدث للمغول والتتار الذين دمّروا دولاً ، ولكنهم لم يؤسسوا حضارة. وحضارة الفراعنة اندثرت في مصر القديمة قبل الفتح الإسلامي بل قبل الغزو الروماني ، وحضارة الصين ، وحضارة روما الّتي حكمت العالم قروناً طويلة ، والجواب مختلف فيه :

فبعضهم يشير إلىٰ انتشار القيم المادية ، واختفاء الدين ، وانحلال الأخلاق ، وانتشار الاسلحة الذرية ، وقد تنبأ الفيلسوف الألماني «أوزوالد شبنجلر»، بانهيار الغرب قبل ثلاثين سنة ، مدعياً بأن التأريخ الإنساني ليس خطاً مستقيماً ، ولكنه ذو دورات متعاقبة من النمو والانحلال ، وكل حضارة هي أشبه بإنسان يولد وينمو وينضج ، ثم يشيخ ويذبل ويموت ، ثم تبدأ دورة حضارة أُخرىٰ في مكان آخر من العالم .

إذاً؛ فالذين يحاولون تحطيم حضارات الماضي القديم بأسرها ومحوها محواً ينسون أن تلك الحضارات كان التقدم فيها يمشي علىٰ القدمين معاً ، علىٰ التقدم والابتكار في العلوم العقلية والإنسانية ، وعلىٰ التقدم والابتكار في العلوم التطبيقية ، وكلمة التكنولوجيا كلمة جديدة ، ولكن معناها قديم ، وهو تحويل المعرفة العلمية النظرية إلىٰ نتيجة تطبيقية علمية يستوي فيها اكتشاف النار من الإنسان الأول مع اكتشاف الإلكترون من قبل الإنسان الحديث. وهناك الفزع من حضارة العصر الحديث أو ردّة الفعل بتحدياتها العنيفة ، والجانب القاسي من ملامحها ، ومواجهة ذلك بالهروب إلىٰ الماضي والاستكانة إلىٰ القديم. ولا يمكن لمجتمع يريد الحياة أن يرجع كلّياً إلىٰ الوراء ، ولا يمكن أن يهرب إلىٰ كهف ينام فيه قروناً ثم يصحو ليجد أنَّ الأُمور قد تطوّرت لصالحه. والظروف تتغير باستمرار ولا بد من مواجهة الظروف

الجديدة بحلول جديدة. فإلغاء التأريخ عبث ، والسكنىٰ في مقابره وآثاره انتحار ، ولا بد من الإسراع بإيجاد صيغة تجمع بين القدرة علىٰ استيعاب التراث ومواجهة المستقبل. وهذا لن يكون إلا بمعاملة التراث معاملة انتقائية لا معاملة اكتفائية وانكفائية ، والتوجه إلىٰ المستقبل بكل شجاعة وليس بخوف وتردد واتقاء ، ولذا فالحضارة الجديدة لا بد ان تتم وتقوم علىٰ أساس من التقدم السابق علىٰ العلوم الإنسانية والعلوم التطبيقية أو التكنولوجيا علىٰ حدّ السواء ، إن الحضارة كلٌّ لا يتجزأ ، إنها تربة واحدة تنتج زهوراً مختلفة ، لكنها متسقة متكاملة ، إنها مجموعة قيم بخيرها وشرّها ، يفلسفها الفكر وترعاها العلوم الاجتماعية ، وتدعمها العلوم التكنولوجية . وعلىٰ هذا فإن المرجعية تحترم المرجعيات الّتي سبقتها أو عاصرتها بما تحمل من تراث مادام هذا التراث يتضمن جانباً من الحكمة الّتي يتحرق العقل البشري لمعرفتها والوصول إليها ، لكنها في الوقت نفسه ترفض المقاييس والموازين غير العادلة والّتي يمكن تمريرها من خلال المصطلحات الحضارية أو التقدمية أو... أو... وهذا الرفض لايعني التحجر والانغلاق كما يدعي المدعي ، بل الرفض نتيجة طبيعية عقلية عقلائية لما تحمل المرجعية من أفكار عقائدية صحيحة سليمة ، فخوفاً من تسرب بعض الأفكار وعقائد الحضارات الأُخرىٰ إلىٰ الرؤية الدينية فتصبح عناصر وأجسام غريبة لاتنسجم مع أفكار المرجعية المعصومة وبالتالي تشكل الحركة. فكل الحضارات العالمية وتراث الجماعات هي حقول مفتوحة أمام العقل البشري. ولذا نجده يأخذ ويرفض، ويمحص وينتقي، ويعزل ويستبعد ويقرب، فهو يتجول في الحدائق الرائعة ذات الأطراف الشاسعة فيقتطف منها مايلائم روحه وبدنه وحياته ووجدانه ويزيده قوة وحيوية ، ويطرد الجراثيم والأمراض ، كمايصول مبضع الطبيب الماهر في بدن الإنسان، ويستأصل ويقطع الدم الأزرق الفاسد ، أو كما يتجول حارس البستان فيقطف الثمار الجيدة ويقدمها لمالك البستان، أو المجتمع ويقطع ويزيل الفاكهة والثمرة الفاسدة وغير الناضجة، الّتي لاتنفع، بل

تقديمها إلىٰ المالك أو المجتمع يؤدي إلىٰ ضررهما.

إن المرحلة الّتي غلب عليها الفتور والتقليد والاكتفاء بإعادة العرض واجترار الماضي هذا الحكم نابع في حدود ماتكشف عنه المعلومات ، ولذا نجد من يتهم الجمود والتقوقع في الفكر الإسلامي بوجه عام خلال القرنين العاشر والحادي عشر حتىٰ ظهرت بعد ذلك كما يتصور بعضٌ الهزة العنيفة والحداثة في أسلوب الحواشي والتقارير والشروحات علىٰ المؤلفات القديمة ، هذا أسلوب ميرزخان، والسيالكوتي، والخيالي، والعصام، وهم من رجال هذه الفترة الزمنية الذين ماتزال تدرس حواشيهم في الجامعات الدينية. ولم يكن هذا في الوسط السني فحسب، بل في الوسط الشيعي أيضاً. وقد خيم الخمول الفكري والسياسي والاقتصادي كما أن التحدي الثقافي الّذي مثلته المدرسة الغربية بما جاء في ركابها من نهج وضعي في التفكير ونظرة علمانية إلىٰ شؤون الدولة والمجتمع والتبشير بالدين المسيحي ، هذا التحدي لم تتضح صورته إلا بعد مرور فترة معينة من الزمن وذلك بعد أن ران علىٰ العقل الإسلامي والحياة الإسلامية من جمود وخمول وتقوقع وأخذ كل مالدىٰ المسلمين من حضارة وثقافة واكتشافات ، وبعد أن كان زمام القيادة والريادة بيد الإسلاميين، تحول زمام هذه الأمور إلىٰ الغربيين وأخذوا يحكمون الحصار علىٰ العالم الإسلامي نفسه، ويحتلون أكثر أجزائه عسكرياً ، وفرضوا عليه بطرق مختلفة فكرهم وأنظمتهم الجيدة في رأيهم ولكن في الواقع هي أفكار مشوشة ومشبوهة ، ومن هنا ظهرت الهجمة الشرسة علىٰ الثقافة الإسلامية مما دفعت العقل الإسلامي أن يتململ من واقعه البائس العقيم ويستوحي ماضيه القديم مما جعل بعض المفكرين يدعو إلىٰ الأصلاح والرجوع إلى الكتاب والسنة المطهرة كالأفغاني ومحمّد عبده ، وإقبال، وصدر الدين الشيرازي ، وبدأت الاستجابة لهذه الدعوة تعطي ثمارها المتنوعة في الفكر الحديث والمعاصر لكن رغم ذلك نشب صراع حاد في الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي والّتي لاتزال آثاره باقية حتىٰ اليوم نتيجة

الثقافة الغربية والغازية والوافدة، وما جاءت به من منهج وضعي في التفكير ونظرة علمانية إلىٰ شؤون الدولة والمجتمع ، فظهر التطرف عند الإسماعيلية، والصوفية والبابية والبهائية، والقاديانية، والأكبرية، والوهابية، والمجسمة، والمشبهة و...و...وقد أدت الكشوفات المادية إلىٰ ضغوط وردود فعل قوية ومتنوعة وشديدة تتراوح بين الخضوع النسبي لتلك المؤثرات ومحاولة عرض المواريث الإسلامية بأسلوب دفاعي لكن انهزامي ورفض مطلق. وهنالك محاولة في مقابل ذلك هي استيعاب العناصر الصالحة من الفكر الوافد ورفض الفاسد منها في نظرة نقدية تحاول التحرر من كلا الموقفين ، ولذا نجد جمال الدين يواجه اللوثة الفكرية المادية الّتي انتشرت في الشرق بكتابه «الرد علىٰ الدهرية»، وكذلك محمّد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية أمام العلم والدين»، والسيد أحمد خان في كتابه «تفسير القرآن»، بما يوافق الأفكار الوضعية الجديدة الّتي تخرج عن كل منهج تفسيري بل هو تفسير لآراء الكاثوليكية المسيحية فحرف الكلم عن مواضعه، وبدل ماأنزل الله ، وقد عمل في هذا التفسير مدة«١٥» سنة أي من سنة ١٨٨٠ ـ ١٨٩٥م والّذي انتهىٰ فيه إلىٰ سورة الكهف[١]. فطبق كل آيات القرآن علىٰ أساس طبيعي مما يناقض تماماً القول بالمعجزات وخوارق العادات، ولهذا جعل «النبوة» غاية تحصل وتكتسب عن طريق الرياضة النفسية ، فهي غاية إنسانية طبيعية وطريقها طريق إنساني غير خارق للعادة! ولكنه مع ذلك يقر ختم الرسالة الإلهية ببعثة المصطفىٰ ﷺ[٢]، وهناك كتب محمّد إقبال في تجديد الفكر الديني في الإسلام ، والشيخ رفاعة الطهطاوي «١٨٠١ - ١٨٧٣م »، وخاصة كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ، الّذي

---

١ - انظر الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمّد البهي:٤٢ هامش رقم طـ٧ دارالفكر.

٢ - المصدر السابق:٤٤

يظهر فية إعجابه بالديموقراطية الفرنسية والأوربية بعامة ، يقسم الناس علىٰ أساس تحضرهم وتمدنهم ، وليس علىٰ أساس عقائدهم ودياناتهم ، أو إيمانهم وكفرهم ، فيرىٰ أن الناس ثلاث مراتب :

المرتبة الأولىٰ: مرتبة الجهلة المتوحشين .

المرتبة الثانية: مرتبة البرابرة الخشنين ، ويدخل فيها معظم الشعوب الإسلامية الّتي لا تعرف من شرع الله غير الحلال والحرام...

المرتبة الثالثة: مرتبة أهل التحضر والتمدن ، والأدب ، والفكر ، والعقل. وهي مرتبة أرباب العلوم والصناعات ، والشرائع ، والسياسات ، والعمران ، والتجارات[١].

لكن رغم كل ذلك لم تسلم هذه الكتب من التأثير بالقيم الجديدة الناجمة عن نظرية التطور ، فهذه النزعة العقلية الاعتزالية ـ إن صح التعبير ـ لو أسست علىٰ منهج العودة إلىٰ المرجعية المعصومة لكان جديراً بها أن تنهض بالأُمّة ولذا نجد الشيخ مصطفىٰ صبري العالم التركي يؤلف كتاباً ويعنونه بعنوان كبير جداً «موقف العقل والعلم والعالم من الله رب العالمين»، لكنه يجمع بين مؤثرات الماتريدية والأشعرية...وبقي الفكر الماتريدي يصول ويجول في الساحة وخاصة علىٰ يد العالم الشيخ محمّد زاهد الكوثراني، والشيخ شبلي النعماني، الّذي كان معاصراً للشيخ ولي الله الدهلوي.

ونحن بدورنا ندعو إلىٰ نتيجة الدراسات الّتي تتعلق بتنظيم المجتمع، وفلسفة الحكم، والتطور الثقافي والعلمي، أن يعمل التيار الأصيل للفكر الإسلامي بأن تكون منطلقه من الكتاب والسنة النبوية. وأن يستهدي المفكر الإسلامي بقواعد علم أُصول الفقه وفهمه فهماً صحيحاً، وتفسيره تفسيراً من خلال التقاليد العريقة لعلماء

---

١ - العقل والشريعة د. مهدي فضل الله ص:٥٥ ، الفكر العربي في مئة سنة ص:٤١٣ ، رفاعة الطهطاوي لحسن فوزي النجار.

السلف الصالح منذ العصر الأول لصدر الإسلام ومابعده من العصور الزاهرة من حضارة المسلمين ، وأن لايغفل المفكر والكاتب الإسلامي الّذي يدعو إلىٰ التجديد والحداثة تراث الأئمة ، وأن يختار الخطاب المؤثر في المجتمع ، ويحذر من إحياء الفرق الغالية ، والغزو الثقافي الأُوربي ، وأن يبشر بنظام عالمي إسلامي تنعم فيه الإنسانية ببركات المرجعية المعصومة ، لأن المنهج الّذي يتخذه هو جزء من شخصيته ، وأس من أسس استقلاله وتفرده عن غيره ، وإن اشتركت بعض المناهج ، أو تقاربت في موضوع فإنه لابد أن يتمايز بوجه ما ، سواء من حيثُ الحيثيةُ ، أو من حيثُ أظهارُ الشخصية للمنهج الإسلامي بشكل واضح وصريح ، ولذا خاض رجال الفلسفة والدراسات العقلية حرباً كلامية ضد الاتجاهات الفكرية والعقائدية المخالفة للإسلام عندما اختلطوا واحتكوا بأبناء الملل والديانات ، والثقافات الأُخرىٰ ، فكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك الأثر علىٰ مناهجهم ، وأساليبهم ، سواء بالرفض أو التبني . وهكذا بدأت الدراسات والبحوث الكلامية ، تعتمد علىٰ العقل والنقل معاً ، وإن كانت النتائج لاتعتمد أحكامها النهائية إلا إذا صدق عليها الشرع. وهذا التراوح في الجملة بين قطبي العقل والنقل يتفاوت في مدىٰ الاعتماد علىٰ كل منهما أو عليهما معاً حسب طبيعة كل مدرسة وظرفها الخاص ولذا نرىٰ المدرسة الماتريدية ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، تقرر أن الدليل العقلي مقبول في مسائل العقيدة، إلىٰ جانب الدليل السمعي ، وأن المعارف الكلامية ، تستمد من العقل ومن النقل. وبهذا يقول الشيخ الطوسي «ت ٦٧٢ هـ» في تجريد الاعتقاد: «...وملزوم العلم دليل ، والظن أمارة ، ووسائطه عقليه ومركبة لاستحالة الدور ، وقد يفيد اللفظي القطع. ويجب تأويله عند التعارض »[١]. وقد عرض الشيخ الطوسي العلاقة بين

---

١ - ص:١٣١، وقد استفدنا في رد هذه التراهات من كتاب الفقيه البارع السيد حسين مرتضىٰ النقوي الذي هو بعنوان «عقل وعلم» والذي ترجم لنا من اللغة الأُردية إلىٰ اللغة العربية من قبل احد الطلاب الباكستانين.

الدليلين السمعي والعقلي وأخذه بالتقسيم الثلاثي لمسائل علم الكلام »[١]. وقد أبدع المسلمون في العلوم ولذا نجد الكندي «ت ٢٥٢ هـ» أوّل الفلاسفة من المسلمين قد ألف رسالته المشهورة في حدود الأشياء ورسومها والّتي نشرها الدكتور أبو ريدة [٢] وتحتوي هذه الرسالة على مئة تعريف لحقائق منطقية ورياضية وطبيعية وميتافيزيقية وخلقية وغيرها وهي أوّل قاموس وصل إلينا للمصطلحات الفلسفية. وكذلك كتاب الحروف للفارابي[٣] الّذي درس فيه مشكلات اللّغة الفلسفية وكيفية صوغ المصطلح الفني بعامة والفلسفي بخاصة. وكذلك رسائل اخوان الصفا وخاصة رسالة الحدود والرسم[٤] وهذه الرسالة تعبر عن المذهب الإسماعيلي ممزوجاً بالفلسفة الإغريقية وغيرها من العناصر الفكرية. وهناك رسالة الحدود للشيخ الرئيس ابن سينا[٥] والّتي تضم قرابة خمسة وسبعين حداً.. ثم يأتي دور أبي حاتم الرازي الإسماعيلي«٣٢٢ هـ» في كتابه الزينة وهو أوّل مصنف وصل إلينا في المصطلحات الكلامية وهو أقدم كتاب في المصطلح العلمي بوجه عام بعد كتاب الكندي» [٦]. وهناك كتاب الحدود في الأُصول لابن فورك «ت ٤٠٦ هـ» وهو أحد متكلمي الأشاعرة ضم مصطلحات أُصول الفقه.

أما كتاب الشريف المرتضى «ت ٤٣٦ هـ»[٧] وهو كتاب الحدود والحقائق

---

١ - تلخيص المحصل :٣٢.

٢ - رسائل الكندي الفلسفية ١:١٦٣

٣ - أنظر الكتاب تحقيق الدكتور محسن مهدي

٤ - نشرها الدكتور عبداللطيف العبد ضمن كتابه الحدود في ثلاث رسائل.

٥ - رسالة الحدود للشيخ الرئيس ابن سينا نشر عبد الله الماجد / بيروت .

٦ - نشرها الدكتور حسين فضل الله الهمداني أستاذ الفارسية بدار العلوم في القاهرة ١٩٥٧م عن دار الكتاب العربي مع مقدمة لعميد الكلية الدكتور إبراهيم أنيس مطبعة الرسالة

٧ - تحقيق الأستاذ يزوه والعلامة المرحوم عبدالعزيز الطباطبائي بمناسبة الذكرى الألفيه للشيخ الطوسي

فقد اهتم بشكل خاص بالمصطلح الكلامي وهو متقدم من الناحية الزمنية ويتسم بالدقة والإيجاز.

وهناك كتاب المقدمة للألفاظ المتداولة بين المتكلمين للشيخ الطوسي « ٣٦٠ هـ »[١]. وهناك كتاب رسالة الحدود والحقائق للآبـي[٢]. ومـيزة هـذا الكـتاب هـو مختصر علىٰ مصطلحات المتكلمين من الاثني عشرية الّتي حققها الدكتور حسين محفوظ وتمتاز بالدقة والإيجاز وتحفظه من بعض المفاهيم الاعـتزاليـة ، وهـناك كتاب الحدود للإمام غزالي «ت ٥٠٥ هـ».

---

١ - تحقيق الأُستاذ محمّد تقي دانش پزوه نشر ضمن المجلد الثاني من كتاب الألفية للشيخ الطوسي/جامعة طهران ١٣٩٢.

٢ - تقديم الدكتور حسين محفوظ ص:٣/ط المعارف بغداد ١٩٧٠م

الإسلام

يتوهج

الإسلام يتوهج

«أ» أثر الإسلام على الفكر اليهودي:

إن النظام الإسلامي نظام عالمي يستوعب جميع الجوانب ، ونظرياته شمولية لا مثيل لها فيما توصلت إليه البشرية لحد الأن ، وإن رسالة النبي محمّدﷺ ليست مختصة بمجتمع دون آخر، وبقوم دون قوم، بدليل قوله تعالىٰ :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[1]. وقوله تعالىٰ :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]. إلىٰ غير ذلك من الآيات والروايات الدالة علىٰ عالمية الشريعة الإسلامية وعالمية الدين الإسلامي بروحه ومعانيه وأهدافه وقوانينه، لأنه لم يتلوث بإخطاء البشر ، بل جاء التحفظ والحفاظ والحفظ من الله تعالىٰ كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]. ولذا عندما انتشر الإسلام وظهر أحس اليهود بالأمن والأسقرار وشعروا بأن الكتب الّتي بأيديهم تعبر عن عقائدهم بطريقة ساذجة غير سليمة ومستقيمة مع العقول ، فمثلاً الكتاب الّذي كان عندهم في عصر الرسولﷺ والمسمى «شي أركوما»، الّذي معناه تقدير أو تخمين طول القامة ، ويصور الخالق بصورة مخلوق ضخم هائل بشكل إنساني[4]. وهنا لجأ اليهود إلىٰ الدّفاع عن عقائدهم ، وقد ظهر عنان بن داود في بغداد في منتصف القرن الثامن الميلادي

---

١ - سبأ:٢٨

٢ - الأنبياء:١٠٧

٣ - الحجر:٩

٤ - موسوعة الدين والأخلاق ص:٢٩٦«thealegy»

«٧٦٠» أو بعدها ببضع سنوات [١] داعياً إلىٰ استخدام العقل في البحوث العلمية . ويقول النشار «ولكن الفكر المعتزلي مالبث أن نفذ إلىٰ رجال هذه المدرسة وظهر أحد علماء اليهود في عهد أبي جعفر المنصور يبشر بحركة عقلية جديدة وهو عنان ابن داود وينشئ فريقاً جديداً مقابلاً للربانيين ، وهو فريق القرائين ، وقد أعلن عنان الثورة علىٰ الربانيين كما ادعىٰ استخدام العقل ومبدأ البحث الحر.[٢] ومثل ذلك قال شلترز [٣] وكنتيجة لهذا الاحتكاك بين اليهود والمسلمين اعتنق عدد كبير من اليهود الإسلام ، فرأىٰ الكنسي والربانيون أن يدافعوا عن دينهم بطريق الجدل العقلي ، وفي مقابل ذلك استخدم المسلمون المناهج والأدلة العقلية في إثبات عقائدهم وإبطال عقائد اليهود ، فاضطر اليهود إلىٰ تغيير التوراة والتلمود ليدافعوا عن دينهم وعقائدهم[٤].

وعندما لجأ اليهود إلىٰ الإسكندرية وكونوا جالية غنية ، أقبل اليهود علىٰ الثقافة اليونانية فتذوقوها وتأثروا بها.[٥] وعندما أمر بطليموس فيلادلف ـ ملك مصر ـ بترجمة التوراة إلىٰ اليونانية وهيالترجمة السبعينية الّتي تمت في سنتي «٢٨٢ ـ ٢٨٣ ق.م» علىٰ يد اثنين وسبعين فقيهاً ـ إن صح التعبير ـ من يهود مصر [٦] فنسيَ معظم اليهود العبرية وأخذوايتكلمون ويكتبون باليونانية. وأخذوا يرفعون دينهم عن طريق اليونان [٧]، بما فيه من التشبيهات المادية الغليظة والعبارات الحشوية ، لكن

---

١ - الفكر اليهودي ص:٢٣٩

٢ - المصدر السابق ص:١٧.

٣ - المصدر السابق ص:٣٤٨.

٤ - شلترز ص:٣٧٥

٥ - الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية ص:٧

٦ - الدكتور وافي في كتابه اليهودية ص:١٩،وشلترز ص:٢٠٠

٧ - الموسوعة اليهودية ٤٢٤:١٣

هذا جعل اليونان يبتعدون عنها[١] وهنا اضطر اليهود إلىٰ شرح توراتهم شرحاً رمزياً، فعكف أرستيبولس الّذي سمي بـ«أوّل متفلسف يهودي» [٢]. وقد أولوا التوراة للتوفيق بينها وبين الفلسفة اليونانية ، ثم شهد القرن الأول ق. م كتاباً يهودياً بأسم حكمة سليمان، نجد فيه آثار الحكمة اليونانية الممتزجة بالعقائد الشرقية. وصاحب هذا الكتاب استعار فكرة «اللوجوس من الرواقية»، وأدخلها في اليهودية...وقد حاول ابن ميمون التوفيق بين الدين والفلسفة [٣]، وفي محاولته هذه أعتمد علىٰ فلاسفة المسلمين مثل الفارابي وابن سينا.[٤] وانتقلت حركة الترجمة العلمية من طور الترجمة واستيعاب العلوم إلىٰ طور التأليف والابتكار. ولذا قال «أباإيبان» وزير خارجية إسرائيل السابق ، وأستاذ التأريخ والأدب العربي السابق يقول في آخر كتاب له «شعبي»، إن اليهود عرفوا خلال تأريخهم مرحلتين ذهبيتين: الأولىٰ في الأندلس العربي الإسلامي. أيام ظهر ابن ميمون اليهودي وغيره ، وأن تسعة أعشار التراث اليهودي مكتوب باللّغة العربية ، والثانية: هي حياة اليهود اليوم في الولايات المتحدة الامريكية ، فإننا نجد مراحل ضاقت فيها حلقة الفكر علىٰ المسلمين أوّلاً ونزل الظلم والتزييف بالمسلمين العرب قبل غيرهم.

«ب» أثر الإسلام علىٰ الفكر النصراني :

ظهرت المسيحية بعد أن ورثت العهد القديم، أو التوراة من اليهود وأضافت عدة من الكتب الأُخرىٰ والرسائل فصار الكتاب المقدس في أيدي المسيحية يشتمل علىٰ العهدين القديم والجديد ، ولكن عدم التناسق في العهد القديم أدىٰ

---

١ - الفكر اليهودي ص:٨

٢ - الموسوعة اليهودية ٢٤٥:١٣ ، وشلترز ص:٣٠٢.

٣ - شلترز ص:٣٩٨

٤ - المصدر السابق ص:٣٩٣.

باليهود مثل فيلون إلىٰ محاولة التفلسف والعمل علىٰ تعقيل النص وتفسيره رمزياً للتوفيق بينه وبين ما يقبله العقل السليم ، وقد عانت المسيحية نفس الشيء إذ أضافوا إلىٰ الكتاب المقدس مجموعات أُخرىٰ ، ونتيجة عدم التناسق في الكتاب المقدس ، فواجهت المسيحية مجموعة العقائد المعقدة كالتثليث والذنب والكفارة الّتي لايستوعبها العقل ولايفهمها بسهولة لأنها مأخوذة من الفلسفة الرواقية والوثنية والرومانية والأفلاطونية الحديثة [١]. وهنا بدأ التفلسف و...وظهرت حركة الآباء الّتي كانت بوادرها في الإسكندرية بظهور مدرستين يرأسهما كلمنت «clement»، واوريجين «origen»، و «antioch»، و «enphraem»، وازدهرت حركة الآباء في الشرق والغرب معاً ، ودافع الآباء عن العقائد المسيحية بالأدلة العقلية وشرحوا الكتاب المقدس شرحاً عقلياً معتمدين علىٰ السر المسيحي والأسرار الرمزية للكتاب المقدس ... وحين ظهر الإسلام ازدهرت الثقافة نتيجة الاحتكاك بين المسلمين والمسيحين في بلاد الشام حيث كانت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية حاضرة في أقطار الشرق الأوسط والأدنىٰ بمظهرها الملكي تستخدم اللّغة اليونانية أولاً، واللّغة العربية بعد ذلك ، وقد كان القديس يوحنا الدمشقي وثيق الصلة بالعالم الإسلامي[٢]، ولذا نجد الباحثَيْنِ المعاصرَيْنِ يقولان: بأن الأكويني لا يتردد في أخذ الكثير من عناصر أدواته الصناعية عن ابن سينا وعن ابن رشد خاصة [٣].

ومازالت المسيحية ، وخاصة الكنيسة تحرض العلماء علىٰ أن يقلدوا الأكويني في أفكاره اللاهوتيه كما هو واضح من كلام البابا بولس السادس الّذي ألقاه في عام «١٩٧٤ م» والّذي يقول فيه: «بأن توما إسوة لعلماء اللاهوت».[٤] ثم

---

١ - موسوعة الدين ص:٤٥٦مادة «christiantheology»

٢ - فلسفة الفكر الديني٢:٣٢

٣ - المصدر السابق ٢:٤٢٤.

٤ - موسوعة الدين ص:٤٩٠

ظهرت الحركة الإصلاحية عند المسيحية بظهور «مارتن لوثر» في القرن السادس عشر والّتي دعا فيها إلىٰ إصلاح العقيدة المسيحية وبالتالي إلىٰ إصلاح اللاهوت المسيحي كرد فعل علىٰ التيار التومستي الأرسطي وحمل علىٰ استخدام الفلسفة الأرسطية وعلىٰ المدرسة كلها وبالتالي علىٰ الكنيسة وسلطتها[١].

ومن هذا وذاك نستنتج أن كل عقيدة دينية تحملها الدواعي والأسباب المختلفة ، سواء كانت من داخلها أو من خارجها علىٰ أنْ تتخذ شكلاً كلامياً يختص بها لكي تواجه التحديات والصعوبات الّتي تواجهها ، كما أن هذه التحديات والصعوبات تختلف من حالة إلىٰ أُخرىٰ. ويلاحظ الباحث المقارن لأطوار الفكر الديني أن المسيحية قد عانت من الفكر الغنوصي، والتراث الوثني، والبيئة الرومانية الأغريقية، كذلك الصعوبات الّتي نشأت في الفكر الإسلامي بسبب المنطق اليوناني وبعض الأفكار الفلسفية الأغريقية، والهلينستيه، والّتي لا تخفىٰ علىٰ أحد من الباحثين ، ولكن المرجعية المعصومة قد خططت وحفظت لنا الأُصول العقائدية مما جعل الفكر المسيحي المعاصر هو الّذي تأثر بالمرجعية المعصومة وليس العكس ، كما يدعي المدعي ، وأن مجرد الشبهات العابرة بينهما لاتكفي أن تتهم المرجعية المعصومة بأنها تأثرت بالفكر المسيحي ، إذ قد يكون مرد ذلك إلىٰ طبيعة العقل البشري نفسه ، أو تشابه الظروف ، فمثلاً الإسلام الّذي ترعرع في الغرب قد أتىٰ ثماره في قرطبة ، فعلىٰ صعيد الفلسفة بدءً بابن باجة، ومروراً بابن الطفيل، وابن رشد، بالنسبة للمسلمين. ومن ابن غابرول إلىٰ الميموني بالنسبة إلىٰ الفكر اليهودي ولكن ضمن التقاليد الروحية نفسها[٢].

أما المسيحية فقد ازدهرت بفضل الفكر الإسلامي بعد ترجمة الأعمال

---

١ - موسوعة الدين ص:٤٥٨

٢ - الإسلام في الغرب لفارودي ص:١٣ترجمة الدكتور محمّد مهدي الصدر.

الثقافية من العربية إلىٰ اللاتينية ، فقد انتشرت هذه التعاليم والمفاهيم الإسلامية بفضل «رامون لوله ١٢٣٣ ـ ١٣١٦ م»، وكذلك بفضل «الابن سينائيه»، وكذلك الأب «شديه» اللاتينية ، وعبرت عن نفسها في أعمال الأب «ميغيل آسان بالاسيوس ت ١٩٤٤ م»، ومدرسته الّتي ساهمت في إحياء كبار الشخصيات الروحية للإسلام. وكذا نجد في علم الفلك ، ففد سبق «الزرقلا» من علماء القرن الحادي عشر الميلادي «كيبلر» في وصف مسار الكوكب وفي تطوير الاسطرلاب الّذي يستخدم لقياس الارتفاعات. أما «البطروجي» من علماء القرن الثالث عشر الميلادي فقد سبق «كوبرنيك» في نقد قانون بطليموس. أما في الطب فكان عمل الذروة عائداً إلىٰ «أبي القاسم الزهراوي»، المولود في قرطبة عام «١٩٣٦م» حيث بحثه في علم الجراحة وفي علم الصيدلة، والّذي تُرجم فيما بعد إلىٰ اللاتينية أواخر القرن الثاني عشر علىٰ يد «جيراردي كريمون»، ونشر في «سالين عام ١٤٧٥م» وفي البندقية «فينسيا» عام «١٦٤٧م»، واعتبر حجة خلال «٥٠٠ عام»[١] .

كما الإسلام هو الجامع المشترك لكل أديان السماء في القرن الأول الهجري صاعقاً وسلّمياً علىٰ وجه العموم علىٰ الدين اليهودي أو المسيحي آنذاك لما يمتلكه الإسلام من مادة علمية وثقافية، وحضارات ونظريات عاليه، لأن الإسلام ليس بدعاً وإنما هو دين الله الوحيد كما قال تعالىٰ:﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾[٢] ومنذ ذلك الوقت ولحد الآن يعتبر القاسم المشترك بين الأديان السماوية والّتي تدعو إلىٰ الخضوع والتسليم لمشيئته سبحانه وتعالىٰ ، فقد ذكر القرآن الكريم النبي إبراهيمعليه السلام الّذي يسمى «أبو المؤمنين»، وقد أكد الإسلام دين موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام. أما التحريفات الّتي طرأت علىٰ اليهودية والمسيحية فهي من قبل أحبار اليهود نتيجة

---

١ ـ الإسلام في الغرب :١٤

٢ ـ الأحقاف :٩

العصبية القبلية الّتي تريد تحجيم الرسالة علىٰ شعب واحد وهو شعب الله المختار كما تدعي ، في حين نرىٰ أن المرجعية المعصومة تؤكد أنه لافضل لعربي علىٰ أعجمي إلا بالتقوىٰ. وعلىٰ هذا فإن المرجعية المعصومة منفتحة لكل عنصر يعترف بوحدانية الله. أما الجدل الّذي نشب وحدث فهو ليس موجهاً ضد الديانات بل ضد من يشرك ويجعل العزير ابن الله أو عيسىٰ ابن الله ويؤمن بالثالوث أو الأقانيم علىٰ أنه ثالث ثلاثة ، وهذا الجدل أو الصراع كان ولازال موجوداً حتىٰ بين المسيحيين واليهود أنفسهم ، وها هو المؤرخ الكبير «دوزي »يقول: «لقد كان الفتح العربي ـ الإسلامي ـ نعمة لأسبانيا فقد أحدث ثورة اجتماعية عظيمة وقضىٰ علىٰ جزء كبير من الآلام الّتي كانت البلاد تنوء تحت وطأتها منذ قرون »[1]. وهناك شهادة أُخرىٰ يقدمها الكاتب الأسباني «بلاسكوايباينز» فيقول: «في أسبانيا لم يأتِ الأنبعاث من الشمال بل جاء برفقة العرب ـ الإسلاميبن ـ الفاتحين ، لقد كانت حملة ممدّنة أكثر من كونها غزواً... فدخلت بلادنا الثقافة الشابة القوية والنشيطة ذات صنوف التقدم المدهشة السريعة والّتي انتصرت بمجرد ولادتها هذه الحضارة الّتي وجدت بفضل همة النبي صلى الله عليه وآله...»[2].

الخصيصة الإسلامية؟

إن هذه المرجعية المعصومة الّتي زودت الإنسان بالعقل، وامتازت بمميزات فريدة عن المرجعيات الأُخرىٰ أجازت للعقل أن يستعمل قوته في شتىٰ العلوم متجاوزاً ومتفادياً كل زعم ألا ينفي أو ينكر قبل التجربة السمو والتنزيه ، وهذا هو فتح باب التفكير العقلائي حول مالا يمكن أن يقتصر علىٰ التجربة الحسية

---

١٠ - تاريخ مسلمين أسبانيا ٢:٤٣

٢ - بلاسكوايباينز في ظلّ الكاتدرائية ص:٢٠١

والتجريد، إن هذا العقل هو الإيمان والإيمان هو العقل بلا عصابة وبلا حدود.

أما الذين يهاجمون الدين فإنهم لم يشاهدوا ولم يدرسوا مبادئ الدين بل لم يجربوها في حياتهم أصلاً ، وإنما يفسرون بعض مشاهداتهم لتصرفات بعض المسلمين ثم يحكمون علىٰ الدين ويتهمونه بالتحجر والجمود ، وأصحابنا يساعدونهم علىٰ ذلك بكتاباتهم ودعواتهم نحو التجديد ، فمثلاً ادعّوا أن نظام الجاذبية اثبت أنه لاوجود للإله الّذي كانوا يظنونه في الماضي يمسك بالكون بل الماسك للكون هو قانون الجاذبية. ولكن السؤال الّذي يوجه إلىٰ هؤلاء هل قانون الجاذبية يكفي لنفي وجود الله؟ وهل يكفي المنظار الّذي اكتشف قانون الجاذبية الّذي هو من صنع البشر لنفي وجود الله؟ وهل أثبت لنا المنظار أنه لايوجد إله في هذا الكون الواسع المترامي الأطراف؟ فهذا المبدأ هو في الحقيقة ما هو إلا نتاج المشاهدات والتجارب العلمية الّتي أعانتهم بها المجاهر الّتي جربوا بها وشاهدوا كل شيء في الكون وخارجه.

والجواب: أن التجربة والمشاهدة والمنظار لا يتعلق لا من قريب ولا من بعيد بعدم وجود الله. إنما يتعلق بأمر آخر ، بل بالعكس لو أن هذا المنظار استغمل بشكل صحيح وسليم وأخضعوه للعقل فإنه يسلم بوجود خالق ، لأن النظريات الّتي تكتشف ليست ثابته بل تتغير من يوم لآخر في عالم العلم ، وعلىٰ نظر «برتراندرسل»، الّذي يقسم المعرفة إلىٰ قسمين: معرفة الأشياء ومعرفة الحقائق. فمعرفة الأشياء: هي معرفة الوقائع الحسية. ولكن الحقائق الحسية ليست هي كل شيء بل تكمن وراءها حقائق أُخرىٰ لاتتمكن حواسنا من إدراكها وسبيلنا إلىٰ ذلك هو الاستنباط الّذي يقوم علىٰ الوقائع المحسوسة المتاحة ، والاستنباط يجب أن يكون علمياً. وكل الأشياء الّتي ندركها بدون استنباط يسميها رسل بالمعلومات ـ الحقائق ـ وهي ماتدركه الحواس من الطرق البصرية والسمعية واللمسية... وجاء في كتابه «تطوري الفلسفي»، أنه: « لايمكن الادعاء بالقطعية في النظريات أو الآراء

علىٰ النحو الّذي سار عليه الفلاسفة المتسرعون بكثرة وبدون جدوىٰ» [١]. وهنا إما أن يحتمي «برتراندرسل»، بمذهب التشكيك الكلي ، أو أنه يعترف بحقيقة الدين الّذي لايمكنه إدراك الحقيقة النهائية بحواسه المحدودة وإنما يقيس بواطن الحقائق في ضوء مايشاهده في ظاهر الكون ، أو أن يسلم بمذهب التشكيك الكلي الّذي يقوده إلىٰ كلمة لا أدري ، وهو الّذي يرفضها رفضاً قاطعاً ، بالإضافة إلىٰ رفضه لدائرة الدين وهنا يقع في تناقض شديد في ضوء مسلماته.

---

١ - التشديد المضاف ص:١٨

الإسلام

في

ساحة الصراع

العقلي

الإسلام في ساحة الصراع العقلي

هذا التناقض الّذي اشرنا إليه سابقاً ، هو الّذي أصاب الأُمّم الشرقية عندما شعرت بالتقدم الصناعي والتقني والاقتصادي الغربي ، بحيث أدىٰ هذا التناقض بين ما عندها من القيم والأخلاق وبين ما جاءت به التقنية الغربية إلىٰ أن الأُمّة أفتقدت كل قواها الروحية المبدعة والخلاقة، وأصبحت كمجتمع طفيلي لا روح له يخضع لكل ماهو براق ومزيف يدخل من باب الغرب وكأن المجتمع الإسلامي لا حضارة له ثقافية أو فكرية ، بل سلّم كل ما لديه من حقائق إلىٰ الغرب فصاغها الغرب له تحت شعار التقدم الحضاري المزيف وصدرها له ، وبقيت قيم المرجعية المعصومة خفية علىٰ أنظار كثير من الشباب ، بل حتىٰ العلماء خفي عليهم الأمر ، وصور وجود صراع ونزاع وصدام بين الدين والعلم ولم يلتفتوا أن الشيء الّذي ميز الإنسان عن الحيوان هو العقل والادراك الّذي هو أعجب ظواهر الحياة والّتي يشاهد به الإنسان هذه الأشياء بدقة وإمعان ، ثم يأخذ معلوماته في مكان غريب أيضاً ألا وهو المخ الّذي تتركز فيه الذاكرة الّتي ينتفع بها فيفيد ويستفيد ، فالإسلام والمرجعية المعصومة تزخر بالعقائد والأفكار التوحيدية والأخلاقية الّتي تحطم القدرة الشيطانية ، بينما ظلت الكنيسة تحكم أفكار المجتمع بالتشتت والتوحش وسفك الدماء وتأسيس حضارتها علىٰ جماجم ودماء المسلمين والناس أجمعين. فكلما نظرنا إلىٰ تقدم العالم ثقافياً وفكرياً تنعدم مقابل ذلك الفضيلة والمفاهيم الأخلاقية ، وهذه جراحات في روح البشرية الّتي لا تلتئم من خلال المفاسد والميول الشهوانية والغرائز. وبالتالي فقد المجتمع الغربي قوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبح، ونأسف لبعض المنبهرين بحضارة الغرب باسم التجديد فهؤلاء أيضاً فقدوا التمييز بحيث أخذوا يشعرون بالخجل ، وبدل أن يحققوا ويبحثوا عن عوامل التقدم

تراجعوا أمام القيم وفقدان الشخصية والاستقلال الفكري الّذي يلازم الجهل ، ثم بالتالي يؤثر علىٰ الانحراف العقائدي والديني الّتي يحملها مثقفونا الذين ليست لهم قاعدة فكرية صلبة. إن هؤلاء المغفلين لايتمكنون من أن يفكروا بحرية وواقعية لإدراك الحقيقة ، بل أعجبهم الانبهار بالدساتير الوضعية الغربية رغم مفاسدها العقائدية والأخلاقية ، ورغم أعتراف الغرب في المعنويات الّتي يحملها الفرد المسلم ، فقد جاء علىٰ لسان أحد أساتذة الجامعات الغربية الأوربية: «أن الغرب يحتاج في المعنويات إلىٰ الشرق، وأن المعنويات في الشرق أغنىٰ من الغرب بكثير فلو كان الشرقيون يفيدون من صنائع الغرب، فإن علىٰ الغرب أن يفيد من المعنويات في الشرق كذلك».[1] ويقول العالم الاجتماعي «سوروكين»: «كل من الجوانب المهمة للحياة والحضارة للمجتمع الغربي قد أصبح في اضطراب غير عادي ، فإن هيكل هذه الحضارة وروحها مريضان بشدة ولانتمكن من أن نجد نقطة غير مصابة في هيكل الحضارة الغربية أو عصباً في شبكة أعصابها يؤدي وظيفته تماماً إلا بعسر وحرج شديدين...»[2].

ريادة التمازج الحضاري:

وهذا لايعني أننا نعتزل ونجتنب التقدم الحضاري، نحن أعضاء أسرة واحدة وشركة واحدة ، بل المرجعية قدمت تراثاً ضخماً للإنسانية ، فكذلك الحضارة الغربية قدمت الكثير في بناء الإنسانية ، ولكن مع ذلك أدخلت مفاسد كثيرة بحيث وصلت الروح المادية إلىٰ حد الإفراط وإلىٰ أوج عظمتها. وكتب «ديل دورانت» يقول: «إن المأمون أحدث سنة « ٢١٥ هـ » في بغداد بيت الحكمة وكان فيه مرصد

---

١ - الحضارة الغربية /السيد مجتبىٰ اللاري الموسوي تعريب الشيخ محمّد هادي اليوسفي ص:١٧

٢ - خداوند وكعبة ص:١٩ فارسي

ومكتبة عامة ، وجمع جمعاً من المترجمين من كانت لهم معرفة باللغات الأجنبية من أمثال إسحاق بن حنين، وبختيشوع، وابن بطريق، وابن المقفع، وحجاج بن مطر وسرجيس الراسي، وقرر لهم رواتب من بيت المال» [١].

ويقول محمّد فريد وجدي عن العلاّمة «درايـر»: «وبـعد وفـاة مـحمّدﷺ ترجمت إلىٰ اللّغة العربية أهم المؤلفات اليونانية ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوية لم يشرق إلا في خلافة المؤمون»[٢]، في حين لم يوجد في كافة أنـحاء أُوربا مركز ثقافي واحد ، كان للمسلمين مراكز علمية ثقافية. وكـتب «غـوستاف لوبون» يقول: «لم يوجد في جميع الصوامع وعند جميع القسس في أُوربا أكثر من خمسمئة كتاب ديني ، كان للدول الإسلامية مايكفي من الكتب والمكاتب ، فـفي مكتبة بيت الحكمة ببغداد أربعة ملايين كتابٍ، وفي مكتبة الملوك بالقاهرة مليونِ كتابٍ، وفي مكتبة طرابلس في الشام ثلاثة ملايين كتابٍ، وفي أسبانيا كان يصدر سنوياً مايقرب من سبعين إلىٰ ثمانين ألف كتاب»[٣]. وكتب «مـاكس مـيرهوف» يقول: «يوجد فيأستانبول أكثر من ثمانين مكتبة فـي المسـاجد، فـيها عشـرات الآلاف من الكتب والنسخ المخطوطة القـديمة». وقـال «غـوستاف لوبـون»: «إن الجدية الّتي أبداها المسلمون في طلب العلوم مدهشة حقاً ، إنهم كانوا إذا افتتحوا مدينة واستولوا عليها كان أوّل مايقدمون عليه أن يبنوا فيها مسجداً ومـدرسة...». ويقول فريد وجدي: «... أن أُوربا في القرون الوسطىٰ وقعت في ظلام حالك مـن الجهل ، فوقف بها تيار العلم ونضبت موارد الحكمة وبقي الناس في طخية عمياء نحواً من ألف سنة ، ونقول الآن: أن بلاد المسلمين كانت في تلك الفترة ملجأ العلم

---

١ - تاريخ تمدن ١١:١٤٧

٢ - دائرة معارف القرن العشرين ٦:٦٠٨

٣ - تاريخ تمدن أسلام وعرب ٣:٣٢٩

والحكمة وموطن المدنية والحضارة ، فبلغت فيها المعارف والفنون أرفع ماقدر لها في تلك القرون...»[١]. وكتب «جوزيف ماك كاب» يقول: «وكان المجتمع ـ الإسلامي ـ متعطشاً لقراءة الكتب ، فكان العمال يقنعون بطعام قليل ولباس حقير ليتمكنوا من شراء الكتب حتىٰ يأخذ قطعة من نقودهم...»[٢]. ويقول أحد المؤرخين: «كان كل أحد في أسبانيا يعرف القراءة والكتابة في حين أن في أوربا المسيحية كان الرجال في الطبقات العليا في المجتمع يعيشون في جهل كامل عدا رجال الدين» [٣]. وأنشأ عبد المؤمن «ت٥٥٨ هـ» المدارس العديدة في أفريقيا وأقام دوراً للحضانة ، وأنشأ مدرسة كبيرة في فاس تضم ثلاثمئة ألف طالب ، وكانت الرياضة مثلاً تدرس في المدارس في أوقات فراغهم ، وأوربا طبقت هذا النظام بعد عبد المؤمن بسبعمئة سنة في مدارسها[٤]. وهاهو الخليفة يعقوب المنصور «ت ٥٩٥ هـ» أنشأ أوّل مرصد سنة «٥٩١ هـ»، عالي الذرىٰ ملاصقاً للمسجد الّذي بناه المهندس المعمارى. السيد الجير في أشبيلية وقد بلغ ارتفاع المرصد ـ أي منارته ـ مئتي قدم ولايزال هذا المرصد الضخم قائماً حتىٰ الآن ويحمل أسماً أسبانياً «جرالدا»، ويشهد بعظمة الفن الإسلامي ، كما وضعت في أعلاه كرات ذهبية وكان صنع المرصد من أبي الليث الصقلي[٥].

إن التسامح الديني الّذي أبداه المسلمون نحو الشعب الأسباني جاء بعد عصر طويل من الاضطهاد الديني الّذي عاناه الشعب من حكامه ، فكان الفتح الإسلامي بشير الخلاص والأمل ، لقد أطلق المسلمون علىٰ نصارىٰ الأسبان اسم المسعربين ،

---

١ - دائرة معارف القرن العشرين ٦٠٧:٦

٢ - عظمت مسلمين در أسبانيا ص:١٧٠.

٣ - نگاهي تاريخ جهان ص:٤١٣

٤ - الأندلس الذاهبة :تعريب عبدالرحمن أرشيدات ١٥:٣تأليف ضياباشا التركي.

٥ - روض القرطاس ص: ١٥١

وهم الذين احتفظوا بدينهم ولغتهم وعاداتهم وقوميتهم في ظل الحكم الإسلامي ، ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثال في التسامح ومعاملة سكان البلاد المغلوبة معاملة لامثيل لها من الاعتدال وضبط النفس بتأثير الدعوة الإسلامية الإنسانية. وقد رد أحد مؤرخي الفرنسيين ـ ويـاردوشوقو ـ بحماس علىٰ مـاأورده ـ أي مونتسيكيو في كتابه «روح القوانين في الفصل الرابع عشر» حيث ذكر «مونتسيكيو»: «أن النصرانية هي الّتي سنت مبدأ إعطاء الغالب شرف ظفره إلىٰ المغلوب ، وهي الّتي سنت مبدأ احترام عقائد وتعاليم الأُمّم المغلوبة ، وهي الّتي أقرت مبدأ التسامح الديني وحملتْ رسالة الآداب والمثل الإنسانية لكافة هذه الشعوب المغلوبه ، ولهذا علينا أن نقدم للنصرانية بالغ تقديرنا وأعجابنا». فرد «وياردوشوقو» عليه بقوله: «حاشا يامنتسيكيو»، أن مالقيه النصارىٰ علىٰ يد أبناء دينهم من ضروب الاضطهاد والمطاردة والذلة يندىٰ له جبين الإنسانية ولا تزال سير المطاردة الدينية الدموية الّتي اقترنتْ بظهور النصرانية ماثلة أمام الجميع ، بينما عامل المسلمون أبناء البلاد المفتوحة بمنتهىٰ العدل والتسامح والمساواة إن اعتدال حكم المسلمين سمح للنصارىٰ وغيرهم أن يزاولوا شعائرهم دون تدخل وأن يجهروا بآرائهم دون خشية المطاردة ، كما سمحوا للورع المتعصب أن يمارس شعائره بمنتهىٰ الحرية ولم ير المسلمون بأساً من أن يعيش النصارىٰ واليهود إلىٰ جانبهم في مجتمع واحد ، وأن تقدم الكنائس إلىٰ جانب المساجد وأن يسوىٰ بينهم في جميع الحقوق والواجبات. والمسلمون في عنفوان قوتهم وظفرهم كان ذلك لغزاً غريباً وظاهرة عجيبة من أغرب ظواهر التأريخ»[١]. ويقول المؤرخ الفرنسي «وياردو» إن العرب المسلمين أثناء اتجاههم إلىٰ الغرب في رحلاتهم البحرية في مياه يجهلونها وصلوا جزيرتي «مادر» و «عاشور ، آزور» وهما من بقايا

---

١ - الأندلس الذاهبة ٣:٤٠١ط ١وزارة الثقافة والأعلام الأردنية - عمان -

الأطلانطيد «الأطلنتيك »[١]. وقد برع المسلمون في الطب وتوسعوا في البحوث الطبية اعتماداً علىٰ الملاحظة والتجربة والابتكار ، فهم أوّل من توصلوا إلىٰ طريقة فحص المرضىٰ وتوصلوا لوصف أمراض الجدري والجذام والحصبة وأمراض العيون ، من أمثال ابن ماسويه، وابن بختيشوع ، والرازي أكبر طبيب مشخص في العصور الوسطىٰ ، وابن سينا ، والجراح الشهير أبو القاسم خلف بن عباس أوّل جراح في العالم.[٢] وقد برع المسلمون أيضاً في الكيمياء بعد أن اكتشفوا ماء الفضة «حامض النتريك»، وزيت الزاج «حامض الكبريتيك»، وماء الذهب والبوتاس وكلوريد الزئبق و... و... الخ وبهذا وذاك ثبت أن المسلمين هم أصحاب الحضارة ، والغرب هو الّذي تأثر بهم ، وليس العكس كما يدعي المدعي ، والحضارة الإسلامية هي أقدم من حضارة الغرب بهذا المصطلح الجديد لأن الإسلام هو خاتم الديانات السماوية ، وهي صاحبة التراث الضخم الثر الّذي لايمكن أن يحصىٰ ، فعلىٰ المؤرخ أو الكاتب الغربي أو المستشرق أو الإسلامي المتأمرك أو المتغرب أن يدرس الحضارة بشكل دقيق وأمين وإنصاف دون تعصب أو ميل أو هوىٰ ، وكذلك علىٰ المسلم أن يرجع إلىٰ حضارته وإلىٰ تاريخ مرجعيته المعصومة ، وأن لايسير وراء السراب والخيال والأوهام والشعارات الغربية البراقة والمزيفة الّتي تصدرها الجامعات الغربية ثم تشحنها إلينا عن طريق المناهج والمدارس والحداثة والعصرنة والعولمة. علماً بأن الحداثة هي واقع تأريخي داهمنا في القرن التاسع عشر بوصفه تياراً تأريخياً موضوعياً ، ذا مستندات بنيوية في تحولات ثقافية ، وسياسية ، واقتصادية ، وقد اعتمدناه ولمسنا آثاره في حياتنا العقلية بمعارف العلم الطبيعي والتأريخي بدلاً من الركون إلىٰ المعرفة بالجن ، والعفاريت ، وأقمنا عليه نظماً

---

١ - المصدر السابق ٣:٤٢١.

٢ - المصدر السابق ٣:٤٣٢.

قضائية ومفاهيم شرعية متقادمة للشهادة مما كان متناسباً مع متطلبات الحياة ، والانتقال من المعرفة الشفوية القائمة علىٰ الاستذكار والاستحضار ، ومن المعرفة المستودعة في النص المخطوط ومجالس سماعه وحواشيه وتعليقاته ، إلىٰ المعرفة المكتوبة الآيلة من النص المطبوع الواسع الانتشار ، علىٰ مايوفره هذا النص من إمكانية المنهجية المتسلسلة. وإزاحة سلك مؤسسي رجال الدين ، والآباء المطيلسين ، عن موقع الصدارة ، ونفي الطابع الكهنوتي عن سلك العلماء المسلمين ، وهذا ليس من التأريخ ، بل هو من بنات فكر التيار الإصلاحي الإسلامي ، لكن جاءت الحداثة العربية في دورها العلماني من باب إزاحة المؤسسات الدينية عن موقع الصدارة في ميادين التربية والفكر والقضاء ، وبالتالي إزاحة الاعتبار الديني للحياة العامة عن المركز ، واستبداله بمرجعية مغايرة ، حداثية ودنيوية ، أيدولوجياً وأخلاقياً ونهضوياً، وليس التراجع والنكوص والتقوقع الّذي فرض علىٰ مفهوم النهضة في السنوات الأخيرة. ونتج من هذا وذاك إلحاق تأريخنا بتأريخ غيرنا عبر علاقة سيطرة ، ودمجه علىٰ صورة غير متكافئة ولا هي متجانسة ، فلسنا مع ماضينا ولسنا كلياً في معاصرة مع غيرها ، وهذا يفسر لنا يوتوبيا النكوص الّتي تدعو إليها القوىٰ السياسية ذات المآل الديني البروتستانتي ، ولذا جعل تناول العلماني للحداثة لا علمانياً صريحاً ولا محارباً للدين وأربابه. ولم تكن العلمانية بذلك الشعار السياسي البارز إلا فيما ندر.

العلاقة الجدلية
بين الماضي
والنهوض الحضاري

العلاقة الجدلية بين الماضي والنهوض الحضاري

لسنا بصدد دراسة الماضي دراسة تأريخية من خلال الحركة التأريخية والزمنية ، أو دراسة فلسفة التأريخ والماضي، وأحداثه وإبداعاته، ومنهجه وربطه بالحاضر، وما تمخض عنه من تجارب واكتشافات، وتطور ثقافي وحضاري، وتقدم صناعي و... و... وعلىٰ الرغم من أن دراسة الماضي وعلاقته بالحاضر والمستقبل تكتسب أهمية كبيرة جداً في ضوء الاكتشافات الجديدة، لأن النهوض الحضاري يستتبع فهم العلاقة العضوية بين التواصل والديمومة الزمنية، وهذا ما يعبر عنه بالتفاعل الجدلي العلمي للذات والموضوع، أي بين الإنسان والواقع، لأن المراحل التأريخية لايمكن أن نفصل بعضها عن البعض في مسار المعرفة الإنسانية، ولأنها ـ الدراسة ـ خاضعة للاجتهاد الموجه، والنقد والتحليل والشمول، ولكن تبقىٰ المبادرات مفتوحة لوضع المنهج الحضاري الجدلي، والربط بينه وبين الماضي، كما يقول «لويس جوتشلك»: «كأسلوب يطبق علىٰ مادة أي موضوع للكشف عن الحقيقة بشقيها الذاتي والموضوعي»[1]، لأن كلمة الماضي لها دلالة زمنية مطلقة ، وبذلك تدفع الفهم لها إلىٰ الغموض والالتباس والتحيز ، أما إذا أخذناها بمدلولها العلمي فإنها تعطي الاستدلال علىٰ منهج محدد ، وربما تعطي في بعض الأحايين مضامين مطلقة أيضاً، كدراسة التأريخ والتراث والدين والحضارة. أوكما يقول جودت سعيد: «ان المعرفة والعقل هو التاريخ ، هو الخبرات ، هو التجارب ، بدون تاريخ لا علم ولا عقل ، لأن العقل هو ربط الأسباب بالنتائج ، والعقل ليس جهازاً

---

١٠ – كيف نفهم التأريخ .مدخل إلىٰ تطبيق المنهج التاريخي ص:٤٣ ترجمة د. عائدة سليمان عارف ود. أحمد مصطفى أبو حاكمة .دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٦ م.

للفهم ، وانما هو جهاز ربط وامكانية تتحول إلىٰ واقع. الإنسان يولد عنده قدرة علىٰ ان يتعلم الكتابة ، وقد يعيش أُمياً ولا تتحول امكانيته إلىٰ واقع ، وكذلك العقل ، ولهذا لم ترد كلمة العقل اسماً وانما وردت فعلاً في القرآن ، ولم يقل ليس عندهم عقل لأنه عندهم القدرة ، ولكن قال لا يعقلون ، أي لا يربطون الأسباب بالنتائج[١].

وربما تكون دراسة لمضامين اجتهادية عقائدية فلسفية ، أو دراسة التجربة المدونة للجنس البشري والإنسان بطبيعته ودراسته واستطاعته الاستفادة من هذه التجربة في أي ميدان من ميادين المعرفة[٢]. وبهذا يصبح التأريخ كمستودع للخبرة البشرية علىٰ الرغم من أن بعضاً وصفه بنظرة فلسفية مجردة تدل علىٰ الحكمة[٣] ، واعتبر التأريخ سيد الحياة ، وأن جوهر التأريخ قلل من احتمالات الوقوع في الخديعة والخطأ. ومن المرجح كذلك أنَّ إعادة بناء الماضي البشري «بصبغة متكاملة»، يبقىٰ هو الاحتمال الأصعب في هدف المؤرخين[٤]، علىٰ وفق النظرة العلمية الموضوعية لتراكم الماضي التاريخي ، والّتي يقول عنها بوبر[٥]: «ليست نتيجة الملاحظة المحايدة، وإنما هي نتيجة التمحيص والنقد ، بما في ذلك تمحيص الملاحظة نفسها ، ذلك أننا لا نستطيع بحال أن نستبعد نظرياتنا أو أن نحول بينها وبين التأثير علىٰ ملاحظاتنا. وهذا شيء ليس بأيدينا ، وإن كان بأيدينا أن نحاول أن نعي أنها دائماً ليست إلا افتراضات ، وأن نحاول التعبير عنها تعبيراً واضحاً حتىٰ يمكن وضعها علىٰ محك التمحيص والنقد». ولهذا يأخذ بوبر علىٰ الأسلوب الاستقرائي في كتابة

---

١ - حوار مع جودت سعيد / اجرته معه مجلة قضايا إسلامية معاصرة ص:٨١العدد٤ سنة١٩٩٨م .

٢ - المصدر السابق ص:٤٣.

٣ - آرنست كاسيرر.فيالمعرفة التأريخية ترجمة أحمد حمدي محمود / دار النهضة العربية مطبعة التأليف القاهرة ص:٨٨

٤ - لويس جوتشلك ص:٥٦،٤٣

٥ - ٤٨. Ibid.p

الورقة العلمية الّتي تصف ملاحظة ما ، أنه حصر نفسه في إطار الملاحظة وحدها وادعىٰ أن ذلك وحده هو مايجب في وصف التجربة الّتي يتمخض عنها الكشف العلمي. وإخلاص المنهج الاستقرائي للملاحظة أمر يستحق الثناء من غير شك. لذا تبقىٰ تأثيرات الحاضر في فهم الماضي لها أهميتها الملحة والواسعة لاستيعاب الصيرورة التأريخية من خلال الأخذ بمنهج محدد لغرض الإحاطة الصحيحة بهذه الصيرورة الّتي لا يمكن أن تخرج عن العلاقة العضوية بين الفعل والعقل الإنساني ، ولذا قال «كولنجوود»: «إن التجربة التأريخية الصادقة لتاريخ البشرية ترىٰ لكل شيء في التأريخ مايبرر كيانه ، وأنه جاء إلىٰ الوجود ليخدم أغراض الناس الذين تمخضت جهودهم الجماعية عن خلقه ، والتفكير في أية مرحلة من مراحل التأريخ علىٰ أنها لاتمت إلىٰ العقل بصلة معناه؛ إنك لم تنظر إلىٰ هذه المرحلة نظرة مؤرخ...»[١]. وأن التجربة الأُوربية في هذا الموضوع منذ عصر النهضة إلىٰ مطلع القرن العشرين قد أفرزت نمواً مطرداً في معالجة النزعة التأريخية كالنمو الحاصل في الجانب القومي والمذهب النفعي والوضعي ، والمذاهب الفلسفية بفروعها ومدارسها المادية والمثالية ، وهذا مايتبناه عدد من المؤرخين والمفكرين مثل هردر، فيكو ، ميشلية: «أن هناك في كل أُمّة صفات ساعدت علىٰ وضع مصيرها حتىٰ وصل الحد ببعض المناهج إلىٰ أنها اتخذت أحكامها صفة الأطلاق، والأفكار المسبقة وبما يشبه «المرتافيزيقيا»[٢]. ومهما يكن فإن التصور الأُوربي للماضي التاريخي قد أصبح وكأنه ليس له وجود خارج نطاق العقل البشري بشكل عام [٣]. وقد أشار كاسيرر بقوله: «إن النزعة التأريخية لم تعد ترىٰ الوجود في الغيبيات أو

---

١ - فكرة التأريخ د.ر.ج كولنجوود ترجمة محمّد يكير خليل ومحمّد عبد الواحد خلاف ط ٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ص:١٥٠عام ١٩٦٨ م.

٢ - لويس جوتشلك ص:٢٤٧.

٣ - المصدر السابق ص:٥٧.

الفكرة المطلقة ، بل إنها أرادت أن تتشبث بهذا الوجود فقط في العقل الإنساني وفي الإنسانية جمعاء. وأن هذه المسألة الكبرىٰ لم تكن نتيجة مساهمة فلسفة التأريخ لوحدها وإنما جاءت لمشاركة علم التأريخ فيها مشاركة واضحة ، وحتىٰ العلم التاريخي نفسه قد اتخذ اتجاهات مختلفة. وهي ـ وأن كانت ذات اختلاف ظاهري ـ إلا أنها سعت بأجمعها وراء نفس الغاية ، وهي ـ وإن لم تستطع أن تقدم حلاً موحداً للمشكلة ـ فإنها كلها قامت بمهمة مشتركة»[١]. ومع هذا كلّه فإن المذهب الفلسفي المادي الجدلي الأوربي قد تحول إلىٰ مايشبه «المذهبية الجامدة»، أو «الدين الجديد»، وذلك بتحوله إلىٰ الكونية ، وقفزه للشروط الموضوعية التاريخية.

إذاً علىٰ الّذي يدرس الحدث التاريخي أو معايير الحاضر أن تكون لديه حاسة تأريخية، وعقلٌ تأريخي، كي يدرك هذه المعادلة ، ومن ثم يتجنب النظر إلىٰ الماضي باعتباره صورة «فوتوغرافية» مكررة أو مماثلة للحاضر ، كما ليس من شأن المؤرخ أن ينظر إلىٰ الماضي من خلال معايير الحاضر ، لأن الإنسانية ليست شكلاً ولا طابعاً ولا نمطاً واحداً. ومن ثم ينبغي التعبير عن كل عصر بتعبيرات خاصة به[٢]. ويجب علىٰ المؤرخ أن لايقطع الصلة بتاريخ أُمّته ، وأن ينظر إلىٰ الماضي نظرة إيجابية ، وليست مستسلمة ، لأن الإنسان مارس حواراً داخلياً بين الذات ـ عقل الإنسان ـ والموضوع ـ العالم الخارجي ـ وبهذا الحوار فتح نوافذ عديدة واتجاهات مختلفة ، عن طريق هذه النوافذ جسّد نوعاً من التفاعل بين طروحات العقل الإنساني وبين ظروف العصر ونوعية المشكلات والحاجات والحلول ، ودرجة العمق الّتي يفترض أن تتوفر في الجهاز الفكري المعبر عنها.

وأن دراسة التأريخ للماضي نقصد بها دراسة تراث البشرية الّذي تجاوز

---

١ ـ آرست كاسيرر ص:١٥١

٢ ـ فلسفة التأريخ د.أحمد محمود صبحي ص:٢٨ـ٣٠ مؤسسة الثقافة الجامعية القاهرة ١٩٧٥ م.

النسبي والخاص والمؤقت ، بل الكم الهائل المتنوع والمترامي الأطراف وذلك بتسليط الضوء عليه من خلال القرآن والسنة النبوية ، وكيفية الاستفادة من هذا التراث ، وتبني مافيه الخير ، لأنه تراث الأنبياء والمرسلين والصالحين والأئمة الهداة الميامين علىٰ وفق معايير وموازين خاضعة للضوابط لا الروابط. وقد تميز القرآن الكريم بحفظ هذا التراث الضخم الّذي لولاه لما حفظ أو عرف أحد عن تلك الحضارات والأُمّم شيئاً بل تنسىٰ كما نسيت العبر والدروس ، لأن بعض الكتب قد خرقت وحرفت ومزقت ودرست نتيجة المصالح الدنيوية الّتي تشبث بها الملوك والأباطرة ورجال الكنيسة الذين أساءوا فهم ومعرفة النصرانية ، وخلطهم بين الحق والباطل والسحر والشعوذة ، وحجبوا المعرفة العقلية والإبداع بعد أن فرضت الكنيسة نفسها علىٰ العالم وجعلت الشعوب تحت سيطرتها ، سواء كانت الشعوب مختارة أم مكرهة ، ولذا قامت بوجه الكنيسة ثورة عارمة قادها مجموعة من المفكرين في أُوربا مثل بيكون، ودوركهايم، وسبنسر، وسمول، وديكارت، وغاليلو ، حتىٰ أن الحضارة الأوربية بعد ذلك فرضت نفسها أيضاً وتغلبت علىٰ الكنيسة في بداية القرن التاسع عشر وجاء دور العلم الّذي يخضع للحس والتجربة ، ولكن هذا العلم اتجه اتجاهين مختلفين ، فتارة يتسم بالفكرة العلمية البحتة ، وتارة أُخرىٰ يتسم بالموضوعية وهي نادرة جداً بعد أن يوجد لها واقع معين في الخارج ، ولكن هذه الموضوعية أيضاً استخدمت مع الأسف الشديد كعقيدة لاهوتية غفرانية لها قراراتها الخاصة الّتي تحرم من لايلتزم بها حرماناً كاملاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً ، أي بتعبير آخر أصبحت ديكتاتورية ، وبمعنىٰ أدق سيطرة الأقوياء علىٰ الضعفاء واستحمارهم. واشتد الصراع علىٰ الخريطة الفكرية والاجتماعية و... و... في العالم كلّه وفي العالم الإسلامي خاصة ، وقد تمثل هذا الصراع أوّل مرة بأشخاص ثم مؤسسات اعلامية واجتماعية ، وقد استورد هؤلاء هذا الصراع من أُوربا ذاتاً وموضوعاً بعد الاحتكاك الفكري والعملي بحجة من الحجج. من قبيل عدم قدرة

الماضي علىٰ مسايرة الحاضر. وتقوقع الماضي علىٰ نفسه ورفضه لكل جديد ومستجد. وادعىٰ بعضٌ آخر أن التراث الماضي ليس ذا أهمية ، وهذا يريد إزالة الماضي تماماً وليس مجرد إنكاره فقط. ولذا شنوا عليه حملة شرسه علىٰ كل مفاهيم الماضي وتراثه ومرجعيته ومؤسساته ، وذلك نتيجة عدم الدّفاع عنه من قبل المسلمين ، أو نتيجة تحجر بعض المؤسسات الإسلامية الرسمية ، واستبدال المفاهيم الأصلية ـ مفاهيم تراث المرجعية ـ بمفاهيم وقوانين أُوربية ، أو علىٰ الأقل تطعيم الدستور الإسلامي بالقوانين والدساتير الأوربية ، وهذا أعطىٰ أنطباعاً لدىٰ الغرب بأن التراث الإسلامي ليست له القدرة علىٰ استيعاب الحياة المعاصرة ، وأصبح الربط الخاطئ بين المفاهيم والتشريعات بالإضافة إلىٰ عامل الجمود والتحجر عاملَين أساسيين للصراع بين الماضي والحاضر ، ومن خلال هذا الصراع برزت خطوط ومتبنيات فكرية ومنهجية وثقافية وسياسية. وعلىٰ سبيل المثال ظهر تيار حتىٰ من الشباب الإسلامي يدعو إلىٰ التخلي عن الإسلام والمرجعية باعتباره مرحلة تأريخية انقرضت كما انقرض قوم عاد وثمود. وفي مقابل هذا ظهر تيار آخر حاول قلب الحقيقة بعد أن تشبث بمبدإ التطور والتجديد والتنوير بغية تبرير عمله بأنه أخذ يفسر النصوص علىٰ وفق التفسير الّذي يتماشىٰ ويتساوق والمفاهيم الأوربية وإقناع المسلم بتلك المفاهيم وجعلها بديلاً للنصوص الدقية الحرفية ذات المعاني والمضامين العالية. بينما ظهر تيار آخر وهو الّذي جاء نتيجة ردّة الفعل باتجاه التيارين السابقين والّذي دعا إلىٰ الانغلاق والتمسك الحرفي والنصي الذاتي علىٰ النصوص الموروثة ، وقد تجسد هذا التيار بتعطيل العقل الّذي أشرنا إليه سابقاً في بعض المدارس الفقهية والكلامية التقليدية ، وقد أدىٰ هذا التيار بعد أن أعطىٰ الضوء الأخضر في الهجوم علىٰ الإسلام من قبل المستشرقين إلىٰ أتهام الإسلام نفسه بالتحجر والجمود بينما الإسلام الّذي تمثل بالقرآن والسنة النبوية يرفض هذا الاتجاه رفضاً قاطعاً لمتبنياته ومفاهيمه ، لأن القرآن أعطىٰ الخطوط العريضة العامة

للمتبنيات والمفاهيم عنايةً وأهمية قصوىٰ وفقاً للظروف والأُصول الاجتماعية والزمنية والمكانية وحث علىٰ إعداد أقصىٰ الإمكانيات في تفجير الطاقات العلمية وجعل طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة ، وحث علىٰ النهضة العلمية. وقد برع المسلمون الأوائل في مجالات شتىٰ كالطب والفلسفة والفلك والرياضيات و... و... وطرح مفاهيم تخص الكون وحياة الإنسان العامة والخاصة ، وقد سبق أُوربا في رأيه حول الأسرة لأنه لا يتعارض مع أي قاعدة تشريعية ولايخالف خطأً فكرياً، وهو أوّل من دعا إلىٰ التنظيم الاجتماعي والمؤسساتي الّذي يكون في خدمة الإنسان والبشرية ، وبالتالي لا بد من الانفتاح علىٰ معالم وحضارة وثقافة العالم والاستفادة منه بما أنعم الله عليه من قدرة علىٰ معرفة الخير من الشر وتمييز الحق من الباطل ، وعليه أن يتحمل المسؤولية الكاملة بما يقوم به من أفعال من خلال التعامل والإرادة الّتي وهبها الله له ، وهذه المسؤولية تنطلق من الذات ضمن وجودها الفردي لإصلاحها ثم إصلاح المجتمع بعد أن طور كافة قواه العقلية والنفسية والسلوكية. ومن هذا وذاك توارث المسلمين جيلاً بعد جيل هذا التراث الضخم.

الانحدار
والتخبط
الفكري

الانحدار والتخبط الفكري

خطط المفكرون من أُوربا تخطيطاً محكماً لتعميق الهوة بين المسلمين، ومصادر المرجعية المعصومة حتىٰ يضمنوا عدم قيام قائمة للأُمّة الإسلامية ، لكن خابت وباءت بالفشل محاولاتهم الرخيصة علىٰ رغم الندوات الإصلاحية الّتي قامت بها بعض الحركات الإصلاحية والأفراد ، وذلك لأن مايصلح للغرب من أفكار وعقائد وقوانين لايصلح لأُمّة إسلامية؛ لأن كتابها القرآن الكريم خالد ومنزل من السماء ، وبالتالي تبين أن الأفكار الإصلاحية ماهي إلا أماني وأوهام وسراب خادع لم يؤدّ إلىٰ أثر يذكر ، لأنه لا يمكن إصلاح آخر الفترة الزمنية لهذه الأُمّة إلا الدواء الّذي جاءت به المرجعية المعصومة في بداياتها ونشأة كيانها الدولي والمؤسساتي الأول رغم محاولات الاستعمار والاستيطان والغزو الثقافي والاحتلال والاغتصاب للممتلكات والموارد وهتك الحرمات ، والّذي ترك أثراً وضعياً نفسياً في جسم المسلم الّذي كاد لايميز بين الخطإ والصواب، والحق والباطل، والغث والسمين ، وتفكيك الدولة الإسلامية الواحدة، وجعلها دويلات وكتل، ومقاطعات ومشيخات متصارعة متناحرة متباعدة، يفترس الجوع الملايين من أبنائها. لكن بحمد الله ورعايته لم تخلُ الدولة الإسلامية من الشباب الّذي أخذ يقرأ ويفكر ويتدبر ويتساءل عن هويته وشخصيته، وتراثه ومرجعيته، وقادته وإنجازات أُمته ، ويتساءل أيضاً عن أسباب تدهور وانحطاط وهبوط الأُمّة ، وعوامل الضعف والذلة والمهانة والفوضىٰ والاضطراب وانحلال عرىٰ الترابط في أمته ، ولذا قام هؤلاء الشباب وأهل الحل والعقد والخبرة، والعلماء والفقهاء، بتبادل الرأي وتشخيص الداء فأسسوا الجمعيات والمنظمات، والمؤسسات والمراكز، والجامعات الثقافية والعلمية ، وطرح أفكار المرجعية بدون خوف وتردد ، وأعطوا المنهجية الأولوية اللازمة كأساس

لإنجاح الجهود المبذولة وإنقاذ الأُمّة وإصلاحها حتىٰ تقف في وجه المعتدين في بقوة وشموخ ، مسلحين بالإيمان والإرادة والعزم بعد أن وقف الأوائل وحطموا الأوثان وأسسوا الدولة الأولىٰ والأُمّة الّتي نزل بحقهاقوله تعالىٰ :﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]. لكن هجمات الأعداء أخذت تفعل فعلها وتترك آثارها في قوتها وجسمها، وتماسك شبابها، وسحق روحهم، وغزوهم الفكري والعقائدي ، وانتهت بهم تلك الانحرافات الفكرية إلىٰ التفرق والتمزق والتحول إلىٰ نحل وآراء وأهواء ، كانت نتيجة ذلك تلك الهزائم الساحقة أمام الغزاة من الصليبيين واحتلال مساحة كبيرة من ديار الأُمّة الإسلامية بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولىٰ. وبعد أن استقروا في البلاد الإسلامية خططوا لتبديل الثقافة الإسلامية بالثقافة الاستشراقية ، وعمليات التنصير والتبشير والاستعمار ، حتىٰ أخذ هذا التخطيط موقعه في عقول الكثير من أبناء الأُمّة الإسلامية في كثير من المجالات ، كالعلوم الإسلامية والاجتماعية ، وتبديل التراث الحضاري الضخم إلىٰ تراث سطحي باسم التقدم والتنوير، وبالتالي قطع روابط الأُمّة عن مرجعيتها المعصومة وتقسيمها إلىٰ دويلات يتراوح عددها إلىٰ الستين أو مايزيد، وأقاموا الحدود بينه،ا وأخذ الاستعمار يغذي كل دويلة بالأجواء الّتي تؤدي إلىٰ توتر العلاقة مع جارتها وتأجيج الصراع مع المسلمين بشكل عام حتىٰ لاتندمج هذه الدويلة مع شقيقاتها الأُخرىٰ. ولذا أصاب الأُمّة وكيانها الضعف والعجز عن مقاومة التحديات والتأثيرات الخارجية ، ولذا لجأت الأُمّة من دون وعي وإرادة إلىٰ الاعتماد علىٰ الوسائل الغربية وجلب الحكام والمستشارين الغربين والمحللين السياسيين لحل مشاكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية. وعلىٰ سبيل المثال نجد النظام التعليمي لا دينياً، والمفاهيم لادينية، والسلوكَ لادينياً، والأخلاق لا دينية و... و... وحتىٰ المأكل

---

١ - آل عمران: ١١٠.

والملبس والمشرب، كلها غربية وتقليدية. ووصل الأمر بأن مدرس مادة الدين لا يدرسها المسلم، بل يدرسها إما صابئي، أو مسيحي وهذا ماشاهدناه في العراق عندما كانت وزيرة التعليم والتربية في العراق سنة «١٩٢١م» والمسماة مسزبيل ولذا تخرج عدد كبير من أصحاب الدرجات العلمية جاهلين تماماً بأمور الدين والتراث والمرجعية ، ولذلك بدأ التنكر والغفلة والسهوة بين العلماء المسلمين تنمو ، وبين المثقفين أصحاب المنهج العلماني اللاديني وبالتالي أصبح العلمانيون اللادينيون هم أصحاب اليد الطولىٰ وصنّاع القرار في أكثر الدول الإسلامية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلىٰ الهجوم الشرس من قبل هؤلاء أو صنائعهم علىٰ النص القرآني والإنجازات الّتي حققتها المرجعية المعصومة في ميادين الحضارة والثقافة والتقدم العلمي ، واستطاع الغرب القضاء علىٰ كل ماحققته ميادين العلوم الإسلامية ، وكذلك الفتوحات الإسلامية في أُوربا واستبدلوها بأنظمة غربية ، أي بعملية تغريب المؤسسات والمبادئ الإسلامية كما حدث في مصر وتركيا ، وفي تركيا بالذات نجحت عملية التغريب إلىٰ حّد نَزْعِ الروح الإسلامية والتدهور والضعف. أما في مصر فكان أقل وبالاً لأن المنهج في مصر أصبح تلفيقياً ، أي نظاماً غربياً ونظاماً إسلامياً تقليدياً وهذا أوّل صراع بين المنهجين علىٰ الرغم من أن المنهج الغربي يتمتع بدعم حكومي ، لكنه فشل في تحقيق أغراضه علىٰ الرغم من فشل الأُمّة وإضعافها ، لأن النظام الغربي أراد فصل الوحي عن العقل بتهمة تأثره بالفكر اليوناني والمنطق الأغريقي الّذي أدىٰ إلىٰ عقم الحوار والفكر ، وقد ظلّ هذا الانفصال بين الوحي والعقل قروناً عديدة ، ولذا نجد الفارابي يهجم علىٰ المتكلمين وأيده في ذلك الفلاسفة ، بينما نرىٰ المرجعية المعصومة دعت إلىٰ استخدام العقل وإخضاع كافة الدعوات إلىٰ ملكة العقل بعيداً عن الحدس والظن والتخمين ، لأنه بدون العقل لايمكن إدراك حقائق الوحي ، كما لايمكن قبولها وإقرارها. وبدون العقل لايمكن التمييز بين الحق والباطل ، وبين الوحي الصادق والدعوىٰ الكاذبة ،

ولايمكن بدون العقل سدّ الأبواب أمام العقائد الفاسدة والمنحرفة ، لأنه بدون سدّ أبواب الجهل تتسرب الخرافات والسخافات والأساطير والحكايات داخل العقيدة ، ومن هنا نجد الفقيه البارع، والنبيه، والحاذق الماهر، دائماً يصوغ إبداعاته علىٰ وفق الوحي الإلهي من خلال الاستنباط العقلي ، سواء في الفقه أو السياسة ، ولذا نراه مجتهداً وفقيهاً، وعالماً وقائداً، وزعيماً سياسياً وعسكرياً، وفلاحاً وتاجراً، في نفس الوقت ، لأن قوته هذه مستمدة من قوة المرجعية الّتي أعطت للعقل البشري قوة التفكير والأستيعاب ، إلا أن هذه القوة سرعان ما انفصمت عراها من الواقع وأخذت بالتدهور الفكري ، وبدأ العلماء يواجهون أزمة أُخرىٰ بعد أن سيطر الفكر الغربي علىٰ الأُمّة وخاصة رجالها السياسيين ، وبالتالي أدىٰ هذا الانفصال إلىٰ عزل الحكماء والعلماء والمجتهدين عن الواقع ، وهو الّذي دفع الحكام ورجال السلطة إلىٰ الوقوع في الخطإ لأنهم جعلوا الفكر تحت سياسة البطش والاستبداد ووراثة السلطة وهجران الواقع مما دفع بعض المفكرين أن يحلقوا في آفاق الخيال والابتعاد عن الواقع ، كما دفع بعض المفكرين من النوع الآخر إلىٰ مهادنة السلطة والارتباط معها، وسرعان ما أصبحت الأُمّة كلها: إما مفككة، أو منغلقة، أو منغمسة في الملذات والشهوات السلطوية ، والحكام والأمراء ماهم إلا دُمىٰ وألعوبة بأيدي أصحاب النفوذ الحقيقي وقتل الروح المعنوية في الأُمّة ، وسادت الغنوصية[1]. في المجتمع والّتي لاتستند إلىٰ البرهان العقلي ، وبالتالي اختفاء التكافؤ والتوازن بين الأُمور الروحية والدنيوية ، بل أخذ كلٌّ من طرفه يتعارض مع الطرف الآخر. إن لم يكن يفسده ويقضي عليه ، وأصبح الأول روحانية خاوية فارغة ورهبانية نصرانية

---

١ - الغنوصية: هي نزعة تهدف إلىٰ إدراك كنه الاسرار الربانية بدون واسطة علىٰ نحو ما يصنع اصحاب «الكشف» الصوفي ، ولقد ظهرت في القرون الأولىٰ لظهور المسيحية .وكرد فعل ضدها. ثم ظهر غنوصيون مسيحيون ، ويهود ، كما حاول اصحابها تسريب تعاليم عقائدهم إلىٰ عقائد المسلمين .راجع التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص: ٧و٨ ، المعجم الفلسفي: مادة غنوصية.

بوذية يهودية بحته ، بل هي روحية انهزامية أنانية صرفة ، بينما الطرف الآخر أصبح بدون قيم أخلاقية ، بل مجرد مادي يمارس النشاط الذاتي الوحشي النفعي الابتزازي.

تفعلة العقل والوحي:

والحق يقال أنه لايوجد تعارض بين العقل والوحي، بل يوجد توافق وتكامل بينهما وهذا من الأُمور البديهية لدىٰ المسلم لأن العقل من الله قد وهبه للإنسان ليدرك به كل ماموجود في الكون ، وبه تحمل المسؤولية والأمانة ، والوحي كذلك من الله نزله علىٰ الإنسان لتحديد مسؤولياته وتزويده فيما وراء المدركات الحسية ليمثل دعوة الإنسان للإيمان بالحق والإصلاح والإعمار ، رغم أن الفارق بينهما واضح كل الوضوح وهو أن العقل يبقىٰ محدوداً جزئياً ويعتمد علىٰ المعرفة والخبرة، بينما الوحي يزوده ويمده بالمدركات الكلية في علاقة الكون معه وهو الخالق لهذا الكون ولهذا العقل ، وبهذا يكون العقل البشري يعمل ضمن توجيهات وإرشادات الوحي الإلهي. وفعلاً من خلال هذاالتفاعل بين الوحي والعقل بصورته الصحيحة يتكامل الإنسان ويسمو إلىٰ أعلىٰ درجات الرفعة والمنزلة الإنسانية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية والتربوية. أما إذا وقع التفاعل بشكل خاطئ وغير صحيح أو انفعال وانفصال بين العقل والوحي ، فالإنسان فعلاً يواجه النقص والقصور والخمول والتخبط في حياته الفردية الّتي تنعكس علىٰ المجتمع ، ولذا كان الغربيون إلىٰ وقت قريب جداً ، بل إلىٰ اليوم ، يدعون أن الحضارة الأغريقية هي أقدم الحضارات وأنها حضارة أصلية ومبتكرة ، ولكن التنقيبات الأثرية الحديثة نسفت هذا الادعاء ، إذ أثبتت التحريات الأثرية بالدلائل المادية الملموسة وباختباره كربون «١٤» الإشعاعي إن أقدم الحضارات عموماً هي الحضارة الإسلامية ، أي الحضارة الّتي رست عليها سفينة نوح لأنها الأرض التى شهدت أوّل

بناء بيت قروي، وأوّل زراعة، وأوّل رعي للحيوانات في الألف الثاني قبل الميلاد ، فسبق ذلك بلاد اليونان في هذا المجال بألف سنة ، وما يقال عن الزراعة وتربية الحيوانات يقال أيضاً عن صناعة الآلات واختراع العجلة والعربات والزوارق وصناعة الألبان وابتكار الكتابة والبحث في الآداب والعلوم وتشييد المدن والمعابد ونحت الأصنام ورسم الطقوس والشعائر الدينية. وفي جميع هذه الأُصول الحضارية كانت البدايات في العراق ، وبعد ذلك انتشرت إلىٰ البلاد الأُخرىٰ. وكانت الجزر الإيجية، وشبه جزيرة اليونان، وبلاد الرومان تقتبس من إنجازات الوطن العربي بعد مرور زمن طويل علىٰ ممارستها. ولذلك كانت البلاد العربية لها تأثير قوي فيالفكر الإنساني.

الفكر الديني في الاحقاب المختلفة :

تتميز الديانات القديمة عامة بالشرك والوثينة، وعبادة الأصنام، بالرغم من ظهور عقيدة التفريد ـ مرحلة متوسطة بين الشرك والتوحيد ، أي يتضمن الاعتقاد بوجود إله واحد دون نبذه عبادة الآلهة الأُخرىٰ ـ في عبادة بعض الشعوب مثل البابلين، وقدماء المصريين، والعبرانيين فيالعهود الأولىٰ من تاريخهم.

ولذا نجد الأُموريين في زمن حمواربي مثلاً أفردوا للإله مردخ مكانة خاصة بين الآلهة الأُخرىٰ ، وأفرد أخناتون آتون ، أي قرص الشمس ، بعبادة خاصة ورأىٰ مظهر الإله الواحد ، وصنع أقدم القرويين نماذج كثيرة لأصنام هذه الآلهة من الحجر أو الطين أوالفخار ، ووجدت أعداد منها في أقدم القرىٰ الزراعية في البلاد العربية نذكر منها علىٰ سبيل المثال: قرية جرمو بمحافظه السليمانية في شمال العراق وقرية حسونه بمحافظة نينوىٰ شمال العراق أيضاً[١]. كما تشترك الملاحم السومرية

---

١ - braidwood.r.andhowe.b.prehistoric.investigations.in.iraki.kurdistan.1960.pi.16.nos.7.11

والإغريقية في التمجيد بمآثر الفرد والدولة. ولانجد لهذا التفريد عند الإغريق أو الرومان. وفي بعض أقطار الدول العربية اتصفت رئاسة الدولة بالقدسية لأنه يمثل الإله على الأرض كما في العراق ، وفي بعض الأحايين بالألوهية كما في مصر.

أما الإغريق فلم يضفوا أي صفه مقدسة أو إلهية على حكامهم أو ملوكهم أثناء حياتهم. ولكن عبدوا أبطال تاريخهم بعد موتهم. أما الرومان فقد أدرجوا أسماء بعض أباطرتهم في قائمة الآلهة وكانوا ينشدون من وراء ذلك هدفاً سياسياً هو الإبقاء على ولاء الولايات للإمبراطورية وتوطيد دعائم الحكم الروماني فيها.

وتتصف الآلهة في عموم المعتقدات الدينية القديمة بالعدل والرحمة والخير وحماية الفرد والدولة على حد سواء من الأخطار ، ومع ذلك تظهر في بعضٍ منها قوى التدمير وإحداث العواصف والفيضانات والزلازل والأمراض ... لكن التيارات الفلسفية الأغريقية كانت تدك قواعدها عن قصد وعن غير قصد منذ عصر بركلس في القرن الخامس ق. م. ولذا كانت علاقة الفرد بالآلهة وتعصبه لها أقوى في الوطن العربي مما كانت عليه في بلاد اليونان[١].

---

١ - وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج مسقط - سلطنة عمان - من ١- ٣شعبان ١٤٠٥هـ ص:٣١٩

للعلم

لا

للجهل

للعلم لا للجهل

نحن نعلم أن الإسلام شن حرباً لا هوادة فيها علىٰ الجهل والجهالة، داعياً المسلم وغير المسلم إلىٰ التوجه لمنابع العلم والمعرفة، لكونهما الطريق الصحيح لمعرفة الله، وأسرار الطبيعة، وتحقيق التقدم العلمي والثقافي والاجتماعي و.. و.. وهاهو القرآن الكريم يوجه خطابه إلىٰ الناس ويدعوهم إلىٰ العلم فقال تعالىٰ ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[1]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[3]. وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾[4]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[5]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[6]. وقال الإمام عليّ عليه السلام: «أيها الناس لاخير في دين لاتفقه فيه»[7]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لو أتيت بشاب من شباب الشيعة لايتفقه

---

١ – الانعام:١٢٦.

٢ – النحل:١٣.

٣ – فاطر:٣٧.

٤ – الفرقان:٧٣.

٥ – القمر:١٧.

٦ – التوبة:١٢٢.

٧ – المعالم لابن الشهيد الثاني ص: ٢٦.

لأدبته»[١]. وقال أيضاً: «ليت السياط علىٰ رؤوس أصحابي حتىٰ يتفقهوا في الحلال والحرام»[٢]. وقال الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام: «تفقهوا في دين الله فإن الفقه مفتاح البصيرة ، وتمام العبادة، والسبب إلىٰ المنازل الرفيعة ، والترب الجليلة ، في الدين والدنيا ، وفضل الفقيه علىٰ العابد كفضل الشمس علىٰ الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرضَ الله له عملاً»[٣]. ولسنا بصدد بيان كل ماجاءت به المرجعية المعصومة حول الحث علىٰ العلم؛ ولكن ساقنا الحديث هذا علىٰ ماورد من بعض المتسائلين، والمتعصرنين، والمتعولمين، بأن العصر الّذي نزل فيه القرآن الكريم كان مختلفاً عن عصرنا الحديث عصر التقدم التكنولوجي والتطور العلمي. ويكفي لرد هذا الهراء أن القرآن الّذي نزل منذ خمسة عشر قرناً ويصفه الجاهلون بالتخلف عن العصرية الحديثة قد سبقه بما يقرب من ألفي سنة نزول أسفار التوراة لليهود. وها هم الآن في إسرائيل يدعون لإحياء تراث التوراة الأقدم من القرآن ، وهم ينفذون وصاياه في امتلاك أرض الميعاد، كما يدعون من الفرات إلىٰ النيل، وينفذون كل مالديهم من الوصايا، أو الأسفار، أو التلمود، أو بروتوكولات صهيون ، وهذا بحد ذاته تدمير للخلق والطاقات، وإهدار للعقل البشري والقيم والعود إلىٰ شريعة الغاب في النهب وسفك الدماء وهتك الأعراض ، ومع ذلك لم يتهمهم أحد بالرجعية والانهزامية، والتخلف والتحجر والجمود، ولم يمنعهم تدينهم بالشريعة القديمة علىٰ ما بها من تغيير أن يتطوروا ويتقدموا ... ثم إن هذا التأريخ العبري لليهود عندهم منذ الخليقة ، في حين أن التأريخ الإسلامي يبدأ من الهجرة النبوية ، ومع كل هذا وذاك فإن التأريخ اليهودي عندهم محترم ، فلماذا يتعرض تاريخنا وقرآننا ومرجعيتنا كلها إلىٰ

---

١ - فقه الإمام الصادق ٢: ٢٥٤.

٢ - المصدر السابق .

٣ - المعالم لابن الشهيد الثاني ص: ٢٦.

التهم والإساءة؟ ثم لماذا هم يتبجحون وخاصة زعماء اليهودية والمسيحية بما جاء به تاريخهم. ونحن نخجل أن نقول قال الله، وقال رسول الله، وقال الإمام، وقال العالم الإسلامي، والمفكر لأسلامي؟ والفيلسوف الإسلامي. ثم يتساءل بعضٌ عن العلاقة بين الحركة الّتي تؤمن بها الفلسفة الإسلامية، وبين النطرة السلبية الّتي تشغل ذهن المسلم؟ ولماذا يتفاعل العقل الأوربي مع واقع الحياة بشكل إيجابي بخلاف العقل الإسلامي الّذي لا يتفاعل تجاه حياته؟ وكل هذا ليس بسبب تقدم العقل الأوربي وتأخر العقل الإسلامي، بل بسبب فقدان الهوية والشخصية للمسلم علىٰ الرغم من أن الإسلام فجر الطاقات وحث علىٰ تفجيرها، لتكوين الإطار الّذي تتحرك الأُمّة من خلاله ولكي ينسجم هذا التحرك مع مشاعر هذه الأُمّة. وأن أي منهج لا يؤدي دوره الإيجابي الفعال إلا إذا اكتسب إطار المرجعية الصحيحة ، ولذا نجد الإنسان الأوربي دائماً ينطر إلىٰ الأرض لا إلىٰ السماء ، ولذا نجده يفتش عن أصل الإنسان أهو من فصائل الحيوانات البشرية أم الحيوانية أصلاً ثم تطورت إلىٰ إنسان اجتماعي؟ مكلف وأخذ يفسر الصرح الإنساني كلّه علىٰ أساس القوىٰ المنتجة ، وحتىٰ إله المسيحية أنزله الإنسانَ الأوربي إلىٰ الأرض، ثم جسَّده إلىٰ كائن أرضي ، ولذا انقطع الإنسان الأوربي عن الخالق وتعلق بالأرض ، ثم تعمق هذا الشعور عنده إلىٰ الفلسفة الوجودية الّتي وجد فيها آماله وأحاسيسه الفردية والأنانية الّتي تطبع بها لشعوره بالحرية المطلقة ، ثم في ضوء ذلك خطط وبرمج حياته الاقتصادية والثقافية و..و..ثم نشأت عنده القيم المادية والثرثرة العلمية علىٰ التراث الحضاري الإسلامي ، بينما نرىٰ الإنسان المسلم بنطرته إلىٰ السماء قلت عنده الإغراءات المادية ، ولذا أصبح لا يستطيع أن يمتزج مع واقعه المادي إلا بدوافع معنوية ، فإذا فقد هذا الإطار المعنوي تنقلب نطرته إلىٰ المادة بالشكل السلبي الّذي يتمثل بالزهد تارة، وبالقناعة تارة أُخرىٰ، وبالكسل والانعزال تارة ثالثة. لكن مع كل هذا يبقىٰ لدىٰ الإنسان المسلم شعور بأن هنالك رقابة خفية غير

منظورة تراقبه وترتب عليه المسؤولية الكبرىٰ أمام الله سبحانه وتعالىٰ وتبعده عن الحرية المطلقة الّتي يتمتع بها الإنسان الأوربي ، لأن التخطيط الرأسمالي أو الاشتراكي لاينسجم مع أخلاقية وتفكير المسلم، لأن أخلاقيته تحتاج إلىٰ تنظيم ونظام تلبس فيه الأرض لباس السماء فتتحول عنده النظرات الغيبية إلىٰ طاقات محركة في مجال الإعمار والاستثمار، والبذل والعطاء. لذا فإن السلبية الّتي أصابت المسلم لاتنبع عن طبيعة نظرته إلىٰ الغيبيات وإلىٰ السماء بل إنها نتيجة الضمور الّذي أصاب قواه في التحرك، وكذلك نتيجة المناهج الّتي قدمتها المدارس الأوربية له من خلال الشعارات البراقة والدعايات المغرضة ضد مرجعيته الأصيلة بحيث جعلته يخشىٰ أن يدعي بأنه مسلم، خوفاً من اتهامه بالنقص والجمود والتحجر ، وبما إنه لم يمتلك المعلومات الكافية والاطلاع الكافي علىٰ تراث مرجعيته المعصومة ، فنراه ينهزم أمام هؤلاء ثم ينسحب ويتخلىٰ عن إسلامه وعن جنسيته ، فالذنب ليس ذنب الإسلام ، بل الذنب ذنب المسلم الانهزامي الّذي بقيَ تابعاً لمايقوله ويغذيه الأوربي ويلقنه ، ونتج عن هذا التلقين عدم الاسقلالية بل التبعية الّتي هي ذات أبعاد وخصائص سياسية ودينية واجتماعية و...و...لأن الاستقلال بالتحرر من النفوذ والتسلط والتخبط الأجنبي هو عدم التبعية والّذي يكون في قبال الرزوح تحت وطأت الهيمنة الأوربية بكل أنواعها الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية تماماً كتبعية الطفل الرضيع فيتغذيته وإمكاناته الأُخرىٰ لاستدامة حياته لأمه. إن الّذي يقارن بين الحضارات يرىٰ ان مايميز هذه الحضارة الغربية الأوربية ينزع فكرة الشرق والغرب بمعناها السياسي ، حتىٰ الفيلسوف الألماني «أوزوالد شينجلر» قال: ان كل حضارة كان لها في فنونها ورسومها لون مميز ، فالحضارة الفرعونية كان لونها المميز هو الأسود ، لانها حضارة كانت تفكر بالموت وما بعده بدليل ما اقامته من مدافن وإهرامات ، وان الحضارة العربية كان لونها المميز هو اللون الذهبي لانها تؤمن بالمعجزة الخارقة للطبيعة ، واللون الذهبي لون ليس من ألوان الطبيعة ، أما

الحضارة الأوربية فقد عرفت لوناً مميزاً هو الازرق ، لانه ليس لوناً بل لون اللانهائي، فماء البحر ليس أزرق اللون ، ولكن أعماقه تعطيه هذا اللون، والسماء ليس لونها أزرق ، ولكن طبقات الجو في لا نهائيتها تعطيها هذا اللون[١].

ومن أهم أبعاد التبعية البعد الثقافي وفيه تكمن المخاطر لأن باقي الارتباطات كلها تهون وتأتي إلينا بكل يسر وسهولة ، وعلىٰ العكس من ذلك أن تقطع الجذور للبعد الثقافي الغربي السيِّئ يؤدي إلىٰ عود المسلم إلىٰ مرجعيته الأصلية، لأن الثقافة الإسلامية الثرة لا تبقي أي شك أو شبهة إلا ووجدت لها الحل الأمثل، لأن طرح الدين الإسلامي كنظام عالمي كامل حيٌّ مُحْيي يؤمن الحاجات المادية والمعنوية للبشرية في أي زمان، وفي أي مكان من الأرض بشكل مستقل بعيد عن أية تبعية، وذلك لأن الثقافة والتعاليم الإسلامية من خلال ارتباطها بالوحي قدمت أروع الأدوار في إعادة بناء المجتمع والشخصية الإسلامية ، وكان قيامها علىٰ أساس حضاري عالمي وذات قاعدة من القيم والمثل الإنسانية وحولت هذه القيم العليا من خلال المرجعية المعصومة. ذلك المجتمع المتأخر البعيد عن الخصال الإنسانية والّذي تسوده أنماط الفساد، والتحلل والجهل، والقتل والجرائم، والخيانات إلىٰ مجتمع المثل الّتي لانظير لها في الأُمّم السابقة ، ثم شعت هذه المثل إلىٰ البلاد المجاورة كإيران الّتي كانت ترزح تحت نيران الأكاسرة، وبلاد الروم الّتي ترزح تحت ظلم القياصرة آنذاك فجذبتها هذه المرجعية المعصومة إلىٰ الإسلام. ولقد امتاز تراث المرجعية وأثر في الجانب الثقافي في كل البلدان الّتي دخلها الإسلام وخاصة في شمال أفريقيا وأسبانيا والقسطنطينية «تركيا» ، وكان الاسقلال الثقافي مصوناً من أي تبعية طالما الإسلام حاكماً في البلاد.

---

١ - راجع كتاب العربي / الكتاب الثامن والثلاثون ١٥ اكتوبر ١٩٩٩م ص:٢٢٢.

البناء النفسي والثقافي:

من المعلوم والثابت أن الغزو الثقافي وخاصة بعد سيطرة الاستكبار العالمي علىٰ البلاد الإسلامية وتحكمه في مصير المسلمين، حولهم إلىٰ عبيد تابعين في كل شيء علىٰ الرغم من أن القرآن الكريم لم ولن يسمح مطلقاً بالتبعية ، وقد جاءت آيات تؤكد هذا المعنىٰ قال تعالىٰ: ﴿لن يجعل الله للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلاً﴾[١]. وقال تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[٢]. وهذا يعني منع المؤمنين من مودة المخالفين لهم في دينهم ، فكيف إذا كان الحال في التبعية في كل شيء وقالت الآية: ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾[٣]. وتعني أنهم لايدخرون وسعاً في إيجاد التفرقة بينكم وأفسادكم ثم ذكرت الآية: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾[٤]، أي أنهم يودون عذابكم وأن يصيبكم التعب الشديد وقالت الآية أيضاً:﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي أنهم أعلنوا عداوتهم لكم ثم ذكرت الآية بأن مافي صدور القوم أعظم وأكبر: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[٥]. ثم أن الآية ختمت بقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٦]. وهنا تأتي قيمة العقل البشري المرتبط بالوحي من خلال المرجعية المعصومة، ثم ينذر القرآن الكريم أتباعه بقوله تعالىٰ: ﴿هَاأَنتُمْ أُوْلاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

١ - وأنظر سورة آل عمران :١١٨و ١١٩و ١٢٠

٢ - آل عمران: ١١٨.

٣ - آل عمران: ١١٨.

٤ - آل عمران: ١١٨.

٥ - آل عمران: ١١٨.

٦ - آل عمران:١١٨.

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١]. ولم يكتف القرآن بهذا بل جاء قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٢]. وقال تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]. ثم هنالك جانب آخر أكَّده القرآن الكريم وهو الاستقلال الذاتي وعدم التبعية والاعتماد علىٰ النفس فقال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَهِنُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥]. ثم هنالك آيات تحذر من الخوف والضعف والخور كماقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٦].

فهذه الآيات توضح الخطوط العريضة للموقف الّذي يجب أن يتبعه ويتخذه المسلمون في قبال الكفار؛ وهو عدم الخضوع وعدم الإذعان للمستكبر الأوربي في الثقافة والمبدإ والعقيدة لأنهم لا يريدون الخير لهم ، والمسلمون في غنىٰ والحمد لله عن ثقافة هؤلاء في الحد الّذي لايسمح بالتبعية لهم. هذا من جانب ، ومن جانب آخر أن القرآن الكريم لايريد الوقوف بوجه هؤلاء ولايريد قطع الروابط الاجتماعية الّتي لا تهدد استقلال المسلمين وكيانهم ، ولايوجد دليل علىٰ تحريم هذه الروابط ولا علىٰ وجوب قطعها، ولذا نجد أن الرسول الأعظمﷺ في صدر

---

١ – آل عمران: ١١٩.

٢ – آل عمران: ١٢٠.

٣ – آل عمران:١٤٩.

٤ – النساء:١٤٤.

٥ – آل عمران :١٣٩

٦ – آل عمران:١٧٥.

الإسلام قد أبرم المعاهدات مع الكافرين ، ومتىٰ نقضوا هذه المعاهدات قام المسلمون بالرد عليهم بالقطع ، وربما أنجرَّ هذا الأمر إلىٰ الحرب. وخير دليل علىٰ ذلك الآية الكريمة الّتي سمحت للمسلمين بأن يسالموا الكفار الذين لايقصدون السوء والاستعلاء ولكن يبدون اللين والمسالمة ويقيموا معهم علائق العدل: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّـهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

إذاً الإسلام كشف نوع الخداع والزيف الّذي لجأ إليه المفكر الأوربي من أجل تطويع الدين لخدمة مصالحه، وتشويه حقائقه، وإبعاد المسلمين عن مرجعيته ، فعمدوا إلىٰ تخريج النصوص من سياقها واستغلالها، ثم تحويل وتأويل العديد منها لكي يتخذوا منها في النهاية سنداً وسداً لاستبدادهم وظلمهم. وهكذا فإن الإسلام قد استخلص التجديد والابتكار من القلب القديم وانتزع التقدم من باطن أيدولوجية «مبدأ» لم يكن يخدم إلا القوىٰ المتخلفة ، وما علينا إلا أن نبني أنفسنا ثقافياً ، ونكافح التخلف الثقافي والتعبير عن حرية الرأي المشروط والعدالة الاجتماعية والاستقلال بحيث يكون عكوف المثقف علىٰ صقل ذهنه وتكوين الأسس العقلية الّتي تقوده إلىٰ المسايرة في حركة الفكر والإبداع ، وبشرط أن لا يؤدي هذا النزوع إلىٰ العزلة الثقافية، وطغيان النزعة الثورية علىٰ شخصيته العقلية، وبالتالي يتحول إلىٰ طاقة لا ترتكز علىٰ عمق فكري كاف ، لأن المعركة هي الآن معركة بين الوعي الصادق الّذي يعتمد علىٰ المرجعية المعصومة والوعي الزائف ، ولذا نجد أن المعادلة بين الفكر الإسلامي وبين طموحاته هي معادله ناقصة لأنها تحتوي علىٰ طرف واحد ، بينما الطرف الآخر يحرم المفكر الإسلامي من الاقتراب له لأنه يمس

---

١ - آل عمران : ٦٤

الأسس والأُصول، وهو موضوع جذري، فيجد المفكر الإسلامي نفسه مضطراً إلىٰ الالتجاء والاكتفاء بمناقشة القشور دون اللباب، وإلىٰ أساليب الالتواء، وهذا بدوره أدىٰ إلىٰ حصار وانحسار الفكر والعقل، وبهذا وذاك اتخذ الفكر الصهيوني أوّل الأمر مظهراً محايداً أو علمياً خالصاً لكي ينبهر به بعض المثقفين المسلمين ثم يقنعوهم بأنهم قادرون علىٰ أن يقدموا إليهم عطاء له قيمته العلمية في هذه الميادين، وبعد أن يطمئن إليهم هؤلاء المثقفون المغفلون يبدأ التنقل الأيدولوجي وتبدأ القيم الفكرية الصهيونية في التسرب تدريجياً إلىٰ العقول علىٰ الرغم من أن الفكر الصهيوني والأيدولوجية الصهيونية مليئة بعوامل الضعف والانهيار والشعوذة والتعصب، ومن السهل جداً علىٰ المثقف والمفكر الإسلامي كشف زيفها وإظهار تفاهتها، ولولا التعصب الصهيوني لما اقتنع بها كثير من أصحابها.

لماذا التخوف من المد الإسلامي!؟

نعم الدين توأم من المعرفة والعمل فلا فائدة فيه إذا لم يفهم حق الفهم، والدين إذا فُهِمَ ووُعِيَ يكون مصلحاً للإنسان ومطوراً للمجتمع، لا إذا كان لعقاً علىٰ اللسان. ولذا نجد كثيراً من الفلاسفة ومن الرهبان اليهود ومن الحكام خافوا من الإسلام وخاصة القرآن الكريم لما فيه من تفجير الطاقات العلمية والبشرية، فأخذوا يطلقون الصيحات الواحدة تلو الأُخرىٰ محذرين أصحابهم من أفكار المرجعية المعصومة. ولسنا بصدد بيان كل ماجاء علىٰ لسان هؤلاء، بل نذكر مثالاً أو مثالين فقد قال «غلادستون»: «مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أُوربا السيطرة علىٰ الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[1].

وقال «غاردنر»: «إن القوة الّتي تكمن في الإسلام هي الّتي تخيف أُوربا».

---

١ - مبادىء الفلسفة، د.أ.س /ترجمة أحمد أمين ١٩٣٨م ط ٤.

وقال «هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً»: «لايوجد مكان علىٰ سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه ، فهو الدين الوحيد الّذي يميل الناس إلىٰ اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر». ويتبين من كلام هانوتو نوعٌ من التعصب لأوربا وللجنس الآري ، إلا أن حديثه عن المسلمين لا يخلو من بعض أوجه الصحة ، لأن بعض الطوائف الإسلامية تقوم مبادؤها علىٰ نوع من التعصب علىٰ الطوائف الإسلامية الأُخرىٰ ، ثم تقوم بعض الطوائف علىٰ إبراز الفروق الرئيسة بين المسلمين ، فكيف إذا كانت الفروق بين الإسلام والمسيحية من حيثُ طبيعةُ كل ديانة منهما ، ثم تركز علىٰ الخلافات وأوجه التناقض بين الدينين المسيحي والإسلامي ، ويصدر علىٰ المسلمين أحكاماً قاسية هوجاء. ويوجد رأي يذهب إلىٰ أن الإسلام دين ومدنية يتصلان مع الدين المسيحي بعروة الإخاء والتصاحب.

ويركز هانوتو في مقال نشره في جريدة الأهرام القاهرية[١]، علىٰ ضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية ، ويؤكد أن أُوربا لم تتقدم إلا بعد أن تم الفصل بين السلطتين...ثم نشر مقالاً ثانياً أشار فيه إلىٰ أن من قاموا بالرد عليه ـ ويقصد بذلك الشيخ محمّد عبده ـ قد تسرعوا في الحكم عليه ، ثم قال إن تقدم المسلمين يعد مستحيلاً لأن الإسلام دينهم يعوقهم عن ذلك ، فكلما تقدمت أُوربا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر مايسير الماشي ، وإن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت علىٰ النظام الأوربي علماً ومدنية فإنها قد نجحت ، بل كل مايود التنبيه إليه أن أوروبا الّتي تقدمت ، إنما مرجع تقدمها محاربة السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون ، وذلك لكي يَعُدَّ تقدُّمَ أوروبا وأمريكا وتأخُّرَ الشرق راجعاً إلىٰ أن الله تعالىٰ يميل إلىٰ أوروبا وأمريكا أكثر من ميله إلىٰ الشرق ، بل إن التقدم سببه العمل والاجتهاد ، والتأخر يكون سببه اليأس والتواكل والاستسلام والوقوف عند

---

١ - جريدة الأهرام القاهرية فييوليو عام ١٩٩٠.

التغني بأمجاد الماضي. إن الياباني لم يقم باحتقار الأجنبي لأنه عنصر غريب أو لأنه مسيحي يعد دينه بعيداً عن دين أهل اليابان ، بل إن اليابان لم تتقدم ألا عن طريق اعتقادها بضرورة محاربة أوروبا ، ولكن بسلاح أوروبا، أي أن تتشبه بأوروبا في العلم والمدينة والعمل. وإذا كانت النهضة العلمية قد بدأت في مصر وتم إنشاء العديد من المدارس إلا أن العبرة ليست بإقامة المدارس ، بل بوضع المناهج المدرسية ، فالعلم وحده لايكفي ، ولكن لابد وأن يخرج بالتهذيب. وهذا كلامه إن دلنا علىٰ شيء فإنما يدلنا علىٰ أن السلطة المدنية تعد أهم وأشد من الرابطة الدينية، ولم تتقدم أُوروبا إلا حينما جعلت السلطة المدنية قاعدتها الأولىٰ. وقال «البر شادذور»: «من يدري ؟ ربما يعود اليوم الّذي تصبح فيه بلاد الغرب مهددة بالمسلمين ، يهبطون إليها من السماء ، لغزو العالم مرة ثانية ، وفي الوقت المناسب... ثم يتابع ويقول: لست متنبئاً ، لكن الأمارات الدالة علىٰ هذه الاحتمالات كثيرة... ولن تقوىٰ الذرة ولا الصواريخ علىٰ وقف تيارها. وقال «أشعيا بومان»: «إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر علىٰ العالم الغربي من الإسلام ، لهذا الخوف أسباب ، منها: أن الإسلام منذ ظهر في مكّة لم يضعف عددياً ، بل أن أتباعه يزدادون باستمرار ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد... ويقول «فيليب فونداسي»: « أن من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسلام في هذا العالم وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام وأن تحاول علىٰ الأقل إيقاف انتشاره»[١].

غفلة أم تغافل؟

ومع هذا الخوف كلّه من قبل الأعداء ولكن مع الأسف الشديد أن الجهل قد أضر بالمسلم المثقف الّذي يدعي بأنه مثقف، وأخذ يركض ويلهث وراء مايقوله

---

١ - أنظر كتاب الأستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء .

الغرب ويتخوف أن ينسب نفسه إلىٰ الإسلام ، بل نجده يتلمس دائماً في بحثه حتىٰ فيما يتعلق بتراثه وتراث آبائه وأجداده في الدين ، والتأريخ ، والفلسفة ، والأدب ، مناهج الغربيين وثبت آراءهم ، وهذا من أكبر الآفات الّتي ما زالت تفتك بشبابنا وبلادنا ، وفي نفوسنا وعقولنا ، ولا تساعد علىٰ التخلص من سموم الغرب وغاياته الخبيثة ، ولذا لا عجب إن قلَّ ما نجد المثقف المسلم أو العربي قد كتب كتاباً بالعربية ولا يسشتشهد بالمصادر الغربية ، حتىٰ لكأنه يقول: كل مفكر غربي ، هو شهادته جائزة ، وهو علىٰ اطلاع ، وتخصص أكثر من المسلم العربي وغير العربي. ومع الأسف ضاع المثقف المسلم تحت وطأة المدّ الثقافي الغربي ، وتحت وطأة «غربنة» بعض مفكرينا الذين نهلوا من الغرب ثقافتهم ، وانبهروا به . لأنه لا يعرف قدر نفسه ، ولا يعرف حقوقه ، ولا ينتبه لقيمته وقيمة مرجعيته المعصومة ، باعتباره إنساناً ، ولايريد أن يوصل نفسه إلىٰ الكمال الإنساني ، ولا يعرف الحياة وغايتها ، ولا يعرف قدر حقه في الحياتين ، بل الحياة الدنيوية هو جاهل بها أيضاً ، ويتلف أيام عمره كالعابث بلحيته ، مع مايبقىٰ عليه من الوزر ، إذ لايعرف الخير كي يتبعه ، ولايعرف الشر كي يتجنبه ، ولايريد أن يهتدي ، ولذا نجده يعترض علىٰ القرآن والسنة النبوية وكم سمعنا من بليد وجاهل ينتقص نصاً شرعياً متواتراً ، وكم سمعنا من أمي لايفقه علماً يرد قاعدة دينية ، وكم سمعنا من عامي لايعرف قطاته من لهاته يستدرك علىٰ كبار جهابذة العلم، بل أصبح كالكرة بأيدي الغرب بعد أن تنكر للإسلام وخيم عليه الجهل الّذي يتصوره علماً حتىٰ ضاعت من وراء ذلك الصيحات والصرخات الصادرة من بعض مفكري الغرب أنفسهم من أمثال ، «بول ماسون أورسيل paul masson oursel»[١]، الّتي تقول: «إن تأريخ الفكر الغربي الفلسفي ، والعلمي ، والأدبي ، لايكتفي بنفسه. فتفسيره التأريخي يتطلب إعادة وضعه في وسط إنساني

---

١ - نقلاً عن العقل والشريعة د.مهدي فضل الله ص:٨.

واسع النطاق.

النهوض الإسلامي:

أن تأريخ الفكر الفلسفي ، والأدبي ، والعلمي الصحيح ، هو وحده التأريخ العالمي»، ولذا حذر القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ.....فَلاَ تَسْئَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ....﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزَواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[٥] .وقال النبي ﷺ: «العلم رأس الخير كلّه والجهل رأس الشر كله»[٦]. وقال الإمام الرضا؈: «صديق كل أمرءٍ عقله ، وعدوه جهله»[٧]. وقال الإمام علّي؈: «الجهل أصل كل شر». وقال أيضاً: «الجهل موت». وقال: « الجهل أدو الداء». وقال: « الجهل يزل القدم». وقال أيضاً: «من جهل وجوه الآراء أعيته

---

١ – الانفال:٢٢.

٢ – الحج:٣.

٣ – الحج:٨.

٤ – هود:٤٦.

٥ – البقرة:٦٧.

٦ – أصول الكافي باب العلم.

٧ – المصدر السابق.

الحيل».[١] وقال أيضاً: «ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلف». وقال الإمام الجوادعليه السلام: «من لم يعرف الموارد أعيته المصادر». وقال الإمام الصادقعليه السلام: «العامل علىٰ غير بصيرة كالسائر علىٰ غير طريق ، فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً»[٢].

إذاً يمتاز الإسلام بالواقعية في كل ماجاء به من عقائد وأحكام علمية ومثل وقيم خلقية. وهو يتفق مع الفطرة الإنسانية ويستجيب بتحفظ عجيب للغرائز وينسجم تماماً من سنن الكون ، هذه أُمّة القرآن في عقيدتها ومعاملاتها وأخلاقها علىٰ الصعيد النظري والتطبيقي ، وإن للقرآن خصوصية شمولية في بناء حضارة عالمية تعلو علىٰ سيادة دول العالم المتمثلة بهيئة الأُمّم المتحدة ، فالأُمّة الإسلامية سابقاً واليوم أيضاً أكفأ من كل الأُمّم والقوانين الوضعية بفضل المرجعية المعصومة ، ولكن بشرط العمل والتمسك بقيم الإسلام وأفكاره وأحكامه وأخلاقه ، وليس السر في نجاح الأُمّة الإسلامية بالعدد ، ولا بوجود الملايين من المسلمين ، بل وصلوا إلىٰ المليارات ولكن ـ هم غثاء كغثاء السيل ـ علىٰ الرغم من أن الكمال واضح لديهم من خلال رجوعهم إلىٰ مرجعيتهم الّتي لاتحتاج إلىٰ تعريف، لأن الكمال صفة وجودية يتصف بها الموجود. إن الملاحظ هو نوع الكمال وقيمته لا حجمه ومقداره وأن التكامل والحركة لموجود ما هي إلا عبارة عن التغيرات التدريجية الّتي تحصل بواسطة القوىٰ المودعة في خلقة الموجود القابل للكمال بعد تفجير طاقاته وتفاعله مع الحياة ، بشرط أن يكون هذا التفاعل منسجماً مع إطاره الخلقي ، بل يجب عليه أن يتفاعل ويمتزج معها بشكل حثيث لايحد من حركته شيء.

إذاً لاتوجد أية نظرية سلبية نابعة من العقيدة الإسلامية تجمد طاقات

---

١ ـ المصدر السابق .

٢ ـ الوسائل ١٨:باب ٤ ، باب صفات القاضي ح ١١.

الإنسان وتعزله عن المجتمع وعن تفاعله مع واقعه المادي ، كما وأن التخطيطات الاجتماعية والثقافية الأوربية مهما كان نوعها لا يمكن أن تنجح في بلاد المسلمين رغم الطاقات الهائلة الّتي تبذلها وسائل الإعلام والمناهج الدراسية في الجامعات الغربية وتدجين بعض المثقفين والمفكرين الإسلاميين الذين يدرسون في جامعاتهم وأقلامهم المأجورة الّتي تزكم رائحتها الأنوف بأموال المسلمين البترولية... ولاينبغي للإنسان المسلم أن يستضعف نفسه أمام كل هذه القوىٰ المسخرة له، بل يجب عليه أن يتحدىٰ ويقف بشموخ عالي الرأس أمام هؤلاء الأقزام ، لأن المسيرة الإنسانية يحكمها قانون ثابت وحقيقة واقعة محكومة بالاتجاه نحو الله باعتباره المثل الأعلىٰ المطلق ، وحين يكون هو المصدر، وهو راعي المسيرة والواضع لقوانينها تحل كثير من التناقضات لدىٰ الإنسان، لينطلق علىٰ بينة في ممارسة دور إيجابي علىٰ طول الطريق لأن مقاييس الخطر علىٰ هذا الطريق ليست ضيقة أو محدودة كما هي في ظل المفاهيم والتصورات الأخرىٰ.

التشكيك

في

أصالة الحضارة الإسلامية

التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية
«شبهات وافتراءات»

«١» شبهة عدم أصالة الحضارة الإسلامية:

أدعىٰ لويس: أن الحضارة الإسلامية الّتي ازدهرت في البلاد الإسلامية ليست من صنع العرب والإسلاميين القادمين من الصحراء...ولكنها صنعت بعد الفتوحات وبتعاون شعوب كثيرة...كما أن هذه الحضارة لم تكن إسلامية محضة لأن كثيراً من النصارىٰ واليهود والزرادشتيين قد أسهموا فيها...[١].

ثم يضيف لويس قائلاً: «ربما كان أعظم تأثير هو التأثير الهيليني وبخاصة في العلوم وفي الفلسفة وفي الفنون والمعمار ، وإلىٰ حد قليل في الآداب ، وكان التأثير الهيليني من الأهمية حتىٰ عدّ الإسلام الوريث الثالث بالاضافة إلىٰ اليونان واللاتين والنصرانية للمجد الهيليني ، ولكن هيلينية الإسلام هيلينية الشرق الأدنىٰ المتأخرة الّتي تم تعديلها بالتأثير الآرامي والنصراني فكان امتداداً دون انقطاع وليس إعادة اكتشاف كما حدث في الغرب» [٢].

لم يكن لويس هو أوّل من شكك في أصالة الحضارة الإسلامية فقد سبقه من المستشرقين جولد تسهير الّذي يربط بين الإسلام ونمو حضارته علىٰ النحو التالي: «الإسلام عند اكتمال نموه هو نتيجة تأثيرات مختلفة تكون بعضها باعتباره تصوراً وفهماً أخلاقياً للعالم، وباعتباره نظاماً قانونياً وعقدياً، حتىٰ أخذ شكله السنّي

---

١ - lewis.thearabs.op.cit.p.131

٢ - lewis.the arabs.op.cit.p.131

النهائي»[١]. ثم يقول: «ويبين ذلك إذا عرفنا أن نمو الإسلام مصطبغ نوعاً بالأفكار الهيلينستية ، ونظامه السياسي كما تكوَّن في عصر الخلفاء العباسيين يدل علىٰ الأفكار والنظريات السياسية الفارسية ، وتصوفه ليس إلا تمثلاً لتيار الآرار الهندية والأفلاطونية الجديدة الفلسفية[٢]. ثم يشير جولد تسهير إلىٰ قدرة الإسلام علىٰ أضواء كل الآراء السابقة وتمثلها مؤكداً قدرته علىٰ صهر تلك العناصر الأجنبية كلها في بوتقه واحده فأصبحت لا تبدو علىٰ حقيقتها إلا إذا حُلِّلت تحليلاً عميقاً وبحثت بحثاً نقدياًدقيقاً»[٣]. ومن المستشرقين الذين أنكروا أصالة الحضارة الإسلامية أيضاً«ديلاس أوليري» الّذي يقول: «والحق أن هذه الثقافة الإسلامية في أساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهيلينية الرومانية ، حتىٰ علم التوحيد الإسلامي قد تحدد وتطور بواسطة منابع هيلينية »[٤]. ويقول في موضع آخر: «وبدأ أثر الفكر الهيليني يظهر في نهاية العصر الأُموي في صورة نقد للأفكار المقبولة في علم التوحيد الإسلامي»[٥].

لكن من المستشرقين الذين أدركوا خطأ هذه الافتراءات هو «كارلو الفونسونالينو» الّذي يقول: «وادعىٰ كثير من الناس عالة القانون الإسلامي علىٰ الرومي كعلم. وهناك مؤلفون زعموا أنه لابد من أن يكون هناك ترجمات عربية

---

١ - أجناس جولد تسهير. العقيدة والشريعة فيالإسلام .ترجمة محمّد يوسف وآخريْن ص:١٠القاهره وبغداد. بدون تاريخ.

٢ - المصدر السابق ص:١١.

٣ - المصدر السابق .

٤ - ديلاس أوليري.الفكر العربيومكانته فيالتأريخ .ترجمة تمام حسان ومراجعة محمّد مصطفىٰ حلمي.القاهرة .بدون تاريخ ص:١٧,١٨

٥ - المصدر السابق .٩٨.

لكتب القانون الرومي[1]، ثم يؤكد أن هذه الكتب لم يعثر عليها حتىٰ عام «١٩٣٢» أي لا توجد ترجمة لها إلىٰ أي من اللغات الشرقية العبرانية والسريانية والقبطية والعربية والحبشية»[2].

ويؤكد محمّد حميد عطية كذلك عدم وجود أي ترجمة لأي كتاب للحقوق الأجنبية الرومية أو غيرها إلىٰ اللّغة العربية في عصر تشكل علم الفقه عند المسلمين»[3].

والحقيقة أن الّذي يفتري مثل هذه الافتراءات علىٰ الإسلام وحضارته فيها تجاهل حقيقة الدين الإسلامي ، وفي ذلك يقول محمّد عبدالله السمّان: «وليس عجيباً أن يفتري المستشرقون والمبشرون وأن يتجاهلوا أن الإسلام قد ظهر في زخم القيم الّتي لاتبتغي الإنسانية في عمومها ، ولا كرامة الإنسان وحريته وتحريره والأخذ بيده في طريق الرقي»[4] .

«٢» شبهة كون الحضارة الإسلامية ابداع مشترك لكل أهل الديانات :

وأما زعم لويس أن الحضارة الإسلامية شيدت بتعاون شعوب كثيرة غير العرب وأنها لم تكن إسلامية محضة فقد شارك أو سبق لويس هذه الفرية «زيغردهونكه» بقولها: «ولا أقول للحضارة الإسلامية ذلك، أن كثيراً من المسيحيين واليهود والمزديين والصابئة قد حملوا مشاعلها أيضاً»[5].

---

١ - نظريات فيعلاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي/هل للقانون الرومي تأثير علىٰ الفقه الإسلامي ص:٢٤ ط بيروت ١٩٧٣. ١٣٩٣

٢ - المصدر السابق .

٣ - تأثير الحقوق الرومية علىٰ الفقه الإسلامي في المصدر السابق ٢٥.٤٤.

٤ - الفكر الحضاري لدىٰ فقهاء الإسلام في الإسلام والحضارة ودور الشباب ٤٦٣. ط الرياض ١٤٠١.١٩٨١

٥ - شمس الله تسطع علىٰ الغرب ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ومراجعة مارون عيسىٰ الخوري

والحقيقة الّتي لا مرية فيها هي: أن أوّل من حمل مشعل هذه الحضارة هم العرب المسلمون لأن اللّغة الّتي كانت سائدة آنذاك هي اللّغة العربية ، ولأنها لغة القرآن الكريم. ويرىٰ محمّد فتحي عثمان أنه من الخطإ إطلاق اسم الحضارة العربية عليها ، مع التسليم بأهمية الطابع اللغوي الثقافي العربي في الحضارة الإسلامية. فإنه يخشىٰ مغبة الانزلاق إلىٰ المعاني العرقية عند أستعمال هذا الوصف ، كما يخشىٰ تجاهل الجماعات الإسلامية العرقية الأُخرىٰ الّتي لم يتح لها أن يستعرب لسانها»[١]. أما بالنسبة إلىٰ مشاركة عناصر غير مسلمة فيقول عثمان في رده علىٰ لويس: «... وإن وجود عناصر غير مسلمة في تلك المجتمعات الّتي أظلتها الحضارة الإسلامية لا ينبغي غلبة طابع معين علىٰ حضارة المجتمع ككل ، وهو طابع الإسلام الّذي يتجلىٰ في الأُصول العقدية الفكرية لتلك الحضارة وفي قاعدتها البشرية العامة ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية الملزمة وقيادتها الموجهة»[٢]. وهذه الحضارة إسلامية كما يقول عثمان عبدالقادر صافي: «...لكونها صدرت علىٰ أساس هو الركيزة الأولىٰ لها، وهو الوحي المتمثل بكتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ»[٣].

ولما كان الإسلام ديناً عالمياً فما يضيره أن نبغ أبناؤه من الفرس أو الهنود أو غيرهم ، وفي ذلك يقول محمّد محمّد حسين: «مهما تفرّق المسلمون في الأوطان والأجناس... فالدين وشريعته يوحدهم ويجمعهم علىٰ أنماط مشتركة وأذواق متقاربة ونظم اجتماعية واقتصادية واحدة »[٤].

بيروت ١٩٨٠ ـ ١٤٠٠ط ٤ ص:٣

١ - القيم الحضارية فيرسالة الإسلام .فيالإسلام والحضارة ص:٩٩

٢ - القيم الحضارية فيرسالة الإسلام .فيالإسلام والحضارة ص:٩٩

٣ - ماهية الحضارة الإسلامية فيالإسلام والحضارة ص:٦٥٨

٤ - الإسلام والحضارة الغربية بيروت ص:١٩١ ط ٥.عام ١٩٨٢.١٤٢٠ .

«٣» شبهة عجز اللغة العربية وقصورها:

أما قول لويس إن اللّغة العربية في هذه الحضارة ماهي إلا تعبير عن حياة البداوة، فلما أصبحت لغة الحضارة استعارت من اللغات الأُخرىٰ ، زاعماً أن بعض الكلمات الغريبة وجدت في القرآن الكريم ، فهذا جوابه واضح وبسيط جداً أن هذا النمط لاعيب فيه وخاصة في اللّغة العربية ، أو في كل لغة إذا كانت قادرة علىٰ أن تفي بحاجة المتكلمين ، ثم بعد ذلك أصبحت لغة العلم والمعرفة في العالم أجمع ، ولذا يقول العالم والفيلسوف الفرنسي «رينان»: «من أغرب ما وضع في التأريخ البشري وصعب حل سرّه انتشار اللّغة العربية ، فقد كانت هذه اللّغة غير معروفة بادئ ذي بدء ، فبدأت فجأة علىٰ غاية الكمال ، سَلْسة أية سلاسة ، غنية أي غنىٰ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلىٰ يومنا هذا أدنىٰ تعديل مهم فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة »[١] .

ولا أدري هل قرأ لويس بعض آيات القرآن الكريم أم لا؟ ولكن لم يقرأ! ولو قرأ لوجد كثير من النصوص الّتي تشير إلىٰ علم الفلك والحيوان والنبات والخلق والجبال ولذا يقول «موريس بوكاي» : «إن أوّل مايثير الدهشة في روح من يواجه هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة فهناك الخلق وعلم الفلك ، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، والتناسل الإنساني»[٢].

---

١ - الإسلام والحضارة العربية محمّد كرد عليّ ص: ١٨٠ نقلاًعن رينان من كتاب تاريخ اللغات السامية ط٣ القاهره ١٩٦٨ م .

٢ - المصدر السابق .

«٤» شبهة عدم وفاء اللغة العربية بالمصطلحات الدينية :

أما قول لويس بأن اللّغة العربية قد أخذت واستقت بعض الألفاظ والتعبيرات الدينية من اليهودية والنصرانية فينفي الدكتور محمّد خليفة بقوله: «لقد اكتسبت اللّغة العربية مصطلحاتها الدينية الجديدة في الإسلام من خلال المصدر الإلهي المتمثل بالقرآن الكريم ، فمعظم الألفاظ الدينية في العربية كانت مصطلحات إسلامية تعبر عن المفاهيم الدينية الإسلامية مما يعد إعجازاً لغوياً عظيماً خاصة ، بسبب القاعدة الدينية المشتركة بين اليهودية والمسيحية والإسلام كديانات توحيد» [١]. ثم يضيف قائلاً: «بأن الألفاظ الدينية اليهودية والمسيحية الّتي وردت في القرآن أو في الحديث إنما وردت من أجل نقدها إسلامياً وإظهار فسادها»[٢]. ثم هنالك شهادات كثيرة من قبل المستشرقين أنفسهم بإنجازات الحضارة الإسلامية ومنهم علىٰ سبيل المثال لا الحصر «دومنيك سورديل» الّذي يقول: « في ظل الإسلام نمت مجموعة من العلوم ، ولم يكتف العرب والفرس بنقل التراثين الفكريين الإغريقي والهندي إلىٰ أوربا ، بل أضافوا إليهما ملاحظات عديدة واكتشافات مهمة»[٣]. ويقول «جوستاف لوبون»: «لم يتفق لأُمّة مااتفق للعرب من النفوذ ، والأُمّم الّتي كانت لها سيادة في العالم كالآشوريين والفرس والمصريين...وتوارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة...والعرب وإن تواروا أيضاً لم تزل عناصر حضارتهم ، وإن شئت فقل دياناتهم ولغتهم وفنونهم حيّة»[٤]. ولذا يقول المؤرخ «لين بول»: «انشأ العرب

---

١ - علاقات الأدب العربي القديم بالاداب السامية القديمة .فيمجلة الأدب المقارن في العالم الإسلامي القاهرة الكتاب السنوي ص: ١٩٩١.٧٣

٢ - المصدر السابق .

٣ - قالوا عن الإسلام الدكتور عماد الدين خليل ص:٣٦٩ ط الرياض ١٤١٢نقلاً عن دومنيك الإسلام ترجمة خليل الجر .سلسلة ماذا أعرف بيروت ص:٩٥ عام ١٩٧٧ م.

٤ - حضارة العرب لوبون ص:٢٦

حكومة قرطبة الّتي كانت اعجوبة العصور الوسطىٰ! بينما كانت أُوربا تتخبط في ظلمات الجهل ، فلم يكن سوىٰ المسلمين من اقام بها منائر العلم والمعرفة والمدنية»[١].

«٥» شبهة العقلية الذرية للمسلم :

ثم يصف لويس العقلية الإسلامية بأنها عقلية المسلم الذرية ، ويعني بالذرية العقلية الجامدة المتحجرة الّتي لاتقبل الحوار والنقاش والجدال ، بل إنها تقبل الشريعة والوحي بدون نقد ، ولم تقبل أن يخضع تراثها الديني للنقد كما فعل الغرب، ثم أضاف: إن علم التأريخ عند العرب لم يتطور. والحقيقة الّتي يمكن أن تقال أن لويس أخذ يحشد كل أفكاره ثم يطلق الأحكام علىٰالمسلمين وعلىٰ تراثهم وتاريخهم جزافاً بعد أن تلاعب بالألفاظ والمصطلحات ، وإلا فكيف يكون عقل المسلم يشبه الذرة ولايهتم بالنظرة الكونية والكلية والشمولية وهو الّذي نزل عليه كتاب الله وأوضح له بداية خلقه ونهايته وعلائق البشر بعضهم ببعض؟ وقد سبق وان أشرنا إلىٰ الآيات الّتي تدعو الفرد المسلم إلىٰ التفكر في آفاق السماوات والأرض ، وهو الّذي أخرجهم من الظلمات إلىٰ النور ، وحدثهم عن العقائد اليهودية والنصرانية وما فعلت تلك الأُمّم من تحريف وتزييف بكتبها ثم أضفت عليها طابع القداسة وعدم المساس بها ، وخير شاهد علىٰ ذلك تحريف اليهود لكتابهم ، ثم أن لويس لم يهتم بفضل وبيان الحضاره الإسلامية علىٰ الحضارة الغربية بل علىٰ العكس أسهب في تأثير الحضارة الغربية علىٰ الحضارة الإسلامية وهذا عيب علىٰ الباحث الّذي يدعي التخصص ، ويعد عيباً في الابتعاد عن المنهجية الموضوعية والنزاهة والحياد ، ويصدق عليه قول المستشرق «مونتجمري وات» الّذي كتب يقول: «فإننا معشر

---

١ - راجع كتاب العربي / الكتاب الثامن والثلاثون ١٥ اكتوبر ١٩٩٩م.

الأوربين نأبىٰ في عناد أن نقر بفضل الإسلام الحضاري علينا ، ونميل أحياناً تجاهلاً إلىٰ التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا ، بل ونتجاهل التأثير أحياناً تجاهلاً تاماً» [١].

فهذه زيغرد هونكه تتحدث عن الطب عند المسُلمين فتقول: « ثم أين هـو البلد الّذي عرف فيه الطب بشموليته وعمقه وأزدهاره كما كان الطب العربي...وإن وسائل العلاج عندهم تتحدث ببلاغة عن عظمة أبحاثهم ، كـما إن عـلم الصـحة عندهم لأروع مثل يضرب ، ولِمَ العجب والدهشة والوضع كما نـعلم؟ ألم يـطلب الفرنجة مساعدة العرب الطبية ويلحوا في التماسها»؟[٢].

وهذاالمستشرق الفرنسي روجيه أرنالدز [٣] يقول: «ما آخذه علىٰ الفلاسفة العرب المعاصرين ، أنهم تأثروا كثيراًبالفكر غير العربي. إنهم يترجمون كثيراً. وهذه ظاهرة لافتة ومهمة .فمن الضروري أن يلم الفلاسفة العرب المعاصرون بالفلسفات غير العربية ، لكن غالباً ما تشكل هذه الترجمات لهؤلاء المفكرين ، المادة الجاهزة الّتي يعتمدونها لبناء فكرهم الخاص. وآمل أن يؤسس الفلاسفة العـرب ، فـلسفة عربية خاصة ، دون أن ينغلقوا علىٰ الفلسفات غير العربية ، وأن يخلقوا فكراً عربياً أكثر استقلالاً ، انطلاقاً من تراثهم وتقاليدهم ، خاصة أن لديهم تراثاً غنياً ، ديـنياً وصوفياً ، وفكرياً ، وأعني بالطبع ، فلاسفة المسلمين .

إذاً يجب أن ينطلقوا من هذا التراث الرائع ، ليبحثوا في ضوئه فـي القـضايا المطروحة الآن ، فيضيفوا إلىٰ تطور الفكر الفلسفي ، ملامح خـاصة ومـميزة. ولا أنسىٰ الفلاسفة المسيحيين العرب أيضاً ، وعليهم أن يـفيدوا بـدورهم مـن الفكـر

---

١ - فضل الإسلام ص:٨

٢- هونكه المصدر السابق ص:٢١٧.

٣ - استاذ سابق في جامعة باريس ـ السوربون ـ وواحد من قلة من المستشرقين الموضوعيين .

الإسلامي ، لأن لغتهم عربية ، واللّغة العربية كانت لغة هذا الفكر. وهكذا يتمكنون من التوفيق بين انتماءاتهم الخاصة والفكر الإسلامي ، وكذلك بين الفلسفات الغربية والفلسفة الإسلامية ، ويؤدون دوراً بارزاً. الفلسفة كلية وشاملة من الناحية الكونية والإنسانية. وكل فلسفة تنطلق من ظروفها المكانية والزمانية وتحمل خصائصها المميزة ، إنما تصب في مجموع الفلسفات المتناغمة»[1] .

«٦» شبهة عدم منطقية موقف المسلمين من الحضارة الغربية :

ثم يتهم لويس موقف المسلمين من الحضارة الغربية ويدعي بأنه موقف الحقد والكراهية حيث يقول: «وحل محل الإعجاب والتقليد الغيرة الحاقدة ، وقد ساعد علىٰ هذا التغيير بلا شك فشلنا السياسي والأخلاقي المؤسف وقد ساعد علىٰ ذلك أيضاً ما تعلموه منا من دروس الحرية واحترام القيم الإنسانية» [2].

ثم يستشهد بأن الحضارة الإسلامية أصبحت خاوية من الروح العلمية وإن البحث العلمي الإسلامي الّذي كان عظيماً ، كما يدعي محمّد اقبال يوماً ما ، قد صغر وهزل منذ مدة طويلة ومات تاركاً مجتمعاً مقاوماً بقوة للروح العلمية[3]، ويستشهد بقول مؤرخ تركي بأن الموجة العلمية تحطمت علىٰ سدود الآداب والشريعة»[4].

«٧» شبهة العقلية الخيالية للمسلم :

ثم يطلق لويس النظريات الخاطئة عن الروح العلمية لدىٰ المجتمع الإسلامي، وهذه النظرة هي نظرة استشراقية عامة قد سبقه بها أو ورثها لويس من

---

١ - مقابلة اجرتها معه جريدة النهار البيروتية،تاريخ ٦/ ٤/ ١٩٨٥م .

٢ - ibid.p.45 - 46-

٣ - ibib.p.43-

٤ - ibib.p.43-

أُستاذه «هاملتون جب» الّذي اتهم العقلية الإسلامية ، والعربية بالخصوص ، بالخيال والغيبيات حيث يقول: «إن رفض مناهج البحث العقلية والأخلاق النفعية الحديثة ليس مرده إلىٰ مايسمىٰ بتعمية الشعب عن الثقافة من جانب فقهاء الإسلام ، بل إنه نتيجة لذرية الخيال العربي والطريقة الّتي يواجه بها الأشياء منفصلة عن بعضها البعض» [١]. ويمكن الرد علىٰ لويس بأن النهضة الإسلامية قد قادها مفكرون إسلاميون كبار قد ذكرناهم سابقاً من الشيخ المفيد، والبيروني و..و..أما زعم لويس بغياب النقد الذاتي فهو باطل بدليل الآية الكريمة: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٢]. وهذه الآية تحث النفس البشرية علىٰ المراجعة والمحاسبة ولوم النفس علىٰ ما عملت ثم حثت الشريعة الإسلامية الفرد أن يختلي بنفسه ويحاسبها حتىٰ يعرف الإيجابيات والسلبيات ويصحح مسيرته[٣] .

«٨» شبة قصور الحضارة الإسلامية أمام المد الحضاري الغربي:

ويؤكد لويس علىٰ أنَّ نظرة العرب المسلمين إلىٰ الغرب هي نظرة صراع بين حضارتين الإسلام والمسيحية ، لكن الخطأ الّذي وقع فيه هو تشكيكه في قدرة المسلم الذكي الحساس تجاهل تبعيته الفكرية والثقافية للغرب...ثم يؤكد أن استسلام العرب والمسلمين للتبعية والسيطرة الغربية ليس نتيجة لعدم توفر القدرات لدىٰ هذه الشعوب ، بل هو تخطيط ماكر استخدمت فيه جميع الوسائل لاستمراره وفي هذا يقول توفيق الشاوي: «إن الضغوط الاجتماعية والمطامع الاستعمارية

---

١ - الاتجاهات الحديثة ص:٢٣

٢ - القيامة :٢

٣ - أنظر ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية د. خالص جلبي في النقد الذاتي ط بيروت ص:٢١-٢ عام ١٤٠٤هـ

والخطط التوسعية للدول الكبرىٰ لها دور كبير في استمرار التبعية للدول الغربية[١].

الغاية من إثارة هذه الشبهات:

وكل محاولات لويس هذه لكي يجعل الصراع قائماً بين حضارتين ـ المسيحية والإسلام ـ ثم يتحدث لويس قائلاً: «دعنا الآن من القيم الأخلاقية الّتي يجب أن يقام لها وزن في الموضوع. ولنسأل أنفسنا هل سياسة القوة هذه ممكنة أو مرغوبة؟ وما هي نتائجها ياترىٰ في آسيا وأفريقيا..؟ وحتىٰ في أُوربا وأمريكا...؟ هل هناك حلاّن لاثالث لهما...سياسة التهدئة، وسياسة السيطرة؟ وهل نستمر في معاملة العرب كأطفال ـ مدللين ـ يستحقون: إما الضرب والحبس في غرفهم، أو أغراقهم بالحلوىٰ والغطاء ليسكتوا أو يهدأوا؟ أليس هناك طريقة للوصول إلىٰ علاقات منطقية طبيعية تبنىٰ علىٰ التقدير الواقعي لمصالح وحاجات وظروف الطرفين؟ »[٢].

وبعد كل هذا يريد لويس أن يطبع المسلمين بطابع هو كلما اقترب المسلمون من النموذج الغربي كان هذا أقرب إلىٰ رضىٰ الغرب ، ثم يرفض التزاوج بين الحضارتين، ويقول أن نتيجة التزاوج هيليست بأحسن مافيها بلْ هي أسوأ مافيها ، ثم يبرر ذلك الأسوأ نتيجة لما في الحضارة الإسلامية ، وبهذه وغيرها لم يكن لويس أصيلاً في تناول هذه النقطة وقد شارك لويس في هذه النقطة. «موروبيرجر» الّذي قال: «والعرب يحبون القول أنهم يريدون أن يستعيروا «خير» مافي الحياة الغربية متمسكين في الوقت نفسه بـ«خير» مافي تراثهم ، وهذا يعني الرغبة في العالم الغربي والتكنولوجيا الغربية دون القيم الغربية ، ولكن العرب في السنوات الأخيرة قد

---

١ ـ الشاوي مصدر سابق ص:٤٧

٢ ـ الغرب والشرق الأوسط لويس ص:٢١٧

أخذوا يدركون أنه ليس من اليسير استعارة تكنيك ما دون أن يوجدوا أوّل الأمر قيمة تتصل بهذا التكنيك ، أو في الأقل ينّمون هذه القيمة فيما بعد»[١].

أخذ وردّ مع هذه الشبهات:

وبعد كل هذا نحن نسأل لويس لماذا يريد الغرب من العالم الإسلامي أن يتخلىٰ عن عقيدته وعن شخصيته الإسلامية؟ ونحن نعتقد أن الإجابه بسيطة أيضاً وهي أن شخصية المسلم مستقلة تمام الاستقلال ، وبما أنها مستقلة فتكون حاجزاًيهدد المصالح الغربية الاقتصادية [٢]. ثم أن لويس لم يقدم لنا ولو نموذجاً واحداً عن التزاوج الأسوأ. والسؤال الّذي نطرحه ألم يأخذ الغرب في بداية نهضته من الإسلام الكثير الكثير من القيم والمثل والمعارف ومناهج البحث العلمي كما أخذ من المسلمين التأريخ واللّغة والجغرافيا والطب والهندسة ولكنه ألتفت إلىٰ جذوره الوثنية وإلىٰ النصرانية المحرفة وتمسك بها كما تمسك بالفلسفة المادية؟[٣].

ألم يعترف لويس بفشل الغرب السياسي والأخلاقي المؤسف...؟ ثم نسأل أين الغيرة الحاقدة...هل هي عند المسلمين أم عند الغرب في حروبه الصليبية، ونهب كنوز العالم الإسلامي وثرواته الطبيعية، ومخطوطاته، ومكتباته، وآثاره؟ وهل علّم الغرب المسلمين دروساً في الحرية واحترام القيم الإنسانية؟ ألم يكن هذا من المنطق المعكوس كما يعلم من يصادر حرية الآخرين في حكم أنفسهم؟ هذه هي الحرية تعلمها المسلمون من كتابهم الكريم ، وهي أوّل حقوق البشر الّتي أعطاها الله سبحانه وتعالىٰ في حرية الاختيار: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٤].

---

١ ـ العالم العربي‌اليوم /ترجمة محي الدين محمّد بيروت .دار مجلة شعر ص:٣٣٦عام ١٩٦٣.

٢ ـ الإسلام والحضارة الغربية محمّد حسين ص:٤٢.

٣ ـ أنظر الغزو الفكري وهم أم حقيقة الدكتور محمّد عمارة ط القاهرة ص:٣٤ ـ ٢٦عام ١٤٠٩ هـ.

٤ ـ الإنسان:٣

وقوله تعالىٰ :﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[١].

ويعلق الأستاذ توفيق الشاوي علىٰ هذه الفقرة ويقول: «إذا كان القرآن قد قرر حرية اختيار الإنسان لعقيدته الدينية ، فإنه من باب أولىٰ يضمن له حرية الرأي والاعتقاد في جميع الشؤون الفكرية والاجتماعية والسياسية[٢]. كما علمهم القرآن الكريم احترام الإنسان وتكريمه قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٣]. وأكدت الشريعة الإسلامية حماية حقوق الفرد الأساسية وأطلقت عليها: مصالح ، حرمات ، والحرمات هي: النفس ، والعقل ، والعقيدة ، والعرض ، والمال.

نظرة ناقصة :

ويحاول لويس أن يحدد طريقة التعامل مع المسلمين ، وهل يستخدم معهم سياسة القوة أو سياسة التهدئة؟ ثم يصور لنا بأن العرب كالأطفال المدلّلين. وهذا التصوير فيه روح الغطرسة والأنانية الحاقدة ، وهو خروج عن المنهج العلمي للباحث المنصف الّذي يحترم العلم والتأريخ والقلم. ثم يضيف لويس قائلاً أن الغرب يتطلع إلىٰ السيطرة علىٰ هذه المنطقة لأن مصالحه متوقفة علىٰ الثروات الطبيعية من البترول وغيره. والمصالح تتحد في السيطرة علىٰ هذه الثروات. كما أن مصلحة الغرب أن يكف عن دعم وإمداد دولة اليهود ، ثم يدعو إلىٰ ضرورة التفاهم مع القومية العربية ، وهذا يعني بحد ذاته إهمال الجانب الإسلامي تماماً ، بل التعامل مع الأيدولوجيات والقوميات النصرانية واليهودية ، لأنه يعرف أن الإسلام ينبذ القومية ، ويعرف تماماً بأن المسلم أصبح أمام خيارين لاثالث لهما ، إما أن يصبح

---

١ - البقرة :٢٥٦

٢ - فقه الشورىٰ المنصورة /دار الوفاء ص:٣٠٨ عام ١٤١٢ هـ

٣ - الإسراء :٧٠

رأسمالياً أو شيوعياً ويتنازل عن خصوصياته وعن ذاته وهويته وحضارته ومعتقداته ، لأن حضارته الإسلامية قامت علىٰ أساس المعطيات الدينية ، كالتوحيد والإنسانية الّتي لا تفرق بين شعب وآخر إلا علىٰ أساس التقوىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثىٰ وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١]. ونبع تحت ظل هذه الحضارة علماء من جميع الأجناس والشعوب ، كما أن الحضارة الإسلامية متسامحة ، لأنها حضارة إنسانية وقائمة علىٰ مبادئ ومخاطبة العقل والعاطفة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢].

تفرقة ومغالطة غير علمية :

ثم أن لويس أخذ يفرق بين كتابة المؤرخ الإسلامي الّذي يتأثر بالبيئة حسب رأيه ، وبين المؤرخ الحر الّذي لايتبنىٰ مواقف معينة نتيجة الضغوط من قبل السلطة السياسية أو الدينية. ثم يحاول أن يثبت هذه النظرية في موضع آخر حيث يقول: «العالم لايحاول أن يثبت أي شيء حتىٰ يقوم بفحص الشواهد ، وتشكيل فرضياته ، وعند ذلك يصل إلىٰ حكمه ، فإذا كان محظوظاً بالعيش في مجتمع حر قام بنشر نتائج بحوثه خاضعه فقط لضميره العلمي. إن جوهر هذا أن يكون أميناً ، وأن يذكر الأدلة المستخدمة وكيفية تفسيرها ، أما عدم الأمانة فيتمثل في استخدام جزء من الأدلة وإخفاء بقيتها ، وأن تختار ما يناسبك وتترك مالا يناسبك...وقد تكون هذه الكتابة متعصبة أو دعاية للإقناع أو دعاية فعالة ، ولكنها ليست كتابة علمية ... هذا التقسيم يحتوي علىٰ مغالطات كثيرة ولسنا بصدد بيانها ومناقشتها ، بل نقول هذا في البحث العلمي والموضوعي هو تقسيم غير صحيح ـ عالم حر، وعالم

---

١ - الحجرات ص:١٣

٢ - البقرة:٢٥٦.

غير حر ـ وكتابة حرة وكتابة غير حرة أي مقيدة. ومن قال إن المؤرخ في العالم الحر يلتزم بالموضوعية حول التأريخ الإسلامي مثلاً ، بل المتبادر إلىٰ الذهن أن العالم الحر هو بعيد كل البعد عن الموضوعية ، كما اتضح ذلك من كتابة المستشرقين حول الإسلام كما أن كثيراً من العلماء في العالم غير الحر قد تفوق في الموضوعية والإنصاف علىٰ كثير من العلماء المستشرقين ، ثم أن بعض المستشرقين قد تتلمذ علىٰ يد الإسلامين والعكس صحيح ، فالموضوعية ليست قضية مطلقة يمكن نسبتها إلىٰ مجتمع دون آخر أو بيئة دون بيئة.[١] ثم أن لويس نفسه يعترف بأن بعض المستشرقين عند كتابتهم للتأريخ الإسلامي ابتعدوا عن الموضوعية حيث قال: « إن بعض المستشرقين ينساقون وراء تعصبهم وانتمائهم ، فيخفون تعصبهم خلف الصفحات المثقلة بالهوامش والاقتباسات»[٢]. و قال أيضاً في معرض انتقاده للمستشرق لامانس :«... كان عالماً مقتدراً ، وقدم بعض الأعمال المهمة ، ولكن هدفه كان التعصب ضد الإسلام ، لقد كانت عداوته حقيقية ضد الإسلام... ليس ثمة شك أنه لم يكن ينظر إلىٰ الإسلام بطريقة موضوعية أو حيادية ، يجب أن لايكون هناك فرق عند البحث في الإسلام بين الباحث المسلم وغير المسلم. و «لامانس» لم يكن يفعل ذلك لقد كان ينظر إلىٰ الإسلام كدين منافس وعدو»[٣] .

إذاً الانبهار بالفكر الغربي وبالحضارة الغربية ، لما توصلا إليه من إنجازات مادية مشهودة غيرت الحياة اليومية للإنسان تغييراً جذرياً ، ووفرت له من الوقت ومن الجهد ومن الرفاه ما كان يعد خيالاً...بينما نرىٰ الاضطراب في المنهجية الإسلامية بعد القرن الخامس وسقوط الفكر الإسلامي تدريجياً في نفي الأسباب

---

١ - علم التأريخ عند المسلمين فرانزروزنثال / ترجمة صالح أحمد العلي ط٢ بيروت ص:٢٦٧ سنة١٤٠٣هـ

٢ - lewis .thearabs.op.cit.p.63-

٣ - المصدر السابق .

بما ساد من التصوف ، وفي إسقاط الماضي علىٰ المشاكل الراهنة بما ساد من إعراض عن الحوار المباشر مع الواقع حينذاك ، آلت الحضارة الإسلامية إلىٰ الضمور شيئاً فشيئاً بعدما كانت حضارة مشهودة طيلة قرون عديدة من الحياة الإسلامية ، ولم تكن إلا بفعل تلك المنهجية القائمة علىٰ إحسان الجدال بين تعاليم العقيدة المجردة من جهة وبين مجالات الواقع من جهة أُخرىٰ ، وهي منهجية متأتية من خصائص المرجعية المعصومة، ومن البنية العقلية الّتي صنعتها العقيدة الإسلامية فيما غيرت من مفاهيم عن علاقة الإنسان بالكون ومكانته فيه ، ودوره في عمارته(١).

طريق الخلاص من المغلوبية الحضارية:

ثم يوجد عامل آخر في نهوض الحضارة الإسلامية وهو الرجوع إلىٰ الذات والتأمل في الهوية الإسلامية من حيثُ إنها أمل الخلاص من هذه المغلوبية الحضارية إزاء الغرب ، كما أنها كانت سبب الأزدهار الحضاري بالأمس ، وهذا المنهج تبناه التيار الإسلامي بالرجوع إلىٰ الهوية الإسلامية ، وقد مثل الرد الفعلي علىٰ التحدي الحضاري الغربي ، ولذا قال جمال الدين: «إنا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا علىٰ قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه...ولايمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق...ولابد لنا من حركة دينية...وهي اهتمامنا بقلع مارسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية علىٰ غير وجهها الحقيقي وبعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة (٢). ثم تطور هذا التيار حتىٰ وصل إلىٰ أوج عظمته بوصول التيار الخميني الّذي أصبح يتبناه الكثير من المفكرين الإسلاميين في شتىٰ أنحاء العالم ،

---

١ - تجديد التفكير الديني في الإسلام محمّد إقبال ص:١٤٦ ط ٢ القاهرة ١٩٦٨ م .

٢ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص:٣٢٧ط دار الكتاب العربي للنشر القاهرة ١٩٦٨.

وقد أثمر هذا التيار فكراً وعقيدة وثقافة ، واجتماعياً وسياسياً علىٰ نحو تكوين دولة إسلامية تستقطب جحافل الشباب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وهذا المنهج في واقعه منهجٌ رشيدٌ في إطاره الزمني بعد أن ران علىٰ المسلمين الانحطاط فخفتت في نفوسهم كثير من الحقائق العقدية وانسحبت من مجال حياتهم السياسية والاجتماعية كثير من الحقائق الشرعية ، حتىٰ كاد ينحصر الدين عند الكثيرين في مظاهر لاقيمة لها عند الله ، بل انحصرت بالمعنىٰ الضيق جداً وهي الطقوس الدينية الخاوية. وبعدما دخل الانبهار بالحضارة الغربية ومنجزاتها الفاشية ، وهو الّذي سمّي فيما بعد بالمنهج التعطيلي الّذي نشأ من عدم تبصر بفقه الأحكام الإسلامية المستفاد من النص المتصف بالثبوت والدوام عبر الزمن ، ومن ناحية آخرىٰ فهو مقيد ، كما في حدِّ السرقة ، فإنه ثابت بالنص ، وهو باق علىٰ مرِّ الزمن ، ولكن وقوع الحكم مرتبط بالظروف المناسبة ، لاكما يقول القائل: فقد يجد المجتمع الراهن عقاباً لجريمة السرقة غير العقوبة في المجتمع البدوي ، وكذلك بالنسبة للحجاب الّذي فرض بالمدينة. فالقطع الّذي قرره القرآن عقاباً للسارق هو شريعة بدوية مثل عقيدة الدهر! وكذلك الحجاب: كان مناسباً للمدينة المنورة ، ولم يعد مناسباً للقاهرة...في القرن العشرين [1]. فدعاوىٰ روح الإسلام ، والتسامح ، والوسطية ، الّتي يدندن حولها العقلانيون وأسيادهم ثم أذنابهم ما هي إلا كلمات كلاًّ منها يناقض الآخر تمام التناقض ، ولوجدت أن من النادر أن تعثر علىٰ شيء متفق عليه فيما بينهم جميعاً ، بل إنهم يضربون بعقولهم فيما يخلق العقل مهيئاً وحدة لإدراكه ، فهم علىٰ الحقيقة يخوضون في بحار عالم الغيب الّذي ليس لديهم أي دليل أو أثارة من علم بشأنه ، ولذا كانت البشرية بحاجة إلىٰ مصدر آخر للمعرفة فوق مستوىٰ البشرية بجوار العقل والحواس ألا وهو الوحي . نعم روح الإسلام هي الأساس...لكن دون

---

١ - نقلاً عن «أساطير المعاصرين» للدكتور أحمد عبد الرحمن ص :١٥٢.

تفريط بالعقائد ، أو الشرايع ، أو الأحكام!.

تعطيلٌ لتعطيل عقل المسلم:

لكن مقولة التعطيل خلطت بين الحكم المجرد نهائياً بحجة عدم توفر الظروف المناسبة لتطبيقه وهذا في الواقع تعمية علىٰ النص القرآني. إن كل من عارض بين الوحي والعقل ورد نصوص الكتاب والسنة بالرأي لابد أن ينقض تلك النصوص المخالفة لعقله ويعاديها. فمثلاً قوله تعالىٰ :﴿الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1]. فقد قال جهم بن صفوان: لو أمكنني كشطها من المصحف لكشطتها! وحمل آخر علىٰ قوله تعالىٰ :﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[2]، علىٰ أن حرّفها وقرأها بالنصب: وكلّمَ اللّهَ موسىٰ تكليماً»، أي: أن موسىٰ هو الّذي كلم الله وخاطبه! والله لم يكلمه! فقال له أبو عمرو ابن العلاء: فكيف تصنع بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[3]؟ فبهت المعطل! ومثله اليوم كثير...لكن باسماء ـ ما زالت ـ إسلامية!! وتعمية علىٰ المرجعية المعصومة بل تعمية علىٰ بعض من لايفرق بين الغث والسمين وهو إلغاء الإسلام تماماً عقيدة وشريعة وقانوناً وهذا ناشئ من شعور دفين بالحالة النفسية وحالة الإحباط والمغلوبية بأزاء الحضارة الغربية ، وهذا الشعور هو الّذي كبّل العقول عن النظر بموضوعية للمنهج العقلاني الّذي يوفق بين الحقيقة الدينية الإسلامية وبين مقولات الحضارة الغربية.

---

١ – طه:٥.

٢ – النساء:١٦٤.

٣ – الاعراف:١٤٣.

تحديات الخصوم:

ومن التحديات الّتي واجهت العقيدة الإسلامية هي أن كل دين أو كل مذهب في بداية نشوئهِ لابد له من أن يواجه تحديات من خصمه سواء كانت هذه سماوية أو أرضية فكرية تسعىٰ إلىٰ تقويض ذلك المضمون أو تحرفه أو تجره إلىٰ مضمون آخر معين ليصبح مشابهاً له أو مطابقاً ، وكثيراً ماينتهي هذا إما إلىٰ التحريف أو التشويه ، ولعل العقيدة الإسلامية قد واجهت الكثير من هذه التحديات الفكرية مالم تواجهه أي عقيدة أُخرىٰ ، وذلك لأن الإسلام ظهر بعد كل الأديان السماوية ، وبعد كثير من المذاهب الهندية والفارسية ، وهذا مما حدا بأصحاب المذاهب الأرضية أو السماوية بأن يعدوه الخصَم اللدود لهم ، ومن هنا هب الجميع وتألبوا للوقوف بوجه هذا الخصم الفتي ، ويعود ذلك إما إلىٰ سبب ذاتي ، لأن الدين الإسلامي يلغي كل الأديان والمذاهب السماوية والوضعية بحكم أن الرسالة الإسلامية هي خاتمة الرسائل السماوية ، وهذا مما أدىٰ إلىٰ أن يزداد الخصم عناداً في الطعن. وإما إلىٰ سبب سياسي ، لأن الإسلام دين ودولة. وإما إلىٰ سبب اجتماعي ، لأنه يلغي الطبقية. ولذا زادت الشبهات والاعتراضات الموجهة لهذه العقيدة الإسلامية ، ومن هنا جاءت كلمة محمّد عابد الجابري بأن التراث الإسلامي هو تراث الموتىٰ ، حيث قال: «الموتىٰ الأحياء فينا» ، ويقصد بذلك التراث الإسلامي ، ولسنا بصدد مناقشة الجابري ، لأن التراث هو العلم ، والعلم ليس تراكم الموتىٰ ، بل هو ثورة علىٰ الجهل والتخلف والظلم والاستبداد والطغيان ، ولأن التراث كتلة تأريخية يختلف عن العلم كأداة من ناحية أُخرىٰ، بل يصبح العلم هنا وسيلة تعمل عملها في تلك الكتلة التأريخية بعد أن تقوم بتحليلها تحليلاً علمياً دقيقاً منصفاً غير منحاز ، ولذا قال «توماس»: « إن العلم العادي يمر بشكل دوري في عدد من المراحل ، تتلو الواحدة منها الأُخرىٰ بدءاً بالعلم العادي مروراً بمرحلة الأزمنة العلمية عندما تتراكم التناقضات بين تنبؤات النظريات السائدة، والمشاهدات حتىٰ تصل إلىٰ مرحلة

الثورة العلمية »[١].

إذاً الأشكاليات الّتي تثار حول التراث كثيرة ومتعددة من قبل الجابري الّذي خرج في كتاباته من رحابة النقد إلىٰ نفق النقل، وانفتاحه علىٰ اللامعقول بنقل المعلومات الخاطئة بلا حدود ، بل بانفتاحه اللامعقول علىٰ الخطأ المتعمد الّذي تعمد فيه تضبيب المساحة العلمية والعقلية الفاصلة بين الخطأ والصواب ولذا نراه انتقل أيضاً من نفق النقل إلىٰ نفق النفاق المأخوذ من نَفق ، بموقفه هذا الفج الّذي لم يحترم المسافة بين القلم الإلهي والقلم البشري. وقد أراد أن يؤسس بمشروعه هذا الرأي العلماني والّذي عده الغرب من أهم المشاريع والإصدارات العربية والإسلامية المعاصرة علىٰ الإطلاق. وأعتقد أن الجابري لم يستطع أن ينكر حقيقة تأريخية ، بل لم يشكك في تأريخية: «الرسول ، والرسالة ، والدولة»، ولم يشكك في الوجود التأريخي بـ« النبي محمّد ﷺ ، والقرآن ، والدولة»، لأن هذه من المسلمات الّتي لم يشك فيها مستشرق واحد ، وامثال الجابري كثير، لسنا بصدد ردهم ، وذلك لأن في تراثنا مازال القسم الأكبر لم يرَ النور ، بل هو علىٰ هيئة مخطوطات لم تحقق لحد الآن تحقيقاً علمياً ، ولذا قال «أركون»: «كان علىٰ الأوربيين آنذاك أن يقوموا بطباعة نقدية صحيحة لنصوص تراثهم ، وينبغي علينا نحن العرب المسلمين أن نفعل نفس الشيء »[٢]. ومن هنا نرىٰ سيادة «أرثوذكسية» جامدة لاتقبل الأخذ والعطاء ، وهي سيادة قد ترسخت قبل أكثر من عشرة قرون ، وغلب عليها طابع التحجير ، أي بمعنىٰ أنها تأخذ بعداً واحداً ، فتفقد إنسانيتها وتتحول إلىٰ مثال؟ وتفقد طبيعتها الإنسانية ، والبشرية ، وتناقضاتها ، لتبدو محفوفة

---

١ - thomas.s.khun.thestructure of scientific revolution university of chicago.1962

أنظر مناهج البحث العلمي وحدة أم نوع د. أسامة الخولي عالم الفكر الكويت ص:١٩٨٩/٦٢٥٢٤/١٢-٣.

٢٠ - أنظر محاضرة محمّد أركون في المركز الثقافي الجزائري بباريس يونيو ١٩٨٧الإسلام والتاريخ والحضارة ترجمة هاشم صالح .مجلة الوحدة الرباط ص:١٩عام ١٩٨٩ م.

وتتحول إلىٰ مثال؟ وتفقد طبيعتها الإنسانية ، والبشرية ، وتناقضاتها ، لتبدو محفوفة بغموض النموذج «الخالق»؟ ولأن لفظة التحجير دقيقة لأنها مأخوذة من الحجر ، وفي ارتباطها بالشخصية ، تحيل مباشرة علىٰ صنع التماثيل... بينما نرىٰ نبي الله إبراهيم عليه السلام تبدو حالته معاكسة لاتجاه هذا التحجير ، أي لايوجد في شخصيته تحجير وإنما يحدث في قيمة أو في حالة تأريخية كانت تبحث عن تمثالها أو جسدها أو شخصيتهاالبشرية. وتحجير المفهوم هو نفسه تحجير الشخصية ، وإن كانت الاستبدالات هي آلية هذه العملية المعقدة. والتقديس أداة من أدوات التحجير لأنه يعطيها بعداً كونياً مخيفاً ، بعداً لايمس ، يرفع هذه العملية إلىٰ السماوات العلىٰ لتأخذ علاقتها بالرب. حتىٰ وصلنا إلىٰ مرحلة أصبح يطلق عليها تعبير الازدواجية ، في العقلية وفي السلوك والأخلاق ، والعمل ، وكل ميادين الحياة الّتي عشناها ونعيشها ، ولذا خضع تراثنا ، وتأرخينا ، لهذه الأزدواجية الصارخه ، واختلط الحابل بالنابل ، وتهافت الناس زرافات ووحدانا ، يلهجون بمصطلحات جديدة كالأيدولوجبة ، والليبرالية ، والعلمانية ، والبرجوازية ، والبروليتاريا ، والأرستقراطية ، والعولمة ، والخصخصة ، ثم جاء المثقف العربي حاملاً قلمه وكتابه واغترابه وقال للناس: لقد مرَّ العرب بثلاث مراحل[1]، منذ القرن التاسع عشر وحتىٰ اليوم ، وأخذ يعدد هذه المراحل من فترة نشوء وتبلور الحركة الإسلامية ، فالليبرالية ، ثم تلتها مرحلة الوطنية والقومية ، ثم أعقبها بروز حركة الاشتراكية ، ومهمتكم تعميق هذه الحركه ـ التجربة ـ ومنحها بعدها الحقيقي ، ولكن في الواقع هذه اسماء بدون مسميات ، لايعرفها ولاتعرفه ولاتفيده ، بل عكرت صفو حياته... وهكذا لايزال الفكر العربي السياسي غارقاً في بحر الألفاظ المجردة والمفاهيم المطلقة ، لأنه يعيش عبر انتقال نظريات غربية إلىٰ وسطه ، عبر المدرسة ،

---

١ - انظر إلىٰ الآيدولوجية العربية المعاصرة للمؤرخ المغربي عبدالله العدوي طبع عام ١٩٦٧.

والجامعة، أو الخلية الحزبية ، وتبقىٰ الحاشية هي البلسم الروحي الّذي يشفي جراح الحياة ، ويدمجها بجراح الإنسانية المعذبه في كل مكان ، ويصوغ هذه الهـوامش الّتي أعدمت النص ، وأخفت جثته. لكن يبقىٰ الداعية الديني ينطلق من لغة ، وثقافة صافية ، وأخذ يحاور الغرب لا بهامش يستعيره منه ، إذ أنه يختزن مواهب خالصة ، يملك لغة غنية تفي بالمرام ، وترد الصاع صاعين ، وهو يعتقد بأن الغرب يـلوح دائماً بالتفكك ، والضياع ، والتبؤس الفكري ، والسقوط الدائم في مسـتنقع الكـفر والإلحاد ، وبالتالي ينتهي إلىٰ قول من يقول: «أن الفـرد بـلا عـقيدة كـلّية تـربطه بالأرض والسماء قزم ضائع ، ولقيط مهمل ، والعقيدة ضرورية له حتىٰ فـي عـالم الشيوعية الذىٰ يسخر من العوامل الروحية في الحياة. فلولا حرارة العقيدة ماتلقىٰ الأُلوف منا في سيبيريا ، وسجون القياصرة ، بمثل ذلك الحماس الّذي مكّن للحكم الشيوعي في نهاية المطاف.[١] ولذا عندما ندرس التأريخ ونتحدث عنه لا نعني به الكتابة والتدوين فقط ، بل نشير إلىٰ وجوده الدائم كمادة نتداولها شفاهاً ، وتستقر وتسكن في أعماقنا. ومن هنا يتبين لنا بأن دراسة التأريخ دراسة معقدة ، لأنها تقوم وتتقدم وتتطور وتأخذ شكلاً نهائياً عبر الفرد البشري ، من خلال تعامله وواقعه ، وزمانه ومكانه ، ووفق معايير ومقاييس ثقافية مستمدة من تربيته ، وبيئته ومزاجه الذهني والنفسي ، ومن هنا جاء اهتمام المفكرين في المرحلة المعاصرة والحديثة علىٰ تقويم الكتابة التأريخية من زاوية ذاتيتها وموضوعيتها وإمكان وجـود عـلم اجتماعي محايد منزه عن الانحياز والتحامل [٢].

ومن هذا وذاك وجدت مجموعة من المفكرين السـياسيين والاجـتماعيين تعتقد بأن كتابة التأريخ مشبعة بالأحكام الخلقية ، وهذا لا مهرب منه ومن وجود

---

١ - معركةالإسلام والرأسمالية سيد قطب صـ ٥١ ط٣ ١٩٦٦.

٢ - r.f.atkinson.knowledge and explanation inhistory - london.1978-

جانب ذاتي طاغٍ علىٰ المؤرخ الّذي يبدأ في معالجة موضوعه الّذي اختمر في ذهنه نتيجة أفكار مسبقة. والتأريخ هو الماضي البشري في كلّيته وتطوره في سياق زمني أو انحداره عبر سياق زمني آخر...لكن هنالك مجموعة أُخرىٰ ترىٰ دراسة التأريخ من خلال الماضي نفسه ومفاهيم الناس الذين عاشوا فيه ـ دراسة الماضي من أجل الماضي .

إذاً وجود تفسير مادي للتأريخ ، وآخر ليبرالي ،وثالث مثالي ، لايعني غياب هدف الموضوعية ، بل أن فهم الماضي فهماً صحيحاً هو الّذي يبني انعتاقنا ويمنحنا القدرة علىٰ المواجهة باسلوب شبه أكاديمي قائم علىٰ أساس البحث الحديث ، بعيداً عن ضيق الأفق ، وبعيداً عن منحىٰ الرومانسية أو الانتقائية التعسفية وأتباع الأُسلوب الغربي خاصة في اعتماده علىٰ الوثائق المنشورة وغير المنشورة ، حتىٰ أن هذا الأُسلوب دخل في الجامعات. ولذا نرىٰ بين فترة وأُخرىٰ دعوات لإعادة كتابة التأريخ ، وخاصة حول أهمية التراث وضرورة إحيائه. ويتصور هؤلاء أن تؤدي هذه الدراسة إلىٰ نقل الفرد المسلم دفعة واحدة ، بل نقل المسلمين من حالة التخلف والجمود إلىٰ مصاف الرقي والتطور الحضاري ، وكثيراً مايتصور هؤلاء أن المسألة تقتصر علىٰ نشر ماخلفه الأجداد القدامىٰ ، من مؤلفات تأريخية ، وأدبية وشعرية ودينية ، وليس دراسة الماضي كحقل لاستخلاص العبر والدروس والاستفادة من خبات الماضين والتمثل بأعمال الأيام الغابرة وأبطالها في مسعىً حثيث لتلافي الأخطاء والعثور علىٰ مواطن النجاح وتحقيق الإنجازات العظيمة. ولا بد من دراسة التراث والغوص في التفاصيل والتدقيق في بعض الأحداث وتسلسلها بل أصبحت ـ عند هؤلاء ـ المؤلفات الرومانية هي الأنموذج المفضل والّذي ينبغي اقتفاء أثره وتتبع خطواته ، ثم يتنطع هؤلاء ويعتبرون أنفسهم أصحاب خط ومنهج ناصع بأسلوب شامل ، ولكن ما أن يباشر هؤلاء بمعالجة الفترة الزمنية أو النص الّذي يريد أن يدرسه حتىٰ تتحول كتابته إلىٰ مجرد أسلوب إنشائي خطابي ، ثم

يظن أنه قد أدىٰ دوره بدون أن يلتفت إلىٰ أن دراسة وإحياء التراث يتطلب نظرة فلسفية عميقة الجذور وبطريق جديد وربط إحياء التراث بشتىٰ المجالات العقدية والاجتماعية والسياسية والنفسية والأخلاقية والسلوكية و... و... ومن هنا عانىٰ كثير من المثقفين اليوم من أزمة عنيفة بإزاء التراث وتصوروا بأن التراث الإسلامي قد انتهىٰ واستنفذ أغراضه ، وقد وضع في متحف الأفكار والنظم والعقائد ، وهذه هي الأنهزامية، بل الازدواجية المنبهرة بالتقدم الزائف للحضارة الغربية وبزحفها إلىٰ العالم الإسلامي ليؤمنوا لأنفسهم بأن الروح الإسلامية لم تشتد وتعصف بهم في يوم ما ، ولذا قال «مستر جلادستون» رئيس الوزارة البريطانية في عهد الملكة فكتوريا بصراحة ووضوح عن هذه السياسة وهو يمسك بيده المصحف ، ويقول لأعضاء مجلس العموم: «أنه مادام هذا الكتاب بين أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد». لقد نشأ الصراع في أُوربا بين العلم والدين لأن الكنيسة احتضنت أفكاراً «علمية»، وقالت إنها حقائق مقدسة كما أشرنا إليها سابقاً ، ومثقفونا اليوم هم خلاصة تلك السياسة المرسومة الّتي أغرقتهم بالعبودية ، والّتي أخذت لاتبصر بعيونها ولاتفكر بعقولها ولاترىٰ إلا مايراه لها الأوربيون ، ولايعرفون عن الإسلام إلا الشبهات ، وان طريقهم الوحيد إلىٰ التقدم هو طريق أُوربا ، وان عليهم نبذ دينهم كما نبذت أُوربا دينها. ولكن بعض علمائهم اعتبر أن ماتقوله الكنيسة ماهي إلا أقوال رجعية وانحطاط وتأخر ، بل خرافة ، وقد تحرر هؤلاء من مادية أُوربا ومن أبرزهم «جيمس جينز»، و«سومرست موم»، الّذي قال: «إن أُوربا قد نبذت اليوم إلهها ، وآمنت بإله جديد هو العلم ، ولكن العلم كائن متقلب ، فهو يثبت اليوم مانفاه بالأمس ، وهو ينفي غداً مايثبته اليوم، لذلك تجد عباده في قلق دائم لايستقرون»[1].

وهذا عكس ما دعا إليه الإسلام من الطمأنينة والراحة البدنية والنفسية وراحة البال

---

١ - أنظر شبهات حول الإسلام محمّد قطب ص:١٠ط ٩ مكتبة وهبة سنة ١٩٦٦.

وتحرر العقل من الخرافة والجهالة الّتي عشعشت في العقل البشري ، والّتي جاءت إما من طريق الآلهة المزعومة في أساطير اليهود ، وإما من خرافات الكنيسة والّتي تريد تحجير الأفكار وتقف عند كل ما يعد اليوم مقبولاً. فهذه المحاولات اليائسة إلىٰ قطع العلاقة بين المسلمين بإسلامهم هي محاولة هدم القيم والعادات والثقافة ، ولذا جاء في إحدىٰ المؤتمرات الّتي عقدت في مصر عام «١٩٣٢م» «...أضل الشرقيون أنفسهم ، فإذا هم أجساد تنبض بقلوب الغرب وتفكّر بعقوله ، وإذا هم مستسلمون لكل ماتتطلع به أُوربا ، منقادون لكل ما تأمر به ، متهافتون علىٰ كل ما اتصل بها ، ثم إذا هم أذلاء مقلدون ، يحقرون أنفسهم وآباءهم وميراث حضارتهم وتاريخهم ، إلا أن تعظّم أُوربا أباً من آبائهم أو تعجب بمأثرة من مآثرهم فيقتدون بها...»[1]. وهذا كلّه ناتج من اليأس من الحضارة الإسلامية الّتي شوهها الغرب والتطلع إلىٰ الحضارة المادية الّتي روج لها الغرب بشعارات براقة والانبهار بطراز الحياة الغربية. وسبب آخر هو الجهل وتدني الوعي الاجتماعي والفراغ النفسي وفقدان التماسك الداخلي وقلق الشخصية وضعف الشعور بالمسؤولية وفقدان الصبر والإحساس بالرهبة والخوف من تفوق الأعداء ونسيان قوله تعالىٰ :﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[2]. ولانريد الوقوف طويلاً عند موضوع التمييز بين العقول والمواهب علىٰ أساس الأجناس ، أي ادعاء أنّ الجنس الآري هو الّذي يستطيع أن يفكر ويبدع بالمذاهب الفلسفية ، عكس الجنس السامي. إن بعض المستشرقين الذين يؤكدون التفرقة بين الجنس الآري والجنس السامي قد ذهبوا إلىٰ أن فلاسفة الإسلام وقد أعتنقوا الدين

---

١ - تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي نقلاً عن ملحق السياسة الأدبي جمادي ١٣٥٠/١ عدد خاص بمؤتمر الطلبة الشرقيين.

٢ - آل عمران :١٩٧-١٩٦

الإسلامي ، فإن كتابهم المقدس ـ أي القرآن ـ يعوق ـ والعياذ بالله ـ العمل عن التفكير الحر، وعن العلم والتطور والإبداع. ومنهم من يرىٰ أن فلاسفة الإسلام قد تأثروا بفلاسفة اليونان تأثراً كبيراً ، بحيث أن فلسفتهم لا تخرج عما أبدعه فلاسفة اليونان من مذاهب ، وخاصة أرسطو وأفلوطين ، ومن أمثال تنمان «tennemann»، وكوزان «cousin»، ورينان «renan»، ودوجا «dogat»، ومونك «munk»، وجوتييه «gouthier» ، فقد انتهىٰ هذا العصر الّذي يفرق بين الجنسين ، ويميز بين العقلين لأن التفكير حظ مشترك بين الناس جميعاً ، ولا فضل لعربي علىٰ أعجمي إلا بالتقوىٰ ، وإن الإسلام هو دعوة إلىٰ القوة لا إلىٰ الضعف والتواكل. أما الآن فقد انقلب وضع الدين في عقل المسلم وحق عليه قول الإمام عليّ عليه السلام: «إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوباً». لقد دخل علىٰ المسلم في دينه ماليس منه ، وتسبب في عقائده من حيثُ لايشعر .

إذاً المشكلة ليست في الدين ، لكن المشكلة تكمن أساساً في العقول الصخرية الجامدة الّتي تنسب إلىٰ نفسها الوصاية علىٰ الدين وكأن الدين قد جاء لهم فقط ، وكأن الدين لايصح أن يقترب من فهمه وتفسيره إلا أمثال هؤلاء ، وكانت النتيجة الحتمية لتفسيراتهم الجامدة المغلقة والمنغلقة علىٰ نفسها ، أن باعد الكثير من الناس بينهم وبين الدين ، لأنهم ظنوا أن الدين إنما هو الدين من خلال القوالب الجامدة الّتي قال بها أناس أطلق بعضهم علىٰ أنفسهم أنهم رجال دين والدين منهم براء. إن الإسلام قد أطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الّذي سنته له الفطرة بدون تقييد ، فهل يفهم ذلك من نَصّبُوا أنفسهم لإصدار الأحكام الجائرة الظالمة ، والّتي تذكرنا بأحكام محاكم التفتيش. إن الإسلام قد أطلق العنان للعقل ، ولايقيد العقل بكتاب فلان وفلان وفتوىٰ فلان وفلان بل يرتبط بالمرجعية المعصومة ، ولايقف به عند باب، ولايطالبه فيه بحساب وذلك لوضع الأمور في نصابها وفهم الدين فهماً صحيحاً ، لقد تحول الدين عند مجموعة من الناس إلىٰ نوع من التجارة.

وأصبح بعض المشايخ الآن لا يقولون كلمة في مجال الدين ، ولا حتىٰ نصيحة من النصائح الدينية ، أو فتوىٰ من الفتاوىٰ إلا بدفع الثمن مقدماً ، وكأن الدين قد أصبح من أملاكهم الخاصة ولايجوز لأحد أن يشاركهم فيه ، وإلا أصبح كافراً وصدر عليه حكم بالمروق والإلحاد. إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنىٰ سلطة علىٰ العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامي ، ولايجوز لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة علىٰ إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريق نظره. إن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علاّم الغيوب ، فهو الّذي يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها. بأن الدين يجب ألا يكون معزولاً عن المجتمع ولذا يقول الدكتور فؤاد الأهواني: «ليس يكفي أن تكون الفكرة معقولة وإنما لا بد أن ننظر أيضاً من جهة قيمتها ، وهناك صلة بين المعقولية والقيمة. فكلما اعتقد الإنسان في قيمة الشيء ، كان بالنسبة له أكثر معقولية»[1]. إن أوامر الدين إذا كانت تطلب من العبد الاتجاه إلىٰ ربه وتملأ قلبه بالرهبة وتعطيه الأمل من الرغبة ، فإنها لا تحرمه من التمتع بالدنيا، بل تطلب منه الوقوف معتدلاً ، فالفكره المعقوله قد ارتفعت إلىٰ المستوىٰ العالمي ، ومن هنا لابد من الحوار بين الشخصيات العالمية الّتي تسمو فوق كل صعيد، وفوق كل خلاف بغض النظر عن الجنس واللون والتقاليد، والحوار سمة من سمات الإنسانية. ومعنىٰ هذا أنه لايوجد غلو في الدين ، بل يوجد الاعتدال بالموقف الوسط ، وقد لايرتضي لنفسه آراء الصوفية ولا اتجاه الزهاد والعباد حين يهملون الدنيا في سبيل الآخرة. إن الإسلام يدعونا إلىٰ النظر والتفكير.

والدارس لتاريخ الحضارة الإسلامية لابد وأن يلاحظ وقوع العديد من الأحداث الّتي تدلنا علىٰ قيام بعض الخلفاء وبعض رجال الدين بالتضييق علىٰ

---

١ - المعقول واللامعقول ص:٧٧-٧٦

الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطراب أمنها. إنه ليس في طبيعة دين من الأديان الدعوة إلىٰ الاضطهاد ومحاربة الجديد. إن العقاد يقول في كتابه «من بعيد»: الحق أنه ليس في طبيعة الإسلام ولا في طبيعة المسيحية ما يدعو إلىٰ الاضطهاد وإلىٰ محاربة الجديد ولا إلىٰ مناهضة حرية الرأي. ولك أن تقرأ القرآن والأناجيل وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث ، فلن تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلىٰ مناهضته ، أو يأخذ العقول بالجمود ، أو يحظر عليه حرية الرأي. لم يكن في الوثنية اليونانية أو الرومانية ما يدعو إلىٰ مناهضة حرية الرأي أيضاً. ومع ذلك فقد أثم الوثنيون، وأثم اليهود والنصارىٰ والمسلمون، واعتدوا جميعاً علىٰ حرية الرأي اعتداء يختلف قوة وضعفاً [١].

لقد ذكر الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد لطيفة من هذا الباب :

يقول المادي: الداء القوة ، والدواء المقاومة.

ويقول السياسي: الداء استعباد البرية ، والدواء استرداد الحرية.

ويقول الحقوقي: الداء تغلب السلطة علىٰ الشريعة ، والدواء تغليب الشريعة علىٰ السلطة.

ويقول الرباني: الداء مشاركة لله في الجبروت ، والدواء توحيد الله حقاً.

ويقول الكواكبي: إن الأقوال السابقة هي أقوال أهل النظر ، أما بالنسبة لأهل العزائم فإن الأبيّ يقول: الداء مدّ الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل.

ويقول المتين: الفداء وجود الرؤساء بلا زمام ، والدواء ربطهم بالقيود الثقال.

ويقول الحر: الداء التعالي علىٰ الناس باطلاً ، والدواء تذليل المتكبرين.

ويقول المفادي «الفدائي»: الداء حب الحياة ، والدواء حب الموت [٢].

---

١ - كتاب من بعيد د. طه حسين ص:٢٠٠.

٢ - طبائع الأستبداد ص:١٥

ثم يبين الكواكبي أن الاستبداد لا يأتي من الدين ، بل من سوء فهم واستغلال من جانب البعض للدين [١]. ثم يقول واأسفاه علىٰ الدين الحر الحكيم السهل السمح ، الظاهرة فيه آثار الرقي علىٰ غيره من سوابقه. الدين الّذي رفع الأغلال وأباد الاستبداد، الدين الّذي ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في القبور الهوان. الدين الّذي فقد الأنصار الأبرار والحكماء الأخيار فسطا عليه المستبدون والمرشحون للاستبداد واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأُمّة شيعاً وجعلوه آلة لأهوائهم السياسية فضيعوا مزاياه وحيروا أهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وإدخال ماليس منه فيه[٢]. فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عمن أحدث حدثاً ، أو آوىٰ محدثاً ما هو؟ فقال: من ابتدع بدعة في الإسلام أو مثّل بغير حدّ ، أو من انتهب بهبة يرفع المسلمون إليها أبصارهم، أو يدفع عن صاحب الحدث أو ينصره أو يعينه»[٣]. وقال صلى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً..﴾[٤]. هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة ، أنا منهم بريء وهم براء»[٥]. إن الأُمّة الإسلامية قد تعرضت لهجمات شتىٰ استهدفتها كحضارة وكوجود سياسي واجتماعي مما جعل الأُمّة تنكفئ وتتراجع عن المفاهيم الصحيحة ، وخلط المفاهيم بعضها ببعض وعدم التمييز بين الحضارة ، والمدنية ، والثقافة. ولم يعرف أن الحضارة شيء والمدنية شيء آخر والثقافة شيء ثالث. والحقيقة أن التمييز بين هذه المصطلحات الثلاثة مشكلة ذهنية أكثر منها مشكلة واقعية كما هو الحال إلىٰ التمييز بين النفس والجسد. ويقول الإمام

---

١ - المصدر السابق ص:٢٧-٤٦.

٢ - المصدر السابق ص:٣٩.

٣ - بحار الأنوار ٢:٢٩٩

٤ - الانعام:١٥٩.

٥ - كنز العمال: ح ٢٩٨٦

الخميني رحمه الله تعالىٰ: «إن الثقافة الّتي رسم خطوطها الأجانب وأملوها علىٰ شعبنا المستضعف ، هي ثقافة استعمارية وهي أخطر من سلاح الجبابرة...لأنها تقدم إلىٰ الوطن شباباً يملكون قابلية الاستعمار»[1].

١ - أنظر قضايا التبعية الإعلامية والثقافة في العالم الثالث /عالم المعرفة ص:٦١

العوامل المؤثرة
في
الشخصية الإسلامية

العوامل المؤثرة في الشخصية الإسلامية

ان في حياة الإنسانية موجبات وأسباباً تصد الإنسان المسلم وغير المسلم عن طلب المعرفة، أو النيل منها، أو تعمل لأن تتضاءل المعرفة الحاصلة له، ولأن تقع تحت تأثير ستار الغفلة والذهول. وهذه الأسباب مختلفة ومتنوعة منها: الجهل ، والنسيان ، والعجب ، والتكبر ، والهوىٰ ، والحب الأعمىٰ ، والوقوع تحت تأثير العادات والأعراف ، وقلة المبالاة بأمر الحياة الفكرية ، والملابسات البيئية ، والتقاليد الباطلة، والدعايات الفارغة ، والثقافات المزيفة ، وشيوع الفساد والانحلال الخلقي ، والهبوط في الرذيلة ، فكل هذه الأسباب تمنع من طلب المعرفة القيمة وتقويم الاعوجاج لبناء تلك الشخصية المنسجمة مع طموحات الإسلام ، وأن مرحلة البناء الذاتي قد تطول أو تقصر تبعاً لظروف الابتلاء والاختبار ، وقد أشار الإمام علّي عليه السلام بقوله: «ميدانكم الأول أنفسكم فإن قدرتم عليها كنتم إلىٰ غيرها أقدر وإن عجزتم عنها كنتم عن غيرها أعجز»[1]. إن جهاد النفس ورفع الظلم عنها قبل غيرها من الأهمية والصدارة في بناء الكيان الإسلامي ، وما هذه الصحوات الّتي نراها اليوم والانعطافات الأخيرة والخيرة الّتي نشاهدها اليوم ماهي إلا علامة من علامات البناء الذاتي والحضاري، وهي من ملامح الايمان الصادق والّذي هو أرقىٰ وأسمىٰ من الإسلام الظاهري الّذي يشكل المنتمون إليه الخطر الأكبر علىٰ الشريعة وعلىٰ المجتمع في آنٍ واحد من الذين لاينتمون إلىٰ الإسلام ، لأن الظاهرة الأولىٰ مبطنة وتنطلي علىٰ كثير من الجهلاء وضعاف النفوس ، أما الظاهرة الثانية فهي مكشوفة ويمكن مراقبتها ومعالجتها والحذر منها ، وأن التطور الهائل الّذي أصاب الحياة في

---

١ - غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٤٧.

العالم الغربي يرجع في جذوره إلىٰ أن الغربيين لم يفصلوا بين النشاط العقلي والغاية العملية منه فكل عمل لايجلب نفعاً هو عمل غير ذي جدوىٰ. والأسباب الرئيسية الّتي تقف وراء تخلف المثقف المسلم وتقلص المفهوم الحضاري عن واقعه هي نفس العوامل الّتي ساعدت علىٰ فناء حضارات الدول السابقة رغم تفوقها المادي لأن حضارتها اعتمدت علىٰ ركائز من المثل المنخفضة والمحدودة لإزاحتها عن طريق تكاملها ، وبسبب طبيعة العناصر في تركيبة هذا المحتوىٰ تتوفر مستلزمات الحركة الفاعلة ، فعقيدة التوحيد تمنح الوضوح الفكري للمثل الأعلىٰ فتتوحد كل الطموحات والغايات والتطلعات البشرية وعقيدة الإيمان باليوم الآخر ، تمنح الطاقة الروحية لمد المسيرة بالاستمرار والديمومة بعد أن يعيش الإنسان حالة الترابط بين الساحة الدنيوية والأخروية. وتعدد الآراء وتباين وجهات النظر كانت نقطة قوة لدىٰ المسلمين بحيث كانوا بحق رواد الحضارة وأبناءها في وقت عاشت فيه الأُمَم السابقة في ظلمة الجهل، والتناحر والتباغض، والاستغلال والخمول والضياع، وحالة الخمود والركود في الناس، بحيث أصبح المجتمع جامداً و... والتسلط الفرعوني علىٰ مرّ التأريخ والّذي أغمض عيون الناس عن أي تغير جديد ، عن أي مثل جديد من شأنه أن يهدد مكانة الحضارة الإسلامية ، فهذا وذاك يعمل علىٰ تجميد العقلية والإبداع الذهني للذات الإنسانية ، في حين أن العقيدة الإسلامية تخلق الهدف للإنسان بصورة تلقائية وتبين له الوسيلة في ضوء هذا الهدف حتىٰ يقدم العطاء الحضاري لأُمته. ولكن عندما ينهار الجانب العقائدي للأُمة بصورة عامة وللفرد بصورة خاصة، تصبح الأُمّة لقمة سائغة للأطماع الخارجية والانغماس في لذات الدنيا والشهوات، والتلاعب بالحقوق، والاستهتار بالقيم والأهداف الرسالية المنشودة من الإنسان، وطمس رسالة الأخلاق في عتمة الأهواء الشخصية ، وهذا ماحدث في عهد الدولة الأُموية ثم العباسية وما لحقها من أدوار الضعف حتىٰ سقوط الأُمّة بكاملها علىٰ أيدي الصليبيين وقطع أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية

وانتقالها من قبضة المسلمين للأسبان كالأندلس مثلاً ، وهذا نتيجة الطرح الكنسي الّذي اتبعه المسلمون في حياتهم ألا وهو الفصل بين الدين والدولة. والإسلام يرفض هذا الفصل، بل يؤكد ضرورة الجمع بينهما حتىٰ يمكن أن يحدث التقدم والتطوير ، ولا يمكن العيش علىٰ الفكر الغربي إذ لا فصل بين النظر والعمل في الثقافة الإسلامية ولا خير في علم إلا إذا كان معه عمل ، حسب الافتراض القائل: «إن الله في عليائه، ولا بأس علىٰ العالم». وهذا ما أوقع العالم الغربي في المأساة علىٰ المستوىٰ الحضاري وليس علىٰ المستوىٰ التكنولوجي. وهذه الأطروحة الّتي ألبسوها للمسلمين باستخدامهم الأبواق الدعائية من الأنس من حيث نشعر أو لانشعر ، ولذا نرىٰ بعض كتابنا يجيدون أسلوب التلاعب بالألفاظ والكلمات ، وليس أسلوب الحجة والبرهان والإقناع بالكتاب الكريم وبالمرجعية المعصومة ، وليست هذه بجديدة علىٰ المسلمين ، فحركة التحريف قد بدأت منذ أن أخذت الخطة تبث المنقوش علىٰ الأوراق. وهذا التفكير لا يمكن أن ينسجم مع أهداف المرجعية المعصومة. وليس عن طريق الصدفة أن تتوحد كل توجيهات الأنبياء لأقوامهم بأن يتمسكوا بالمرجعية المعصومة مع أن كل نبي من هؤلاء جاء إلىٰ مجتمع يعاني أمراضاً وفساداً يختلف عن المجتمع الآخر ، لأن المجتمع دون وحدة كيانه لايمكن أن تقوم له حضارة. والتأريخ خير شاهد علىٰ انهيار الحضارات بعد أن يتفكك المجتمع وبعد أن يكذب الرسل وترفض رسالاتهم. ومن يكذب برسالة أحد الأنبياء فهو قد كذب بجميع الرسالات السماوية ، وهذا هو المنطق الإسلامي لأن الفكر جزء من حياة الإنسان. والجزء لايُفصل عن الكل. والتأريخ يدل علىٰ أن أزدهار الفكر دوماً رهين الازدهار الاقتصادي والاجتماعي .

إذاً بين الفكر وقاعدة الحياة إلاقتصادية والاجتماعية تفاعلٌ جدليٌ مستمر. والفكر يجمد ويضمحل إن هو أُصيب بالكبت وحاق به الضغط ، وحرية الفكر ليست فوضىٰ التفكير ولا احتكار قوم له ، ولكنها فهم للقضايا وتمحيص لمعطياتها ،

ثم استنتاجات واقتراحات ترغب عن العرضي فلا تقف عنده ، وترغب في الجوهري فتعرّفه وتدافع عنه دفاعاً إيجابياً.

والشخصية الإسلامية الإنسانية تحدد هويتها عن طريق الحقائق الداخلية عند الإنسان كالفكر، والمعتقد، والاتجاه النفسي ، فبعد أن تتفاعل مع العالم الخارجي تتجسد حقيقة الذات البشرية وهوية الفرد الذاتية. ومن هذه العوامل أيضاً:

«١» عامل الوراثة الّتي تشترك فيها كل البشرية لأن الله سبحانه وتعالىٰ خلق الخلق وهم يحملون فروقاً وأمكانات متفاوته في هذه الصفة ومقدار تأثيرها علىٰ حياة الإنسان وشخصيته ليحس بحاجة أخيه المسلم ، ويسعىٰ للتعاون معه لتنظيم المجتمع ، قال تعالىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١]. ثم أن هذا التفاوت فيه حكمة وهي أن الله يختبر الناس ويمتحنهم بما آتاهم من طاقات عقلية وجسدية وأخلاقية ليرىٰ كيف يستخدمونها كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

ومن هذه الآيات وغيرها نستنتج أن صفات الآباء تنتقل إلىٰ الأبناء وتؤثر في تكوينهم العقلي والنفسي والجسدي ، وبالتالي تساهم في تكوين شخصيتهم ، ولكن الإنسان يستطيع بالتالي بواسطة عقله وإرادته أن يعيد تنظيم شخصيته وسلوكه ، ولكن هذا لايتم إلا بعد عناء شديد ومشقة.

«٢» وهنالك عامل آخر غير الوراثة وهو عامل التربية الّذي يساهم مساهمة فعاله في صنع شخصية الفرد بما يمتلكه من استعدادات وقابليات إنسانية الّتي تولد

---

١ - الزخرف:٣٢.

٢ - الأنعام:١٦٥

الطاقة الحرة ، ولذا جاءت رسالات الأنبياء لتربية البشرية والبناء الذاتي للشخصية المستقيمة منذ الطفولة الّتي تشكل اللبنة الأساسية لبناء الذات. وقد أوصىٰ نبي البشرية محمّد ﷺ بقوله: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». ثم أكد القرآن الكريم علىٰ البيئة الاجتماعية النظيفة والابتعاد عن الأعراف والعقائد المنحرفة والابتعاد عن ميراث الأُمّم والقرون الجاهلية بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[1]. ولا ريب ولاشك أن من ينظر إلىٰ الأديان السماوية من نافذة الوحي الإلهي يتسع عقله اتساع السماء، وتصف نفسه صفاءها، وتشرق روحه إشراقها، فيصبح إنساناً بمعنىٰ الكلمة. ومن ينظر من كوة صغيرة تظلم الدنيا بوجهه، ويصبح صدره ضيقاً حرجاً ، ولذا نجد بعض من يتحامل من بعض السطحيين الذين لم يتعمقوا في دراسة الإسلام وخاصة القرآن الكريم ، ولم يمعنوا أنظارهم في المواضيع الّتي استعرضها اتهموا الإسلام باتهامات باطلة ، ولسنا بصدد التطرق إليها ولكن نقول كما قال الشاعر :

وإن مررت بأشجار لها ثمر خذ الثمار وخل العود للنار

أما الذين درسوا الإسلام من المنصفين والّذي طرح في كتابه «الأبطال»، ما نصه: «إن الكذب محال أن تتم به مؤسسة دينية عالمية». حقاً إن بعض الأوهام الطائشة الّتي زرعتها في نفوس بعض شبابنا الأُوربيون هي نتيجة الجهل بمُثل الإسلام العليا ، وقد سيطرت بعض العوامل علىٰ عقل الإنسان والّتي أدت إلىٰ عدم استطاعة العقل لتأدية واجبه ودوره المطلوب ، أما بعض الأحكام الّتي تصدر من العقل في بعض الأحيان والّتي تنسب إليه فنراها في الواقع صادرة من عقل مشوب غير سليم كما يقول العلامة الطباطبائي: «هو ـ العقل ـ كالقاضي الّذي يقضي بمدارك

---

١ - لقمان:٢١

أو شهادات كاذبة منحرفة ، فإنه يحيد في قضائه عن الحق وإن قضىٰ من غير قصد للباطل ، فهو قاض وليس بقاض ، كذلك الإنسان يقضي في مواطن المعلومات الباطلة بما يقضي وإنه وإن سمّي عمله ذلك عقلاً بنحو من المسامحة لكنه ليس بعقل حقيقة لخروج الإنسان عند ذلك عن سلامة الفطرة وسنن الصواب»[1].

ومن هنا نستطيع أن نقول علىٰ الباحث أن ينزه عقله وفكره وذهنه عن الأحكام المسبقة الّتي تعتمد علىٰ الشكوك والظنون والأدران العالقة ، ولذا قال الغزالي: «فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار علىٰ التواصل واصلة إلىٰ القلب. أما الآثار المحمودة الّتي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقاً، ونوراً وضياءاً، حتىٰ يتلالأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين ...

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلىٰ مرآة القلب ولايزال يتراكم عليه مرة بعد أُخرىٰ إلىٰ أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالىٰ» [2].

إذاً محل العلم القلب ، والعالم عبارة عن القلب وحقائق الأشياء. والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة ، والمرآة لاتنكشف فيها الصورة إلا بنقصان فيها كجوهر الحديد قبل أن يصقل، إما لخبثه وصدئه ، أو كما تكون الصورة خلف المرآة للحجاب الموجود بينهما. وإما للجهل بالجهة الّتي فيها الصورة. فهكذا القلب مرآة ، فإذا خلا من العلم ظهر فيه النقص كقلب الصبي ، أو لكدورة المعاصي أو...أو.. وإلاّ فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، ولذا قال تعالىٰ: ﴿...لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُم

---

١ - الميزان ٢: ٢٥٠

٢ - إحياء علوم الدين ٣: ١٤-١٢

بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[١].

«٣» ومن العوامل المضللة للعقل البشري اتباع الهوىٰ وطول الأمل والميل إلىٰ الضلال فقد ورد ذكر الهوىٰ في القرآن الكريم والسنة النبوية ما لا يحصىٰ ، فقد قال تعالىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَـوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُـونُ عَـلَيْهِ وَكِـيلاً﴾[٢]. وقـال تعالىٰ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[٣]. وقال الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام : «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوىٰ وطول الأمل»[٤]. وعن الإمام الصادق عليه السلامقال: «احذروا أهواءكـم كـما تـحذرون أعداءكم ، فليس شيء أعدىٰ للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»[٥]. وقال الصادق أيضاً: «لاتدع النفس وهواها ، فإن هواها رداها»[٦]. وقد روي: إن زيد بن صوحان سأل أمير المؤمنينعليه السلام: أي سلطان أغلب وأقوىٰ؟ قال: الهوىٰ.[٧] وقـال أيضاً: «الخطايا ـ الشهوات ـ خيل شُمُسٌ حمل عـليها أهـلها، وخـلعت لجـمها، فتقحمت بهم في النار ، ألا وإن التقوىٰ مطايا ذلل ، حمل عليها أهـلها ، وأعـطوا أزمتها، فأوردتهم الجنة»[٨]. وقال أيضاً: «رد الشهوة أقـضىٰ لهـا، وقـضاؤها أشـد لها»[٩]. وقال الإمام الباقرعليه السلام: «مثل الحريص علىٰ الدنيا كـمثل دود القـز ، كـلما

---

١ ـ الأعراف:١٠٠

٢ ـ الفرقان:٤٣

٣ ـ النازعات:٤١-٤٠

٤ ـ أُصول الكافي ٢:٣٣٥

٥ ـ المصدر السابق .

٦ ـ المصدر السابق .

٧ ـ بحار الأنوار ٧٠:٧٦حديث ٦

٨ ـ نهج البلاغة محمّد عبده ١:٤٤الخطبة:١٥

٩ ـ غرر الحكم للآمدي ١:٣٨٠ط منشورات الأعلمي .

ازدادت من القز علىٰ نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتىٰ تموت »[١].

إذاً العقل قادر علىٰ ضبط نفسه وضبط الهوىٰ وتنظيمه وتوجيهه إذا تمكن العقل الإنساني من هواه ، لأن العقل هو الآمر والناهي ، وهو الحاكم والزاجر ، ولذا قال الإمام علّي عليه السلام: «للنفوس خواطر للهوىٰ ، والعقول تزجر وتنهىٰ»[٢]. وروي عنه أيضاً أنه قال: «للقلوب خواطر سوء ، والعقل يزجر منها»[٣]. وعنه عليه السلام قال: «العقل الكامل قاهر للطبع السّوء»[٤].

ونستنتج من كل هذه الأحاديث وغيرها بأن الإنسان يستطيع أن يتحكم من خلال عقله بكل أشكال الهوىٰ والنوازع الشريرة في نفسه، ويهذبها علىٰ وفق المنهج الإسلامي الصحيح، لأنه مركب من العقل والشهوة، بخلاف الحيوان الّذي ركبت فيه الشهوة دون العقل ، فقد روي عن أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «إن الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة ، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل ، وركّب في بني آدم كليهما ، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله، فهو شر من البهائم»[٥]. وعن علّي عليه السلام: «كلما قويت الحكمة ، ضعفت الشهوة»[٦]. وعنه أيضاً: «إذا كثرت المقدرة قلت الشهوة»[٧]. وقال أيضاً: «العفة تضعف الشهوة»[٨]. فالتقوىٰ وضبط النفس والإيمان والسلوك والعفة و... و...

---

١ - بحار الأنوار ٢٣:٧٣

٢ - تحف العقول:٩٦

٣ - غرر الحكم للآمدي ١٢١:٢

٤ - بحار الأنوار ١١٦:١٧

٥ - وسائل الشيعة كتاب الجهاد جهاد النفس الباب ٩:ح ٢.

٦ - غرر الحكم للآمدي ١١١:٢

٧ - بحار الأنوار ٦٨:٧٢ ونهج البلاغة، الحكمة:٢٤٤

٨ - غرر الحكم للآمدي ١١٨:٢

الّتي يسيطر عليها العقل هي الّتي تتحكم في غرائز الإنسان وتكفه عن الملذات الشهوانية والدنيوية. ولذا قال الإمام علّي بن أبي طالب عليه السلام: «من اشتاق إلىٰ الجنة سلا عن الشهوات»[١]. وقال عليه السلام أيضاً: «واذكر مع كل لذة زوالها ، ومع كل نعمة انتقالها، ومع كل بلية كشفها ، فإن ذلك أبقىٰ للنعمة ، وأنفىٰ للشهوة ، وأذهب للبطر ، وأقرب للفرج ، وأجدر بكشف الغمة ودرك المأمول»[٢]. وقد ورد في نهج البلاغة: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: «إن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات واعلموا: أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره ، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة ، فرحم الله أمرءاً نزع نفسه عن شهوته ، وقمع هوىٰ نفسه ، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً ، وإنها لاتزال تنزع إلىٰ معصية في هوىٰ» [٣]. وقد كرر القرآن الكريم حقيقة الهوىٰ وأن اتباعه والميل إليه يؤدي إلىٰ الضلال فقد قال تعالىٰ: ﴿فإن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىً مِّنَ اللَّهَ ﴾[٤]. وقال تعالىٰ:﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَيهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاً تَذَكَّرُونَ﴾[٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[٦]. وقال تعالىٰ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾[٧]. وقال تعالىٰ: ﴿...وإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم

---

١ - نهج البلاغة ، الحكمة:٣١

٢ - غرر الحكم للآمدي ٢:١١٩

٣ - نهج البلاغة ، الخطبة:١٧٦

٤ - القصص:٥٠

٥ - الجاثية:٢٣

٦ - البقرة:١٢٠.

٧ - ص:٢٦.

بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾[١]. وقال تعالىٰ: ﴿...أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[٢]. وقال تعالىٰ: ﴿...وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَىٰ﴾[٤]. وقد ذكرنا سابقاً بعض الأحاديث النبوية الّتي أكدت أن الهوىٰ هو العدو الأساس للإنسان فقد ورد عن علّي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «عدو العقل الهوىٰ»[٥]. وقال عليه السلام أيضاً: «العقل شرع من داخل، والشرع عقل من خارج»[٦]. وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «إن لله علىٰ الناس حجتين، حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول»[٧]. وقال علّي بن أبي طالب عليه السلام: «قاتل هواك بعقلك»[٨].

إذاً للعقل والدين دور مهم في التأثير علىٰ سلوك الإنسان من الداخل والخارج، وأما الهوىٰ فله الدور الكبير في تخريب العقول والنفوس وإلىٰ انغلاق القلب عن النور الإلهي انغلاقاً كاملاً، ولذا قال علّي عليه السلام: «من اتبع هواه أعماه وأصمّه، وأذلّه»[٩]. وعنه أيضاً: «الهوىٰ شريك العمىٰ»[١٠]. وقال أيضاً: «إنك إن

---

١ - الأنعام:١١٩

٢ - محمّد :١٦

٣ - البقرة:٧٨

٤ - النساء:١٣٥

٥ - غرر الحكم للآمدي ١:٦٨

٦ - مجمع البحرين للطريحي مادة «عقل»

٧ - بحار الأنوار ١:١٣٧وأصول الكافي ١:١٦

٨ - نهج البلاغة، الكلمات القصار.

٩ - غرر الحكم للآمدي ٢:٢٤٢.

١٠ - نهج البلاغة الكتاب رقم :٣١

أطعت هواك أصمك وأعماك»[١]. وقال أيضاً: «أوصيكم بمجانبة الهوىٰ ، فإن الهوىٰ يدعو إلىٰ العمىٰ وهو الضلال في الآخرة والدنيا»[٢]. وقال علّي بن أبي طالب عليه السلام: «الشهوات سمومات قاتلات»[٣]. وقال أيضاً: « من تسرع إلىٰ الشهوات تسرعت إليه الآفات»[٤]. وقال أيضاً: «احفظ نفسك من الشهوات ، تسلم من الآفات» [٥]. وقال أيضاً: « قرين الشهوة مريض النفس، معلول العقل»[٦]. وقال أيضاً: «الشهوات أعلال قاتلات ، وأفضل دوائها اقتناء الصبر عنها»[٧]. وعنه عليه السلام: «الانقياد للشهوة من أدوء الداء»[٨]. وعنه عليه السلام: «أوّل الشهوة طرب، وآخرها عطب»[٩]. وعنه عليه السلام: «الهوىٰ مطية الفتن»[١٠]. وعنه عليه السلام: «الهوىٰ أسّ المحن»[١١]. وعنه عليه السلام: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع»[١٢]. وعنه عليه السلام: «إياكم وتمكن الهوىٰ منكم ، فإن أوّله فتنة ، وآخره محنة»[١٣]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع النفس وهواها ، فإن هواها رداها».[١٤]

---

١ - غرر الحكم ١:٢٦٠

٢ - مستدرك وسائل الشيعة ٢:٣٤٥ ط قديم.

٣ - غرر الحكم للآمدي ١:٤٤

٤ - غرر الحكم للآمدي ٢:٢٠١

٥ - غرر الحكم للآمدي ٢:٢٠١

٦ - المصدر السابق ٢:٧٧.

٧ - غرر الحكم ١:٩٠

٨ - المصدر السابق ١:٧٢.

٩ - المصدر السابق ١:١٩٥.

١٠ - المصدر السابق ١:٥١.

١١ - المصدر السابق .

١٢ - نهج البلاغة الخطبة :٥٠

١٣ - المصدر السابق

١٤ - البحار ٧٠:٨٩ ح ٢٠.

وقال الإمام علّي ﷺ: «آفة العقل الهوىٰ»[١]. وعنه ﷺ: «من لم يملك شهوته لم يملك عقله»[٢]. وعنه ﷺ: «كم من عقل أسير تحت هوى أمير»[٣].

فالعقل هو الّذي يقود ويوجه الإنسان المؤمن ، فسلوك المؤمن لا يخضع للغريزة ولا للهوىٰ. وفي الحديث الشريف: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له: وعزتي وجلالي ، ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك ، ولا أكملته إلا فيمن أحب ، أما إني ، أياك آمر ، وأياك أنهىٰ ، وأياك أعاقب ، وأياك أثيب»[٤].

إننا نقول منذ زمن طويل إن عقيدتنا مبنية علىٰ العقل. يقول ذلك العربي والعجمي ، العريق في الإسلام وقريب العهد به والمتبحر في العلوم الدينية. نقول ذلك مقارنةً بما نلاحظ من عقائد غيرنا ، وخصومنا أنفسهم يعترفون بأن العقيدة الإسلامية بسيطة معقولة ، وإن استنتجوا من ذلك ما لايرضينا. وفي الوقت نفسه نقول قبل غيرنا ، إن المجتمعات الإسلامية العربية والأعجمية المستقلة بذاتها أو الخاضعة لحكم غيرها ، بعيدة في سلوكها «العام والخاص»، عن العقل. وبالتالي عن العقل والدين معاً. وهذا التناقض الملاحظ نعترف به كما لو كان أمراً طبيعياً وغير مستبعد كما يقول عبدالله العروي في كتابه مفهوم العقل [٥]. أما موقف الإسلام من الحضارة الغربية السائدة اليوم فهو موقفه من كل حضارة سابقة يتقبل كل ماتستطيع أن تمنحه من خير، ويرفض ما فيهامن شرور، فهو لايدعو ـ ولم يدع قط ـ إلىٰ عزلة علمية أو مادية ، ولايعادي الحضارات الأُخرىٰ معاداة شخصية أو عنصرية ، لإيمانه

---

١ - غرر الحكم ١:٢٧٢.

٢ - مستدرك وسائل الشيعة ٢:٢٨٧ط قديم

٣ - نهج البلاغة باب الحكم الحكمة رقم :٢١١

٤ - تقدم أستخراجه.

٥ - مجلة شؤون الاوسط ص١١١ بيروت الرباط المركز الثقافي العربي ١٩٩٧.

بوحدة البشرية واتصال الوشائج بين البشر من جميع الأجناس وجميع الاتجاهات.

إذاً فلا خوف من أن تقطف الدعوة الإسلامية ثمار الحضارة الحديثة لا كما يفهم بعض البلهاء من المثقفين ، وكذلك لم تقف الدعوة دون التفاعل مع التجارب العلمية الّتي تنتجها البشرية في أي مكان على الأرض ، فكل تجربة بشرية صالحة هي غذاء يجب أن يجربه المسلمون ، وقد كان الرسولﷺ يقول: «طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم»[1]. والعلم حين يطلق هكذا يشمل كل علم ، وقد كانت دعوة الرسول ﷺ إلىٰ العلم كافة.

كلا! لاخوف من أن يأخذ الإسلام ثمار الحضارة الغربية، ما دامت نفعاً للبشرية. أما إذا كانت الحضارة هي الخمر والميسر ، والدعارة الخلقية ، والاستعمار الدني واستعباد البشر تحت مختلف العنوانات فحينذاك يقف الإسلام حقاً في وجه هذه «الحضارة» المزعومة ويقيم نفسه حاجزاً بين الناس وبين التردي في مهاوي الهلاك. ومن هنا كان الدين عدواً حقيقياً للشعب. وكانت قولة كارل ماركس في محلها تلك الّتي قالها :«الدين أفيون الشعب»، ربما كان كارل ماركس أو غيره من الدعاة الأولين للشيوعية وربما كانوا معذورين في ثورتهم علىٰ الدين ورجاله بسبب الملابسات الخاصة الّتي واجهتهم هناك من قبل رجال الكنيسة. فقد كان الإقطاع يمثل أبشع أدواره في أوربا ، وفي روسيا بوجه خاص ، ثم يخلط الشيوعيون بهذه الحقيقة شبهة مؤداها أن الإسلام ذاته يأمر بهذا الفحش إذ يقول: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَافَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2]. إن جريمة رجال الدين هؤلاء أكبر وأفحش من جريمة الفساق من الشعراء، والكتاب والصحفيين المرتزقين ، لأن في أيديهم كتاب الله وهم يتلون آياته ، ويعرفون حقيقة الدين ، وحقيقة موقفهم،

---

١ - سنن ابن ماجة / مقدمة الباب السابع عشر ، ح ٢٢٤ ، أصول الكافي ١: ٣٠٠ ، بحار الأنوار ١:١٧٧

٢ - سورة النساء: ٣٢

وهم يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً وما يأكلون في بطونهم إلا النـار. وإن كـل مـا يقولونه ليس حجة علىٰ الإسلام. وأن مصيبة هذه الشعوب جاءته من الجهل بحقيقة دينهم ـ وليس الجهل من أوامر الإسلام للـناس! ـ إن الحـركات الّـتي أطـاحت بالطواغيت هي حقيقتها الحركات الدينية ، وأن جـميع الحـركات التـحريرية فـي الشرق الإسلامي كانت من وحي الدين كحركة الشعب المـصري ضـد الاحـتلال الفرنسي كانت حركة علمائية دينية. والثورة علىٰ ظلم محمّد علّي كان رائدها السيد عمر مكرم الزعيم الديني. والثورة علىٰ الإنجليز في السودان كان زعيمها المهدي الكبير وهو زعيم ديني ، والثورة علىٰ الطليان في ليبيا، وعلىٰ الفرنسين في المغرب كلها حركات دينية ، وثورة الإمام الكاشاني علىٰ الإنجليز كانت ثورة باسم الدين وعلىٰ أساس الدين، وثورة الإمام الخميني ﷺ كانت ولازالت مستمرة. وتأخذ كل قوانينها من القرآن والسنة النبوية. وثورة الشهيد السعيد الإمام الصدر ﷺ، هي ثورة علمائية، دينية، ربانية بكل معنىٰ الكلمة .

فإذا كان في الدنيا كلها دين يصلح أن يكون أفيوناً للشعب ، فلن يكون هذا الدين هو الإسلام. الّذي يكافح الظلم بجميع صوره وألوانه ، وينذر الذين يـقبلون الظلم بشر العقاب. ولكن مع الأسف الشديد اختلطت المفاهيم وفقد ميزان المبادئ الصحيحة وصار التدين رجعية ، والهرطقة ، والزندقة ، والإلحاد تقدمية ، وعصرنة. ولذا نجد من جرفه التيار الاستعماري بمقولة الإيمان نتيجة ضعف الإرادة والصمود والسقوط في مستنقع الإغراءات المادية الشهوانـية المـلوثة والّـتي مـنح بـطاقتها البيضاء للدخول إلىٰ جميع المدارس والجامعات والبيوت والمؤسسات باسم الآلة والحضارة الغربية ، وبدت آثـار المسـخ الإفـرنجي عـلىٰ كـل مـلامحه الفكـرية والسلوكية والأخلاقية وأستعاض عن كل شيء ، حتىٰ في السلام بـهز الرأس، أو برفع اليد. هذا من جانب ومن جانب آخر أصبحت عند البعض ممن يدعي التدين القوقعة علىٰ الذات، وهجران المجتمع والحياة. وهنا وقعت المأساة علىٰ الإسـلام

باسم العرفان وهو في واقعه الانهزام عن خوض الصراع الفكري والاجتماعي والحضاري والسياسي، مما أدىٰ إلىٰ ضعف الروح المعنوية واليأس والتخاذل والاتكالية، بعد أن كرست المناهج الأوربية علىٰ وفق مخطط يقضي علىٰ هذه الطاقات ثقافياً وعقائدياً، بعد الفراغ الّذي ترفده عوامل الجهل بالتراث والدين والدعايات المضلله، مما جعل الشباب منفعلين بعد أن كانوا منفتحين ، وكسالىٰ بعد أن كانوا فاعلين. وأصبحوا مقلدين بعد أن كانوا مبتكرين ، وأصبحت العبادات وشعائر الإسلام طقوساً تؤدىٰ لا شعائر تربوية، ثورية، تثويرية، تنويرية ، وأصبح الإيمان التبعيضي بالإسلام إيماناً نفعياً كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبِعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبِعْضٍ ، فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾[1]. وقد خاطب الرسول الأعظم ﷺ، ابن مسعود قائلاً: «ياابن مسعود ، فلا تكن ممن يشدّد علىٰ الناس ويخفّف علىٰ نفسه ، ويقول الله تعالىٰ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[2]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «...ما أكثر الوصف وأقل الفعل؟ إن أهل الفعل قليل ، إن أهل الفعل قليل، ألاّ وإنّا لنعرف الفعل والوصف معاً»[3].

إذاً المشكلة هي أننا فهمنا الإيمان والإسلام أقوالاً بلا أفعال ، وزعمنا أن الإيمان بالقلب فقط والتحلي والتمني ولذا كانت قلوبنا مع الإسلام وسيوفنا عليه وبالتالي قتلنا أنفسنا بقتله. وفي الوقت نفسه سعىٰ فيه الغربيون لكشف قوانين الطبيعة والاستفادة من منابعها بعد أن سحب المسلمون أنفسهم من هذا الموضوع وأوكلوا ما كان الأليق بهم للآخرين كما يقول إقبال اللاهوري: «بالأمس كان المسلم

---

١ - البقرة:٨٥

٢ - الصف:٢.

٣ - الكافي ٨:٢٧٧

ـ علىٰ مستوىٰ الشرف العلمي ـ قوياً إلا أنه عاد اليوم ذليلاً محنيّ الظهر» .

ومن العوامل المضللة للعقل البشري أيضاً ، الحب والبغض ، والتعصب الأعمىٰ ولذا حذر القرآن الكريم من هذه الأمراض القلبية ، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1]. وقال تعالىٰ: ﴿وَعَاداً وَثَمُوداً وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿...وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[3]. وغير ذلك من الآيات كثير وقد نقل عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: «حبك للشيء يعمي ويصم »[4]. ونقل عن الإمام علّي عليه السلام قوله: «ومن عشق شيئاً أعشىٰ بصره وأمرض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة»[5]. وجاء عنه عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً: «إن القلب إذا كره عمي»[6]. أما إذا أحب فمنع من موضوعية القوة العاقلة وطلبها للحقيقة كما يقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيا أيها العقلانيون! لايحجبنكم عن دفن أفكاركم الوافدة والبائدة هوىً... ولا استعلاء ... ولاكبر ... ولايمنعكم من قبول الحق شهرة ... ولاجاه ولامنصب ولاصيت ولاتدافعوا بأستكبار عن فكركم بعد وضوح البينة علىٰ الرغم من ثقل الحق بـ«قيل» و «لعل» و «قد» و «ربما» و «يحتمل» واعلموا أن الحق ثقيل ، وهو

---

١ - فصلت:١٧

٢ - العنكبوت:٣٨

٣ - الأعراف:٧٩

٤ - الجامع الصغير للسيوطي ١: ٥٠٠ غوالي اللئالي لأبن أبي الجمهور ١: ٢٩٠

٥ - نهج البلاغة تنظيم د .صبحي الصالح ص: ١٦٠

٦ - المصدر السابق:٥٠٣

مع ثقله مريء ، وأن الباطل خفيف ، وهو مع خفته وبيء [1] وما أحسن قول الشاعر:

عِلمُ العَليمِ وعَقلُ العاقلِ اخْتَلَفا — مَن ذا الّذي فيهما قد أحرز الشّرفا

فالعلمُ قال: أنا أحرَزْتُ غايَتهُ — والعقُل قال: أنا الرَّحمٰنُ بي عُرِفا

فأفْصَحَ العلمُ إفْصاحاً وقال له: — بأيِّنا اللّهُ في قُرآنهِ اتَّصَفا

فَأيْقَنَ العَقلُ أنَّ العِلمَ سَيِّدُهُ — فَقَبَّل العقلُ رَأْسَ العلمِ وانْصَرَفا

وأخيراً، أسأل الله سبحانه أن يوفقنا لخدمة الإسلام والمسلمين ومتابعة الحقيقة أينما كانت، وأن يجعلنا من المتمسكين بالثقلين، كتاب الله وأهل بيت النبي ﷺ إنه سميع الدعاء، هادياً ثواب هذا الجهد المتواضع إلىٰ روح والدي وإلىٰ روح أُمي التي غذتني بالولاية، وإلىٰ أرواح الأحبّة من الشهداء الذي لا يجف دمعي عليهم، وسيبقىٰ حزني عليهم سرمداً،الذين طواهم الزمان قبل الأوان . وإلىٰ روح والد السيّد حسين مرتضىٰ نقوي صدر الأفاضل، وإلىٰ روح عمّ الشيخ شبير الميثمي اللاكهاني مسؤول مؤسّسة زهراء (س) آكادمى .

المؤلف

سامي الغريريّ

العاشر من شهر رمضان المبارك ١٤٢١ هـ.

---

١ - تهذيب الكمال ٥:٥٠٨.

فهرس المصادر والمنابع

فهرس المصادر والمنابع

حرف الألف

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ اتجاهات وآراء في التربية والتعليم، د . جابر عمر، الطبعة الأُولىٰ ـ ـ بيروت ١٤٠٨ هـ.

٣ ـ الاتجاهات الحديثة، هاملتون جب، ترجمة علي كرد، الطبعة الأُولىٰ ـ القاهرة ١٤٠٥ هـ.

٤ ـ إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزاليّ (ت ٥٠٥ هـ ق) ، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٣٩٨ هـ.

٥ ـ الأدب الجاهلي، طه حسين (ت ١٣٩٣ هـ ق)، الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٥٨ م .

٦ ـ اساطير المعاصرين، أحمد عبد الرحمن محمّد ، الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت ١٤٠٧ هـ.

٧ ـ الإسلام علىٰ مفترق الطرق، المستشرق النمساوي ليوبولد فايس، اسلم وتسمىٰ باسم محمّد، الطبعة الأُولىٰ ـ النجف الأشرف ١٣٨٥ هـ .

٨ ـ الإسلام في الغرب، روجيه غارودي، ترجمة محمّد مهدي الصدر، الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت ١٤١٩ هـ.

٩ ـ الإسلام والحضارة العربية، محمد علي كرد، الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٦٨

١٠ ـ الإسلام والحضارة الغربية، محمد حسين، الطبعة الأُولىٰ ـ الرياض .

١١ ـ الإسلام والعروبة والعلمانية، د. محمّد عمارة، الطبعة الأُولىٰ ـ القاهرة.

١٢ ـ الإسلام والتاريخ، ترجمة هاشم صالح، مجلة الوحدة ١٩٨٩ م .

١٣ ـ الاستعمار الفرنسي في فريقيا السوداء، لمحمّد علي، طبعة القاهرة.

١٤ ـ الأسس القرآنية للتقدم، جمال سلطان، الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٤٠٥ هـ.

١٥ ـ الأسس الاجتماعية للتربية، د. محمّد لبيب النجيحي، مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٢ م.

١٦ ـ أُصول الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني(ت ٣٢٨ هـ ق) ، منشورات المكتبة الإسلامية ١٣٨٨م.

١٧ ـ الأعمال الكاملة، محمّد جمال الدين الأفغاني(ت ١٣١٤ هـ ق) ، الطبعة الأُولىٰ، دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦٨ م.

١٨ ـ آفاق جزائرية، مالك بن نبي(ت ١٣٩٣ هـ ق) ، ترجمة الطيب الشريف، الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٤١٥ هـ.

١٩ ـ افكار الكبار، فتحي رضوان، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٤٠٢ هـ.

٢٠ ـ الأندلس الذاهبة، ضياباشا التركي، تعريب عبد الرحمن ارشيدات، طبعة وزارة الثقافة والأعلام، الأردن ـ عمان ١٤١٩ هـ.

حرف الباء

٢١ ـ بحار الأنوار، العلاّمة محمد باقر المجلسي (ت ١١١٠ هـ ق) ، الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٤٠٥ هـ.

٢٢ ـ البحث عن الدين الحق، موينسنيور كولي، الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٤٠١ هـ

٢٣ ـ بنية العقل العربي، محمّد عابد الجابري، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٤٠٨ هـ.

حرف التاء

٢٤ ـ تاريخ الفلسفة، كفند لبند، الطبعة الأُولىٰ ـ القاهرة ـ الفجالة الجديدة.

٢٥ ـ تاريخ تمدن إسلام وتمدن، أُخذ بالواسطة، طبعة إيران .

٢٦ ـ تاريخ التربية، د . عبدالله عبد الدائم، الطبعة الثانية ـ دمشق ١٩٦٠م .

٢٧ ـ تاريخ مسلمين اسبانيا، دوزي الهولندي(ت ١٣٠٠هـ ق) ، الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٤١٥ هـ.
٢٨ ـ التبشير والاستعمار، و.س .نلسن.، الطبعة الخامسة ـ بيروت ١٤١٣ هـ.
٢٩ ـ تجديد الفكر الديني في الإسلام، محمّد اقبال بن نور محمّد اللاهوري الكشميري (ت ١٣١٧ هـ ق) ، الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٨م .
٣٠ ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، عدد خاص بمؤتمر الطلبة عقد سنة ١٣٥٠ هـ.
٣١ ـ التراث العلمي للحضارة الإسلامية، أحمد فؤاد باشا، طبعة الرياض .
٣٢ ـ التربية وطرق التدريس، د . صالح عبد العزيز ورفيقيه، طبعة دار المعارف ـ مصر ١٩٦١ م .
٣٣ ـ التشديد المضاف، لبرتراندرسل، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٣٥٩ هـ.
٣٤ ـ تفسير الصوفي عند الإمام الصادق، علي زيعور الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت ١٩٧٨ م .
٣٥ ـ تكوين العقل العربي، محمّد عابد الجابري، الطبعة الأُولىٰ، دار الفكر ـ بيروت ١٤١٨ هـ.
٣٦ ـ تلخيص المحصل، الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ ق)، الطبعة الأُولىٰ ـ النجف ١٣٦٩ هـ.
٣٧ ـ تنزيه الشريعة، لأبي الحسن علي بن محمّد بن عراق الكناني المصري المعروف بابن عراق (ت ٩٦٣ هـ ق) ، الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت ١٤٠٥ هـ.
٣٨ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، جمال الدين يوسف المزي (ت ٧٤٢ هـ ق)، تحقيق بشار عواد طبعة الثانية، دار الملايين للعلم ـ بيروت .

حرف الجيم

٣٩ ـ الجامع الصغير، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ ق)، الطبعة الأُولىٰ ـ القاهرة ١٣٦٥ هـ .

٤٠ ـ جريدة النهار البيروتية ٦ / ٤ /١٩٨٥ م .

حرف الحاء

٤١ ـ الحاوي في الفتاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ ق)، الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٤٠٦هـ.

٤٢ ـ الحدود والحقائق، علي بن الحسين الشريف المرتضىٰ الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق)، تحقيق پزوه والعلاّمة عبد العزيز الطباطبائي، الطبعة الأُولىٰ ـ قم .

٤٣ ـ الحضارة الغربية، مجتبىٰ اللاري، تعريب محمّد هادي اليوسفي طبعة ـ بيروت ١٤١٧ هـ.

٤٤ ـ حلية لأولياء، أحمد بن عبد عبد الله الإصبهاني (ت ٤٣٠ هـ ق)، الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت ١٣٨٩ هـ.

حرف الخاء

٤٥ ـ خداوند وكعبة، فارسي، أُخذ بالواسطة طبعة إيران .

حرف الدال

٤٦ ـ دائرة معارف القرن العشرين لمحمّد فريد وجدي (ت ١٣٧٣ هـ ق) ، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٤٠٢ هـ.

٤٧ ـ دراسات في التعليم الثانوي المقارن، د . محمّد جواد رضا، الطبعة الأُولىٰ بغداد١٩٦٢ م .

حرف الراء

٤٨ ـ رحاب نهج البلاغة، مرتضىٰ المطهري(ت ١٤٠٠ هـ ق)، طبعة دار المعارف ١٤١٥ هـ.

٤٩ ـ رسائل الكندي، تحقيق: محمّد أبو ريدة، طبعة القاهرة ١٩٥٠ م .

٥٠ ـ رسائل الحدود ، الشيخ الرئيس ابن سينا، طبعة القاهرة ١٣٥٨ هـ .

٥١ ـ رسائل اخوان الصفا، نشرها، د . عبد اللطيف العبد، طبعة القاهرة ١٣٨٩ هـ

٥٢ ـ رسائل الحدود والحقائق، الآبي تقديم: حسين محفوظ، طبعة دار المعارف بغداد ١٩٧٠م .

٥٣ ـ رسالة التوحيد، العدد ١٥، طبعة ايران .

٥٤ ـ روض القرطاس، أُخذ بالواسطة، طبعة بيروت .

حرف الزاء

٥٥ ـ الزينة، الرازي الإسماعيلي، نشر د . حسين فضل الله الهمداني، دار العلوم القاهرة ١٩٥٧ م .

حرف السين

٥٦ ـ السنن الكبرىٰ، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي(ت ٤٥٨ هق)، تحقيق: محمّد عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٤٠٥ هـ .

حرف الشين

٥٧ ـ شبهات حول الإسلام، محمّد قطب، الطبعة التاسعة ، مكتبة وهبة ١٩٦٦ م .

٥٨ ـ شمس الله تسطع علىٰ الغرب، ترجمة فاروق بيضون، وكمال الدسوقي، مراجعة مارون عيسىٰ الخوري، الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٨٠ م .

حرف الصاد

٥٩ ـ صحيح البخاري (الجامع الكبير) لعبدالله محمّد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ ق)، طبعة القاهرة ١٣٥٨ هـ.

٦٠ ـ صحيح الترمذي لعيسىٰ بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧ هـ ق) ، طبعة بيروت ١٤٠٥ هـ.

٦١ ـ صفحات مجهولة من تاريخ الحركة القومية في مصر علي عبد الرازق، طبعة القاهرة ١٣٨٩ هـ.

٦٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي لمسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيشابوري (ت ٢٦١ هـ ق) ، الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت .

حرف الضاد

٦٣ ـ ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، خالص جلبي، طبعة بيروت ١٤٠٤ هـ.

حرف الطاء

٦٤ ـ طبائع الاستبداد، عبد الرحمن الكواكبي، الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٤١٢ هـ.

حرف العين

٦٥ ـ العالم العربي اليوم، ترجمة محي الدين محمّد، بيروت، دار مجلة شعر ١٩٦٣ م.

٦٦ ـ العصريون معتزلة اليوم، يوسف كمال، طبعة دار الملايين ـ بيروت ١٤١٩هـ

٦٧ ـ عظمت المسلمين در اسبانيا، أُخذ بالواسطة، طبعة قم .

٦٨ ـ العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد تسهير، ترجمة محمّد يوسف طبعة

القاهرة وبغداد بدون تاريخ .
٦٩ ـ العقل السياسي، د . محمّد عابد الجابري، أُفست دار التعارف ١٤١٨ هـ.
٧٠ ـ العقل العربي واعادة التشكيل القديم د. محمّد عابد الجابري، طبعة الرياض .
٧١ ـ العقل في الإسلام، د . خليل أحمد خليل، طبعة بيروت ١٤١٨ هـ.
٧٢ ـ العقل والشريعة، د . مهدي فضل الله، طبعة بيروت ١٤١٩ هـ.
٧٣ ـ عقل وعلم، آية الله السيد حسين مرتضىٰ نقوي صدر الأفاضل، الطبعة الأُولىٰ ١٤٢١ هـ.
٧٤ ـ علاقات الأدب العربي القديم بالآداب السامية القديمة، الكتاب السنوي في القاهرة ١٩٩١ م.
٧٥ ـ علم التاريخ عند المسلمين، فرانزروزنثال، ترجمة أحمد صالح العلي الطبعة الثانية ـ بيروت ١٤٠٣ هـ.
٧٦ ـ عوالي الثالي، ابن أبي جمهور، طبعة دار الفكر الأُولىٰ ١٤٠١ هـ.
٧٧ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء، أحمد بن القاسم بم أبي اصيبعة طبعة بيروت ١٩٧٩ م .
٧٨ ـ العيون والمحاسن، لمحمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد(ت ٤١٣ هـ ق) ، طبعة دار الأضواء ١٤٠٥ هـ.

حرف الغين

٧٩ ـ الغرب والشرق الأوسط، لويس، طبعة القاهرة ١٤٠٨ هـ.
٨٠ ـ غرر الحكم ، لعبد الواحد الآمدي التميمي (ت ٥٥٠ هـ ق)، تحقيق: مير سيّد جلال الدين المحدث الارموي، جامعة طهران، طبعة ١٣٦٠ هـ.
٨١ ـ الغزو الفكري وهم أم حقيقة، محمّد عمارة، طبعة القاهرة ١٤٠٩ هـ.

٨٢ ـ غزو من الداخل ، جمال سلطان ، طبعة بيروت ١٤١٢ هـ.

حرف الفاء

٨٣ ـ الفصول المهمة في تأليف الأُمّة، عبد الحسين شرف الدين، طبعة بيروت ١٤١٥ هـ.

٨٤ ـ فقه الشورىٰ المنصورة ، توفيق الشاوي، طبعة دار الوفاء ١٤١٢ هـ.

٨٥ ـ الفكر الحضاري لدىٰ فقهاء الإسلام في الإسلام والحضارة ودور الشباب خليل ومحمّد عبد الواحد خلاف ، الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٨ م .

٨٦ ـ الفكر الإسلامي بين التأصيل والتجديد، زكي الميلاد ١٩٩٤ م طبعة دار الصفوة بيروت .

٨٧ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د. محمّد البهي الطبعة السابعة دار الفكر ١٤١٦ هـ.

٨٨ ـ الفكر العربي في مئة سنة، رفاعة الطهطاوي وحسن فوزي النجار طبعة دار الفكر ١٤١٢ هـ.

٨٩ ـ الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة تمام حسان ومراجعة محمّد مصطفىٰ حلمي، طبعة القاهرة بدون تاريخ .

٩٠ ـ فلسفة التاريخ، أحمد محمود صبحي، طبعة القاهرة مؤسّسة الثقافة الجامعية ١٩٧٥ م .

٩١ ـ الفكر اليهودي، عنان بن داود، طبعة الأندلس ١٤٠٥ هـ.

حرف القاف

٩٢ ـ قالوا عن الإسلام، د . عماد الدين خليل، طبعة الرياض .

٩٣ ـ القاموس المحيط، لمجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي (القرن

الثامن)، دار الفكر ـ بيروت ١٣٥٠ هـ.
٩٤ ـ قصة الفلسفة اليونانية، تصنيف أحمد أمين زكي وزكي نجيب محمود، الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٣٥ م.
٩٥ ـ قضايا إسلامية معاصرة، مجلة إسلامية، ١٤٢١ هـ.

حرف الكاف

٩٦ ـ الكامل في التاريخ، لعلي بن محمّد الشيباني المعروف بابن لأثير (ت ٦٣٠ هـ ق) ، تحقيق: علي شيري الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٤٠٨ هـ.
٩٧ ـ كتاب الأصنام، هشام بن محمّد الكلبي تحقيق أحمد زكي، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٤ م.
٩٨ ـ كتاب الأمّة، د. عبد الرحمن الطريري، طبعة وزارة الأوقاف والشؤن الإسلامية قطر ١٤٢٠ هـ.
٩٩ ـ كتاب كتبوا علىٰ الطين، ادواردگبيرا، ترجمة محمود الأمين، الطبعة الثانية، بيروت ١٤١٦ هـ.
١٠٠ ـ كتاب الحروف، الفارابي، تحقيق محسن مهدي، طبعة دار الشروق ١٤١٥هـ.
١٠١ ـ كتاب من بعيد، طه حسين (ت ١٣٩٣ هـ ق)، الطبعة الثانية ـ القاهرة.
١٠٢ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي المتقي الهندي(ت ٩٧٥هـ ق) ، طبعة بيروت ١٤٢٠ هـ.
١٠٣ ـ كيف نفهم التاريخ ، ترجمة د. عائدة سليمان عارف ودكتور أحمد مصطفىٰ طبعة بيروت ١٩٦٦ م.

حرف اللام

١٠٤ ـ لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور المصري (ت ٧١١ هـ ق) ، الطبعة الأُولىٰ دار صادر ـ بيروت ١٤١٠ هـ .

حرف الميم

١٠٥ ـ مبادىء التربية وتطور التعليم في العراق، د. نعيم يوسف صرافه، طبعة بغداد ١٩٥٦ م .

١٠٦ ـ مبادىء الفلسفة، د.أ.س رابوربرت، ترجمة أحمد أمين ،الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٣٨ م .

١٠٧ ـ مجموعة الدكتور محمّد عابد الجابري، طبعة القاهرة ١٤٢٠ هـ .

١٠٨ ـ مجموعة فتاوىٰ ابن تيمية، لابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ ق) طبعة الرياض .

١٠٩ ـ مجموعة مالك بن نبي (ت ١٣٩٣ هـ)، ترجمة الطيب الشريف ، طبعة بيروت ١٤١٨ هـ .

١١٠ ـ مجموعة مصنفات شيخ الأشراق ، تصحيح هنري كربن، منشورات جمعية الحكمة والفلسفة ١٣٥٩ هـ .

١١١ ـ المدرسة والمجتمع، جون ديوي، ترجمة أحمد حسن الرحيم، طبعة بيروت ١٩٦٤ .

١١٢ ـ مذهب الكمون عند متكلمي وفلاسفة العرب ، د. رجاء أحمد علي، طبعة دار الشرق للترجمة والنشر ١٤١٦ هـ .

١١٣ ـ المستصفىٰ من الأُصول، لمحمّد بن محمّد الغزالي(ت ٥٠٥ هـ ق) ، طبعة بولاق، القاهرة .

١١٤ ـ مشكل الأثر، لأبي جعفر أحمد بن محمّد الأزدي الحجري الطحاوي(ت ٣٢١ هـ ق)، طبعة بيروت ١٤١٥ هـ .

١١٥ ـ المطالب العالية ، لأبي العباس شهاب الدين أحمد الشافعي المصري المعروف بابن حجر (ت ٩٧٣ هـ ق)، طبعة بيروت ١٤٠٥ هـ.

١١٦ ـ معارك العربٰ ضد الغزاة ، د. محمّد عمارة ، طبعة دمشق ١٤١٩ هـ.

١١٧ ـ معجم علم النفس ، طبعة دار الملايين بيروت ١٩٨٥ م .

١١٨ ـ معجم علم النفس والتحليل النفسي ، طبعة دار النهضة العربية بيروت .

١١٩ ـ المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وزملاؤه، طبعة دار الفكر ١٤١٨ هـ.

١٢٠ ـ معركة التقاليد ، محمّد قطب ، طبعة القاهرة ١٤٢٠ هـ.

١٢١ ـ المعرفة التاريخية، أرنسا كاسيرر ترجمة أحمد محمود طبعة القاهرة .

١٢٢ ـ معركة الإسلام والرأسمالية، سيد قطب، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ م .

١٢٣ ـ المعقول والامعقول ، د. فؤاد اللاهواني، الطبعة بيروت ١٤١٩ هـ.

١٢٤ ـ مقدمة الألفاظ، لأبي جعفر محمّد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي(ت ٤٦٠ هـ ق) ، ترجمة محمّد تقي پزوه، طبعة قم .

١٢٥ ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام، طبعة القاهرة ١٤١٥ هـ.

١٢٦ ـ مناهج البحث العلمي وحدة أم نوع، د. أُسامة الخولي، سلسلة عالم الفكر الكويت ١٩٨٩ م .

١٢٧ ـ المنهج العلمي للإعتقاد، شاكر عبد الجبار، طبعة بيروت ١٤١٨ هـ.

١٢٨ ـ موسوعة الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٩ م .

حرف النون

١٢٩ ـ النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد، د . عاطف العراقي، الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت ١٤١٥ هـ.

١٣٠ ـ نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد، مارتن مكدرموت، ترجمة

علي هاشم ، طبعة مشهد .
١٣١ ـ نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغـرب المـعاصرين، د . محمود زيدان، طبعة دار الملايين ١٤١٩ هـ.

حرف الواو

١٣٢ ـ وسائل الشيعة، محمّد بن الحسن الحر العاملي(ت ١١٠٤ هـ ق)، الطبعة الخامسة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٤٠٣ هـ.
١٣٣ ـ وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج، مسـقط عمان ١٤٠٥ هـ.

حرف الياء

١٣٤ ـ اليهودية، د. وافي، طبعة القاهرة ١٣٨٩ هـ.

المصادر الأجنبية

r.f.atkinson.knowledge and explanation inhistory - london.1978.

lewis .thearabs.op.cit.p.63.

-ibib.p.43.

lewis.the arabs.op.cit.p.131.

thomas.s.khun.thestructure of scientific revolution university of chicago.1962.

cf.jadre.farid.lanotion de certitude chez chazali.paris.1958.p.65.

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة